

الفصل التاسع والعشرون

توحيد روسيا

١٣٠٠ - ١٥٨٤

١ - الشعب

في سنة ١٣٠٠ لم يكن لروسيا وجود . وكان معظم القسم الشمالى يتبع ثلاث مدن دولة تحكم نفسها بنفسها ، وهى نوفجورد Novgorod ، فيانكا Viatka ، بسكوف Pskov . وكانت المقاطعات الغربية والجنوبية خاضعة للتوانيا . أما فى الشرق فإن إمارات موسكو وريازان وسوزدال ونجنى لفجورد وتفر Tver ، ادعت كل منها لنفسها حق السيادة ، ولم يربطها بعضها ببعض إلا اشتراكها فى الخضوع « للقبيلة الذهبية » .

وقد اتخذت « القبيلة الذهبية Golden Horde » هذه التسمية من اللفظة التركية أوردو Ordu ومعناها « الخيم » ، أما وصفها « بالذهبية » فيرجع إلى الخيمة ذات القبة ، والتي كانت موشاة بغطاء من الذهب ، وكانت مقر قيادة « باتو الرائع » حفيد جانكيزخان . وبعد أن تم لهؤلاء الآسيويين الغزاة فتح جنوب روسيا وغرب آسيا ، شيدوا عاصمتهم فى « سراى Sarai » على أحد فروع نهر الفولجا الأدنى ، وهناك تقاضوا جزية سنوية من الأمراء الروس . وكانت « القبيلة » موزعة بين الزراعة والرعى المتنقل . وكانت الأسرات الحاكمة من المغول ، أما بقية السكان فكان معظمهم من الأتراك . وقد أطلق على القبيلة اسم « تاتار » نسبة إلى قبائل « تاتا Ta-ta » من صحراء

جوبي ، وهى قبائل بدأت فى القرن التاسع للزحف المغولى نحو الغرب . وكانت النتائج الأساسية التى ترتبت على طول خضوع روسيا « للقبيلة » نتائج اجتماعية : وهى استبداد أدواق موسكو ، وولاء الأهالى ولاء ذليلاً لأمرائهم ، والمركز الوضع للمرأة فى المجتمع ، وتنظيم حكومة موسكو وفقاً لأساليب التتار من النواحي العسكرية والمالية والقضائية . وقد عاقت سيطرة التتار محاولة روسيا لمدة قرنين من الزمان أن تصبح دولة أوربية غربية .

وواجه الشعب الروسى أشق الظروف بعدم اكتراث رواقى صامت ، اللهم إلا أنهم فى غمرة آلامهم وأحزانهم ، وجدوا فى أنفسهم الشجاعة لممارسة الغناء . ونعتهم أعداؤهم بالخشونة والقسوة والخيانة والخبث والعنف^(١) . ولا شك أن الكد والنصب ، وقسوة المناخ ، كل أولئك أكسبهم صلابة ، على أن ما تميزوا به من الصبر وروح المرح والمودة وكرم الضيافة ، كان فيه تعويض كبير لهم ، إلى حد أنهم مالوا إلى الاعتقاد بأنهم « أكثر إنسانية » ، وأنهم « ملح الأرض » (إشارة إلى ما جاء فى إنجيل متى : ٥ - ١٣) : لقد أدخلوا قسراً إلى المدنية بقوانين همجية وعقوبات رهيبة ، من ذلك — كما روى لنا — أن المرأة التى تقتل زوجها كانت تدفن حية حتى عنقها ، وأن السحرة والمشعوذين كانوا يحرقون أحياء فى قفص من حديد ، وأن مزيفى النقود كان يصب فى حلقهم معدن مصهور^(٢) . وكأى شعب يقاوم البرد كان الروس يدمنون المشروبات الروحية إلى حد فقدان الوعي أحياناً ، كما كانوا يضيفون إلى طعامهم التوابل التماساً للدفء . واستمتعوا بالحمام الساخن ، وكانوا يستحمون أكثر من معظم الأوربيين . وكان من أوامر الدين عندهم أن تخفى المرأة مفاتن جسمها وشعرها ، كما دمج الدين النساء بأنهن أولياء الشيطان ، ومع ذلك تساوين بالرجال أمام القانون ، وكثيراً ما شاركن فى تسليةهم أو فى الرقص ، وهو ما كان محرماً باعتباره خطيئة . وكانت الكنيسة الروسية تحض بشدة على مكارم الأخلاق ، وتحرم

عقد الزيجات واقترب الرجل من المرأة في أيام الصوم الكبير ، ومن ثم كانت صرامة الشريعة حائلا دون نزوع الشعب إلى الإفراط في الانغماس فيما يكاد أن يكون المسرة الوحيدة التي تركت له . وكان الوالدان هما اللذان يدبران شئون الزواج ، وكان يتم في سن مبكرة ، فكانت البنت في سن الثانية عشرة والولد في سن الرابعة عشرة يعتبران صالحين للزواج . وكانت مراسم العرس معتمدة تصحبها الأشياء الرمزية القديمة والأفراح التي كان مطلوبا من العروس في أثنائها أن تلتزم الصمت الموسوم بالحياء ، ولسوف تعوض عن ذلك فيما بعد . وكان ينتظر منها أن تقدم إلى والدتها زوجها غداة العرس ما يثبت أنه بنى بعذراء . وكان الحريم يبقين في طابق أعلى بعيداً عن الرجال ، وكانت سلطة الرجل في الأسرة مطلقة مثلها في ذلك مثل سلطة القيصر في الدولة .

وسما الورع عند الروس بالفقر حتى جعل منه سبيلا إلى الجنة . وكان كل بيت مهما صغر أو كبر يضم غرفة مزدانة بالآيقونات أو الصور المقدسة ، بمثابة مكان للصلاة من حين لآخر . وكان الزائر الصالح يحكي هذه الصور المقدسة قبل التسليم على أهل البيت . وكانت النساء الصالحات يحملن مسابح أبنا ذهن . وكانت الابتهالات تتلى بمثابة تعاويذ ورقى سحرية ، ومن ثم - كما يروى كتاب مشهور من القرن السادس عشر اسمه « كتاب الأسرة Domostroi » فإن ابتهالات معينة تكرر في اليوم ٦٠٠ مرة لمدة ثلاث سنوات ، قد نوّدى إلى تجسد الآب والابن والروح القدس في شخص المتضرع^(٢) . ومع ذلك كان هناك كثير من المظاهر الجميلة في هذه الديانة الممتلئة بالخرافات . فكان الناس في صبيحة يوم عيد الفصح يحبون بعضهم بعضاً بهذه الألفاظ البهيجة « المسيح قام » . وفي ظل هذا الأمل هان أمر الموت إلى حد ما . فإذا حانت منية الرجل الطيب الوقور سدد ديونه وأعفى المدينين له ، وأعتق واحداً أو أكثر من أرقائه ، ووزع

الصدقات على الفقراء والكنيسة ، ولفظ أنفاسه الأخيرة وكله أمل وثقة في الدار الآخرة .

وعملت الكنيسة الروسية على تقوية الورع عن طريق فن العمارة والرسوم الحائطية والأيقونات والعظات القوية وحفلات التنويم المغناطيسى ، والتراتيم التي يشترك في إنشادها عدد كبير من المرتلين ، والتي كانت تملأ وكأنها تخرج من أخفى أعماق النفس أو المعدة ، وكانت الكنيسة لساناً قوياً ناطقاً باسم الدولة ، وتثاب على الخدمات التي تؤديها في تعليم الآداب والأخلاق وتقويم السلوك وتوطيد دعائم النظام الاجتماعى بأوفى مثوبة . وكانت الأديرة كثيرة ضخمة . من ذلك أن « دير الثالوث الأقدس » الذى أسسه القديس سرجيوس فى سنة ١٣٣٥ ، كان قد جمع فى عام ١٦٠٠ من الأراضى الشاسعة ما يحتاج إلى أكثر من مائة ألف فلاح لزراعتها . وفى مقابل ذلك وزعت الأديار الصدقات على الروس ، وكان بعضها يطعم ٤٠٠ شخص فى اليوم ، وفى إحدى سنوات القمح كان دير فولوكولامسك Volokolamsk يطعم سبعة آلاف شخص يومياً . وكان الرهبان يقطعون على أنفسهم عهداً بالتزام العفة ، ولكن الكهنة كانوا يضطرون إلى الزواج . وكان معظم هؤلاء « الآباء » أميين ، ولكن الشعب لم يكن يعيب عليهم ذلك . وكان مطارنة موسكو فى معظم الأحوال أكثر أهل زمانهم كفاية ومقدرة وعلماً ، وكانوا يبدلون ثرواتهم للحفاظ على الدولة ، ويوجهون الأمراء على طريق الوحدة الوطنية . وكان سانت ألكسيس هو الحاكم الفعلى بروسيا طوال توليه منصبه (١٣٥٤ — ١٣٧٠) . إن الكنيسة الروسية بكل أخطائها التى ربما تكون قد فرضتها عليها مهامها — نقول إن هذه الكنيسة فى عصر التكوين والتشكيل هذا ، كانت بمثابة العامل الأبرز والأهم فى تلمين الشعب الذى صبرته وحشياً مصاعب الحياة وضراوة طبيعة الإنسان ذاته .

وحين رفضت الكنيسة الروسية في ١٤٤٨ اندماج الكنيسة اليونانية مع الكاثوليكية الرومانية في مجلس فلورنسه ، أعلنت استقلالها عن البطريرك البيزنطي ، وبعد ذلك بسنوات خمس حين سقطت القسطنطينية في يد الأتراك ، أصبحت موسكو عاصمة المذهب الأرثوذكسي . وحوالي ١٥٠٥ كتب راهب متحمس إلى أمير عظيم في موسكو « اعلم الآن أن سلطان المسيحية بأسرها قد آل إليك ، لأن رومة الأولى ورومة الثانية (يقصد رومة والقسطنطينية) قد سقطتا ، أما الثالثة فهي صامدة ، وإن يكون هناك رابعة ، لأن إمبراطوريتك المسيحية سوف تدوم إلى الأبد » (١) .

وكادت الكنيسة أن تكون النصير أو الراعي الوحيد للآداب والفنون : ومن ثم كانت هي التي توجهها . ولم تكن أجود الآداب مدونة . وكانت أغاني الشعب التي رددتها ألسنة الناس من جيل إلى جيل هي التي تنبع وتمجد قصص حبهيم أو أعراسهم أو أحزانهم أو فصولهم أو أعيادهم أو موتاهم ، وكان هناك أناشيد مألوفة لقديسين مرموقين وأبطال قدامى ومآثر أسطورية ، مثل مآثر سادكو Sadko تاجر نفجرد . وكان المكفوفون والعرج يطوفون بالقرى ينشدون مثل هذه الأغاني والأناشيد والتراتيل المقدسة . وكان كل الأدب المكتوب تقريباً مقصوراً على الأديرة ، وكان يخدم الأغراض الدينية .

وكان الرهبان هم الذين وصاوا عندئذ برسم الأيقونات إلى فن كامل . فكانوا يأتون بلوحة صغيرة من الخشب ، مغطاة بالقماش أحياناً ، ينشرون عليها طبقة لزجة ومن ثم يرسمون عليها الصورة ويضعون الألوان ، ثم يغطونها بالطلاء ويضعونها في إطار معدني . وكانت الموضوعات تحددتها السلطات الدينية ، أما الأشكال والسمات فكانت تقتبس من النماذج البيزنطية ، وعادوا بها أدراجهم في تطور مستمر عبر فسيفساء القسطنطينية إلى رسوم الإسكندرية الهلينية . وأحسن أيقونات هذا العصر هي صورة لا يعرف

اسم صاحبها تمثل « المسيح يرقى عرش السماء » موجودة في كاتدرائية صعود العذراء في موسكو ، وصورة دخول المسيح إلى أورشليم — وهى من عمل مدرسة نفجرد ، والثالث المقدس للراهب أندريه روبليوف في دير الثالث المقدس . ورسم روبليوف وأستاذ تيوفانس الإغريق ، لوحات جصية جدارية تجمع بين الطراز البيزنطى والطراز البيزنطى الجريكوفى فلاديمير وموسكو ونفجرد ، ولكن الزمن أعمل أثره فيها .

إن كل حاكم كان يبرز عظيمته ويرى ضميره ببناء كنيسة أو دير ، أو تخصيص الأوقاف والهبات لهذا أو تلك . وقد انضمت الأشكال والحوافز من أرمينية وفارس والهند والتبت ومنغوليا وإيطاليا واسكنديناوه — انضمت إلى التراث البيزنطى السائد ، لتشكيل عمارة الكنيسة الروسية ، بما فيها من جمال تعدد الوحدات ، والقبعة المذهبة فى الوسط ، والقباب البصلية الشكل التى صممت بطريقة رائعة لمنع تراكم مياه المطر والثلوج . وبعد سقوط القسطنطينية وطرد التتار قل اعتماد روسيا على الفن البيزنطى والفن الشرقى ، وجاء التأثير من الغرب ليعمل من الطراز السلافى . وفى سنة ١٤٧٢ راود الأمل لإيفان الثالث فى أن يرث حقوق الأباطرة البيزنطيين وألقابهم ، ومن ثم تزوج « زو باليواوغوس Zoë » ابنة أخى آخر حكام الإمبراطورية الشرقية ، وكانت قد نشأت فى رومة وتشربت شيئاً من بواكير عصر النهضة ، وقد جلبت معها بعض العلماء الإغريق ، وأظهرت لإيفان على الفن الإيطالى ، وربما كان بإيحاء منها إرساله لأول بعثة روسية إلى الغرب (١٤٧٤) ، وقد أصدر إليها توجيهاته بالحصول على الفنانين الإيطاليين لموسكو . وقبل الدعوة ريودلفو فيرافانتى البولونى الذى كان يلقب بأرسطو بسبب تعدد مواهبه ، ثم تصيد المبعوثون الروس بعد ذلك بييرو سولاريو ، والفيزيونوفى وعدة فنانين آخرين وهؤلاء الإيطاليون هم الذين أعادوا بناء الكرملين مع معاونين وعمال من الروس .

وكان يورى دلجوروكى Yuri Delgoruki قد أسس موسكو سنة ١١٥٦ بأن أقام سوراً حول داره (فيللا) ، التى كانت تقع فى موقع استراتيجى عند التقاء نهرين ، فكان هذا الحصن « Kreml » أول شكل للكرملين . واتسع مع الزمن هذا النطاق ، وقامت الكنائس والقصور داخل سياج مرصوص من البلوط ، ونذر ايفان الثالث نفسه لتعديل هذه المجموعة بأكملها . ومن الواضح أن فييرافانتى Fieravante هو الذى أعاد بناء كاتدرائية صعود العذراء القديمة فى الكرملين (١٤٧٥ - ١٤٧٩) حيث توج القياصرة فيما بعد . وبقى الطراز بيزنطيا مع زخرفة إيطالية . وأضاف مهندسون معماريون من بسكوف داخل نطاق الكرملين « كاتدرائية عيد البشارة » الصغيرة (١٤٨٤ - ١٤٨٩) . ثم أقام أليفزيو Alevisio فى الكرملين كاتدرائية رئيس الملائكة (١٥٠٥ - ١٥٠٩) . وفيما بين ١٤٨٥ - ١٥٠٨ أعاد سولاريو وآخرون تسوير المنطقة بالآجر القرفلى على طراز قلعة سفورزسكو فى ميلان^(٥) . وهكذا - ترى أنه من وسط روسيا الزاخر بالمعابد ، ومن قلب هذه الوحدة المتسلطة التى تركزت فيها السلطان الدنيوية والدينية ، بسط أمراء موسكو العظام ومطارنتها حكمهم ونفوذهم على النبلاء والتجار والفلاحين ، ووضعوا بالدماء والعظام وبالتقى والورع أسس واحدة من أقوى الإمبراطوريات فى العالم .

٢ - أمراء موسكو

ظلت موسكو قرية مغمورة حتى عهد دانيال اسكندروفتش فى أواخر لقرن الثالث عشر ، ووسعت رقعتها الداخلية حتى جعلت منها إمارة صغيرة ، ويعزو الإدراك التاريخى المتأخر^(٦) - نمو موسكو إلى موقعها على نهر الفولجا شرقاً ، وأنهار أوكا والدون والدينير جنوباً وغرباً . وطمع يورى دانيالفتش بن دانيال أمير موسكو فى الاستيلاء على إمارة سوزدال المجاورة ،

وكانت عاصمتها فلاديمير غنية نسبياً ، كما طمع في ذلك ميكائيل أمير تفر . Tver . واقتتل الفريقان للحصول على الجائزة فكانت الغلبة لموسكو ، وقتل ميكائيل وضم إلى قائمة القديسين . ونمت موسكو ، واتخذ إيفان الأول ، آخر يورى لقبى أمير موسكو العظيم ، ودوق فلاديمير العظيم .

وكان إيفان الأول ، بوصفه جامعاً للجزية الروسية لحساب خان التتار ، يتقاضى أكثر مما كان يرسله أو يحوله ، ومن ثم أثرى وازدهر بطريقة شريفة مؤذية . وجعله جشعه للمال ينز بلقب « Kalita » ومعناه « حقيبة المال » . ولكنه بذلك حمى الإمارات من حملات التتار لمدة ثلاث عشرة سنة نعمت فيها بالهدوء . وتوفى إيفان سنة ١٣٤١ على أنه راهب حليق شعر الرأس ، وأطلقوا من حوله بخور القداسة . وورث عنه ابنه سيميون المتكبر ميله إلى جمع الضرائب . ولما كان يدعى السلطان على كل الولايات فإنه أطلق على نفسه اسم الأمير الأعظم على كل الروس ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين الموت بالطاعون (١٣٥٣) . وكان إيفان الثانى حاكماً وديعاً يؤثر السلام ، وفي عهده اجتاحت روسيا حرب قتل فيها الأخ أخاه . وتميز ابنه ديمترى بكل الصفات التى تتطلبها الحرب والقتال ، فهزم كل منافس له وتحدى خان التتار . وفي ١٣٨٠ جميع ماماي خان جيشاً من التتار والمرتزة الجنوبيين وغيرهم من المتعطلين المتشردين ، وتقدم به نحو موسكو . وقابل ديمترى وحلفاؤه الروس هذا الجحفل عند كوليكوفو Kulikovo قرب نهر الدون وأبزلوا به الهزيمة (١٣٨٠) ، وفاز بلقب دونسكوى Donskoi وعاود التتار الكرة بعد عامين بمائة ألف رجل ، ولكن الروس ، وقد غرتهم وأرهقتهم نشوة النصر ، لم يستطيعوا أن يواجهوا التتار بقوة مماثلة . واستولى التتار على موسكو ، وذبحوا أربعة عشر ألفاً من السكان وأحرقوا المدينة برمتها . وعقد فاسيل الأول ، ابن ديمترى ، صلحاً مع التتار ، وضم نجنى نفجورد ، وأرغم نوفجورود وفياتكا على قبوله أميراً عليها .

واقتبس أمراء موسكو والعظام أساليب الطغيان والاستبداد عند التتار ، وربما كان هذا بديلاً عن فوضى الجهل ، وأدارت دفة الحكم على الأسلوب البيزنطي بـ « قراطية » في ظل حكومة فردية مطلقة طابعها العنف والدماء ، خاضعة لمجلس من أبناء الطبقة العليا ذوي الامتيازات (Boyars) الذين كانوا يقدمون مشورتهم وخدماتهم للأمير ، وكانوا في نفس الوقت قادة الجيش وحكام الأقاليم والقائمين على التنظيم ، والحماة والمستغلين للفلاحين شبه الأحرار الذين كانوا يفلحون الأرض . وهاجر مستعمرون مغامرون إلى الأقاليم غير المستقرة وجففوا المستنقعات وأخصبوا الأرض بحرق الغابات والأدغال واستهلكوا الأرض نتيجة إسرافهم وقصر نظوهم في فلاحها ، ثم انصرفوا عنها ضرباً في الأرض حتى وصلوا البحر الأبيض وجبال الأورال ، واتخذوا سبيلهم سرباً إلى سيبيريا ، وفي السهول المترامية الأطراف بلا نهاية كانت المدن كثيرة ولكنها صغيرة ، وكانت البيوت مبنية من الخشب والطين ، وكان مقدراً لها أن تحترق وتنقض على مدى عشرين سنة على الأكثر . وكانت الطرق غير معبدة وأقل إزعاجاً في الشتاء حيث كانت تكسوها الثلوج وتملؤها الزحافات والأحذية العالية . وآثر التجار الأنهار على الطرق ، ونقلوا تجارتهم في بطاء على الماء أو الجليد بين الشمال والجنوب ، مع بيزنطة والمسلمين وعصبة الهانسا (وقد تكونت من بعض المدن الحرة في شمال ألمانيا والدول المجاورة ، تكونت في العصور الوسطى بقصد التجارة) . وربما كانت هذه التجارة المنتشرة هي التي تغلبت على النزعة الفردية لدى الأمراء وفرضت توحيد روسيا . وكان فاسيلي الثاني (١٤٢٥ - ١٤٦٢) الملقب باسم تمنى Temny - الأعمى - لأن أعداءه عمأوا عينيه - هو الذي قضى على تمرد العصاة وألزمهم الطاعة ، عن طريق التعذيب وبترا الأطراف والجلد ، وترك لابنه روسيا قوية إلى درجة تضع معها نهاية لمخازي حكم التتار .

وصار إيفان الثالث هو (العظيم) ، لأنه هو الذى أنجز هذه المهمة ،
ووجد روسيا . لقد خلق للشدائد ، وكان مجرداً من المبادئ الخلقية ،
لا يتورع عن شيء ، حاد الذهن ماكرأ حذراً عنيداً قاسياً ، وكان يقود
جيوشه إلى النصر على مسافات بعيدة ، وهو مستقر في مكانه في الكرملين .
وكان يعاقب على العصيان أو العجز والقصور عقاباً وحشياً ، بأن يعذب
أو يضرب بالسياط أو يهتر أطراف حتى أعضاء المجلس ، أو يقطع رأس
طبيب أخفق في علاج ابنه ، وهكذا يمثل هذه الصرامة كان يسيطر على
حاشيته ، حتى أن النساء ليغمى عليهن بمجرد نظرة منه . وأطلقت عليه روسيا
اسم « الرهيب » حتى التقت بحفيده .

وكانت إمارة نفجورد أيسر فتوحاته ، وكان ينظر في تطلع بجشع إلى
هذه السوق المزدهرة الخاضعة للضريبة ، ولقد حرصه تجار موسكو على
القضاء على منافسهم في الشمال (٧) . وسيطر الأمير العظيم على السهول
الممتدة بين موسكو ونفجورد ، حيث كانت الجمهورية التجارية تشتري
المواد الغذائية اللازمة لها وتبيع بضاعتها ، ولم يكن على إيفان إلا أن يغلق
هذا المخزن المورد للحبوب وتلك السوق ، لكي تقع المدينة الدولة
في ضائقة وتفلس ، أو تخضع وتستسلم . وبعد ثمان سنوات توالى فيها
الحرب والهدنة ، تنازلت الجمهورية عن استقلالها (١٤٧٨) ونقل ٧٠٠٠
من صفوة سكانها إلى سوزدال ، وطردت عصبة الهانسا ، وورث تجار
موسكو أسواق نفجورد ، وورث أميرهم دخلها .

وما أن ضم إيفان مستعمرات الجمهورية المندثرة حتى بسط حكمه على فنلندة
والمنطقة المتجمدة والأورال . وخضعت بسكوف في الوقت المناسب حفاظاً
على الأشكال الجمهورية فيها تحت سيادة الأمير العظيم . وتلمست تفر
أسباب الحماية عن طريق التحالف مع لتوانيا ، ولكن إيفان سار إلى المدينة
بنفسه واستولى عليها دون أن يضرب ضربة واحدة ، وتبعها روستوف Rostov

وايادروسلاف Iaroslavl . ولما مات إخوة إيفان رفض أن توّول مخصصاتهم إلى ورثتهم ، وضمها إلى ممتلكاته . وانحاز أخ له — أندريه — إلى لتوانيا فقبض عليه واعتقله ، ومات أندريه في السجن ، فبكى إيفان ، ولكنه صادر أملاكه . إن السياسة لا قلب لها .

وبدا أن التحرر من ربقة التتار مستحيل ، ولكن ثبت أنه أمر يسير . ذلك أن يقايا الغزاة المغول — الأتراك كانوا قد استقروا في ثلاث جماعات متنافسة متنافرة ، وتركزوا في سراي Sarai وقازان Kazan وفي القرم ، وكان إيفان يضرب كلا منها بالأخرى حتى وثق أنها لن تتحد ضده . وفي ١٤٨٠ امتنع إيفان عن دفع الجزية ، وقاد خان أحمد جيشاً كبيراً من الفولجا حتى ضفاف نهرى أوكا وأوجرا جنوب موسكو . وقاد إيفان جيشاً قوامه ١٥٠,٠٠٠ رجل إلى الضفاف المقابلة ، وواجه العدوان بعضهما بعضاً لعدة شهور دون أن تقع بينهما معركة . وتردد إيفان في أن يغامر بعرشه وحياته في رمية واحدة ، كما خشى التتار مدفعيته التي أدخل عليها تحسينات . ولما تجمدت الأنهار ، ولم تعد تحمي الحيوش بعضها من بعض ، أصدر إيفان أوامره بالانسحاب ، وبدلاً من تعقب الجيش المنسحب ، انسحب التتار كذلك ، حتى وصلوا إلى سراي (١٤٨٠) ، وكان انتصاراً هائلاً ولكنه مضحك . ومنذ ذلك الحين لم تدفع موسكو جزية إلى التتار ، وسمى الأمير العظيم نفسه الحاكم المطلق ، أى الذى لا يدفع الجزية لأحد . واستدرج الخانات المتنافسون إلى محاربة بعضهم بعضاً ، وهزم أحمد وذبح ، وانقضى سلطان المغول في سراي ، واندثرت « القبيلة الذهبية » .

وبقيت لتوانيا ، ولم يطق الأمير العظيم ولا مطران موسكو الصبر على السلام ، ما دامت أواكرانيا وكييف وروسيا الغربية تحتفظ بقوة تهدد موسكو دوماً ، وتدعو الأرثوذكس إلى المسيحية اللاتينية . وزعم إيفان أن ثمة مؤامرة لاغتياله ، واتخذ من ذلك ذريعة لشن حرب مقدسة لتخليص

المديريات المغرر بها (١٤٩٢) . فما كان من أمراء لتوانيا الذين استشعروا القلق في ظل اتحاد الرومان الكاثوليك البولندي إلا أن فتحوا أبوابهم أمام جيوش إيفان . وتوقف الاسكندر أمير لتوانيا العظيم في فدروشا **Vedrosha** وهزم (١٥٠٠) . ورتب البابا الاسكندر السادس هدنة لمدة ست سنوات . وفي نفس الوقت احتفظت موسكو بالأقاليم التي كسبتها - إلى الغرب من نهر سوز **Sozch** بما في ذلك شرنيجوف **Chernigov** حتى سمولنسك تقريباً . وكان إيفان الثالث قد بلغ آنذاك الثالثة والستين فترك تخليص البقية لحفدته .

إن حكم إيفان الذي دام ثلاثاً وأربعين سنة يعدل في أهميته أى حكم آخر في تاريخ روسيا قبل القرن العشرين . وسواء كان مدفوعاً بشهوة المال وحب السيطرة أو بليمانه الراسخ بأن أمن الروس وازدهارهم يتطلبان توحيد روسيا ، فإن إيفان الثالث حقق لبلده ما كان يؤديه لويس الحادى عشر لفرنسا ، وهنرى السابع لإنجلترا ، وفرديناند وايزابلا لأسبانيا ، والإسكندر السادس للولايات البابوية ، ولقد كشف تزامن هذه الأحداث عن تقدم القومية والملكية ، الأمر الذى قضى على سلطان البابوية الأسمى فوق الأمم والقوميات . وفقد أبناء الطبقة العليا استقلالهم ، وأرسلت الإمارات الجزية إلى موسكو ، واتخذ إيفان لقب « ملك روسيا بأسرها » . ويحتمل أن زوجته الإغريقية أوصته بأن يتخذ كذلك لقب « قيصر » ، وهو لقب روماني إغريقي . ولقد اتخذ النسر الإمبراطورى المزدوج شعاراً قومياً ، وادعى وراثته السلطة السياسية والدينية لبيزنطة الغابرة ، واقتبست من بيزنطة نظريات الحكومة وأعيادها ومراسمها ، وكذلك فعلت الكنيسة ، بوصفها من أدوات الدولة ، بعد أن دخلت إلى روسيا المسيحية البيزنطية والأبجدية البيزنطية الإغريقية وأشكال الفن البيزنطى ، وبقدر ما كانت بيزنطة شرقية لقربها من آسيا ، فإن روسيا التى كانت قد اضطبغت بالصبغة الشرقية بسبب حكم التتار لها ، أصبحت من وجوه كثيرة مملكة شرقية مغايرة للغرب غريبة عنه غامضة لديه .

٣ - إيفان الر ي ب

١٥٣٣ - ١٥٨٤

تابع فاسيلي الثالث إيفانوفتش ١٥٠٥ - ١٥٣٣ توحيد روسيا ، وضم
مولدسك إلى مملكته ، وأرغم إمارتي ريازان ونيجرد - سفروفسكي على
الاعتراف بسيادته . وقال أحد كتاب الحوليات الروس « ليس سوى
الأطفال الرضع هم الذين استطاعوا أن يكفكفوا الدمع ، عندما خضعت
لحكم فاسيلي (١٥١٠) جمهورية بسكوف التي كانت يوماً مزهوة بنفسها » ،
كانت روسيا آنذاك دولة أوربية كبرى . وتبادل فاسيلي الرسائل على قدم
المساواة مع مكسيمليان الأول وشارل الخامس وسليمان القانوني وليو العاشر .
وعندما حاول بعض أبناء الأرستقراطية أن يحدوا من استبداده كبج بجاحهم
بكلمة احتقار واحدة هي « فلاحون » . ثم قطع رأس أحد النبلاء . ولما لم
ينجب من زوجته أولاداً ، فإنه طلقها وتزوج من هيلينا جلنفسكي ، وهي
سيدة مصصة ولة بارعة مستبدة . وبعد موته صارت وصية على ابنها إيفان
الرابع فاسيليفتش البالغ من العمر ثلاث سنوات . وعند موتها عاود أعضاء
المجلس أبناء الطبقة العليا شغبهم ، وتولت أحزابهم المتناحرة زمام الحكم
تباعاً ، ونشروا الفوضى والحلل في المدن نتيجة عنفهم ، واستنزفوا في
الحرب الأهلية دماء الفلاحين الروس البؤساء العاجزين .

وفي غمرة هذه المنازعات كاد الملك الصغير « سيد روسيا بأسرها » أن
يكون مهملاً متجاهلاً بل محروماً بائساً في بعض الأحيان . ولما كان يبصر
بضروب الوحشية في كل مكان من حوله ، فإنه حسبها أسلوباً مقبولا في
السلوك ، ومن ثم اختار أعنف ضروب الرياضة . ونشأ شاباً نكدا متقلب
للمزاج متشككاً . وفجأة ، عندما كان بعدُ ولداً في الثالثة عشرة من
عمره ، (١٥٤٤) أُلقي إلى كلابه أندريه شويسكي زعيم أحد أحزاب

النبلاء ، وتولى زمام الأمور في الدولة . وبعد ثلاث سنوات قام مطران موسكو بتتويجه قيصرأ ، ثم أمر القيصر بأن ترسل إليه نخبة من العذارى النبيلات من مختلف أنحاء المملكة ، واختار منهن أنستاسيا رومانوفا وتزوج منها ، ومن لقب أسرتها سوف يتحدد عما قريب لقب أسرة حاكمة .

وفي ١٥٥٠ دعا أول جمعية وطنية من جميع أنحاء روسيا ، واعترف أمامها بجميع أخطائه في شبابه ، ووعد بإقامة حكومة عادلة رحيمة . ولعله تحت تأثير الإصلاح في ألمانيا واسكنديناوه ، درست الجمعية اقتراحا بمصادرة أملاك الكنيسة لتدعيم الدولة . ورفض هذا الاقتراح ، ولكن اتخذ قرار آخر متصل به ، بمقتضاه استردت كل الأراضي المنقولة للكنيسة وغير الخاضعة للحجز ، كما ألغيت كل الهبات التي منحت للكنيسة أيام كان إيمان قاصراً . ولم يعد للأديار حق حيازة أية ممتلكات دون موافقة القيصر . وهذا بال رجال الدين نوعاً ما عندما عين إيمان الكاهن سلفستر مرشداً روحياً له ، واتخذ منه ومن الكسيس أداشيف وزيرين له ، وبفضل هذين المعاوين القديرين كان إيمان في سن الحادية والعشرين سيداً على مملكة تمتد من سمولنسك إلى الأورال ، ومن المحيط المتجمد إلى بحر قزوين تقريباً .

وكان همه الأول تقوية الجيش ، والموازنة بين قوى النبلاء المعادين له ، عن طريق هئتين مسئولتين أمامه : فرسان القوزاق ومشاة سترلتس Strieltsi (*) ، مزودة بالهركوبه (Harquebus) — نوع من الأسلحة النارية اخترع في القرن الخامس عشر : ونشأ القوزاق في هذا القرن من طبقة الفلاحين الذين كان مقامهم في جنوب روسيا بين المسامين والمسكوف يقتضيهم أن يكونوا دوماً على أهبة الاستعداد للقتال عند أول صيحة ، كما هيأ لهم

(*) مشتقة من معنى إطلاق النار . أما القوزاق فيحتمل أنها محرفة عن اللفظة تركية معناها مفامر .

فرصاً تتعذر مقاومتها لسلب القوافل التي كانت تنقل التجارة بين الجنوب والشمال . وجموع القوزاق الأصليون هم قوزاق نهر الدون في جنوب شرقي روسيا ، وقوزاق زابوروج Zaporogue في الجنوب الغربي ، وكانوا جمهوريات شبه مستقلة ، ومن الغريب أنه كان يسود بينهم نظام ديموقراطي ، حيث كان أرباب البيوت يختارون رئيساً تنفيذياً لجمعية منتخبة . وكانت كل الأرض ملكاً عاماً مشتركاً ، ولكنها تؤجر إلى الأسرات بصفة فردية لاستخدامها استخداماً موقوتاً ، وكانت الطبقات كلها متساوية أمام القانون^(٨) . وأصبح فرسان القوزاق ، بسبب اشتهارهم بالشجاعة الهائلة ، المدعامة الأولى لإيفان الرابع داخل البلاد وفي الحرب .

وكانت سياسته الخارجية بسيطة ، فهو يريد أن تربط روسيا بين بحر البلطيق وبحر قزوين . وكانت كازان واستراخان والقرم لا تزال في قبضة للتتار الذين كانوا لا يفتأون يطالبون موسكو بالجزية ، ولكن عبثاً . وكان إيفان على يقين من أن أمن روسيا ووحدتها يتطلبان امتلاكها لهذه الأجزاء ، والتحكم في نهر الفولغا حتى منابعه . وفي ١٥٥٢ قاد القيصر الشاب ١٥٠,٠٠٠ رجل إلى أبواب كازان وحاصرها لمدة خمسين يوماً . ولكن المسلمين - وكان عددهم ٣٠,٠٠٠ - قاوموا وصمدوا في عناد تحلوهم للروح الدينية وهاجموا أعداءهم في غارات متكررة ، وعندما أسر نفر منهم وعلقوا على أعواد المشانق أمام الأسوار سدد إخوانهم المدافعون إليهم السهام صائحين : « خير ذؤلاء الأسرى أن يموتوا بأيدي بني وطنهم النظيفة من أن يهاكوا بأيدي المسيحيين الدنسة^(٩) » . ولما وهنت عزائم المحاصرين وأصابهم القنوط بعد شهر من الإخفاق ، أرسل إيفان إلى موسكو في طلب صليب عجيب ، فما أن ظهرت هذه الأعجوبة أمام جنوده حتى ثارت حميتهم من جديد ، وكان الله يحارب مع الجانبين . وبث مهندس ألماني الألغام في الأسوار فانهارت ، واندفع الروس إلى المدينة صائحين « الله

معنا » ، وأعملوا الذبح في كل من لم يباعوا بوصفهم رقيقا . وروى أن إيفان ذرف الدمع حسرة على المغلوبين قائلا : « إنهم ليسوا مسيحيين » ولكنهم رجال » وأسكن إيفان فلول المسيحيين في الأطلال . وهتفت روسيا بأنه أول سلافي يستولى على معقل ترى ، واحتفلت بالنصر ، كما احتفلت فرنسا ببصد المسلمين في معركة تور سنة ٧٣٢ . وفي ١٥٥٤ استولى إيفان على استراخان ، وأصبح نهر الفولغا قناة روسية تماما . وظلت القرم في يد المسلمين حتى ١٧٧٤ . ولكن قوزاق نهر الدون أحنوا رءوسهم آنذاك لحكم موسكو .

وما أن حرر إيفان حدوده في الشرق حتى ولى شطره متاهفاً نحو الغرب . وكان يراوده حلم تجارة روسية تتدفق غربا وشمالا عبر الأنهار الكبرى إلى البلطيق ، وكان يحسد غرب أوروبا على التوسع الصناعي والتجاري ، وكان يلتمس للاقتصاد الروسي منفذاً يربط به نفسه بهذا التوسع . وفي ١٥٥٣ أرسل تجار لندن سير هيو ولفي Hugh Willoughby وريتشارد تشانسler لإيجاد طريق في المنطقة المتجمدة حول اسكنديناوة وصولا إلى الصين ، فأبحرا من هاروك Harwich في ثلاث مراكب ، وهلك اثنان من الملاحين في الشتاء في لابلند ، ولكن تشانسler وصل إلى الموقع الذي أسماه البريطانيون أركنجلسلك ، على اسم الملاك ميكائيل : وشق تشانسler طريقه وسط مبات الأخطار والصعاب إلى موسكو ، فعقد معه إيفان ، ثم مع أنطوني جنكنسن فيما بعد ، معاهدات تحول « شركة لندن والمسكوف » امتيازات تجارية خاصة في روسيا .

ولكن هذه المعاهدات كانت بالنسبة لإيفان مجرد ثقب ، ولم تكن بابا أو منفذا إلى الغرب ، وأراد أن يستجلب فنيين من ألمانيا ، وحشد له من هؤلاء ١٢٣ في لوبك ، ولكن شارل الخامس رفض السماح لهم بالخروج . وكان النهر الكبير دويينا الجنوبي يجري من قلب روسيا إلى البلطيق قرب

ريحا ، ولكنه يجرى عبر ليفونيا المعادية ، ولم تكن منابع دويينا والفلجا بعيدة بعضها عن بعض ، ومن ثم يمكن ربط النهرين بقنوات ، وهنا ، بحكم « القدر المقدور » كان الطريق المائى الذى يمكن أن يعوض روسيا عن عدم تناسب أراضيها المترامية الأطراف مع سواحلها وثغورها ، ومن ثم يمكن أن يتصل بحر البلطيق ببحر قزوين والبحر الأسود ، كما يمكن أن يلتقى الشرق والغرب . وفى تبادل السلع والأفكار قد يستطيع الغرب أن يسدد شيئاً من دينه الثقافى القديم للشرق :

وعلى ذلك فإن إيفان فى سنة ١٥٥٧ ابتكر ذريعة لمهاجمة ليفونيا ، وأرسل إليها بجيش تحت قيادة شاه على ، الذى كان أخيراً خان التتار على كازان . واجتاح الجيش البلاد بطريقة وحشية ، فأحرق الدور والمحاصيل ، واستعبد الرجال واغتصب النساء حتى الموت . وفى ١٥٥٨ استولى جيش روسى آخر على نارفا التى تبعد عن البلطيق بثمانية أميال . واستنجدت ليفونيا اليائسة ببولندا والدانمارك والسويد وألمانيا ، وارتعدت أوروبا الوسطى بأسرها فزعاً من مشهد الطوفان السلافى الذى وصل إلى الغرب ، كما وصل فى القرن السادس إلى نهر الإلب . واستتار ستيفن باثورى حمية البولنديين وقادهم إلى الانتصار على الروس عند بولتسك (١٥٨٢) . ولما حلت الهزيمة بإيفان سلم ليفونيا إلى بولندا .

وقبل هذه النكسة الحاسمة بزمان طويل ، كان إخفاق حملات إيفان قد أدى إلى الثورة فى الداخل ، حيث كان التجار الذين كان إيفان يسعى إلى إثرائهم بفتح طرق جديدة للتجارة ، قد فقدوا صوابهم بسبب هذه الحرب المدمرة الباهظة التكاليف . وعارض النبلاء هذه الحرب لأنها لا بد أن ترحل بين دول البلطيق ، بسلاحها المتفوق ، ضد روسيا التى ما زالت إقطاعية فى تنظيمها السياسى والعسكرى . وفى أثناء الحرب وفيما قبلها كان إيفان قد ارتاب فى مؤامرات النبلاء ضد عرشه ، وفى أثناء مرض كاد يقضى عليه

(١٥٥٣) علم أن جماعة قوية من النبلاء كانوا يدبرون أن يبعدوا ، عند موته ، ابنه ديمتري ويتوجوا الأمير فلاديمير الذى كانت أمه تمنح الجيش عطايا كثيرة . وكان أقرب مستشاريه سلفستر وأداشف ضالعين مع النبلاء ، ولمدة سبع سنوات بعد الارتياح فيهما ، أبقى إيفان على هذين الموظفين في مواقع السلطة ، ثم طردهما في ١٥٦٠ ، ولكن دون عنف . ومات سلفستر في أحد الأديار ، وقضى أداشف نجه في إحدى الحملات على ليفونيا ، وهاجر عدة نبلاء إلى بولندة وحملوا السلاح ضد روسيا ، وفي ١٥٦٤ لحق الأمير كوربسكى Kurbsky صديق إيفان الحميم والقائد العام ، بهؤلاء الهاربين ، زاعماً أن القيصر يدبر قتله ، ومن بولندة أرسل كوربسكى إلى إيفان ما يصل إلى أن يكون إعلاناً للحرب عليه ، متهماً إياه بأنه مجرم مجنوم . وتدعى الأساطير أن إيفان عندما قرئ عليه الخطاب دق إحدى قدمي حامله بالمسامير في الأرض بضربة من العصا الملكية ، ولكن القيصر تنازل فرد على كوربسكى بدفع يقع في اثنتين وستين صفحة ، وكان رداً بليغاً مشوشاً ، عاطفياً مليئاً بمقتبسات من الكتاب المقدس ، عدد فيه دسائس النبلاء لخلعه . واعتقاداً منه بأنهم كانوا قد دسوا السم لأنستاسيا ، تساءل إيفان : « لماذا فرقتم بينى وبين زوجتى ؟ ألم تأخذوا منى وليدى للصغير ؟ لم يحدث قط أن ذبح أحد من النبلاء . . . لقد فلتشت عبثاً عن رجل يستشعر الشفقة بى ، ولكنى لم أجد أحداً (١٠) » . وكتب كوربسكى في أخريات أيامه تاريخاً قاسياً عدائياً لإيفان ، وهو أهم مرجع لنا في إرهاب إيفان .

إن هذه المؤامرات ومغادرة البلاد توضح لنا أشهر حادث متميز في عهد إيفان . وفي ١٢ ديسمبر ١٥٦٤ غادر إيفان موسكو مع أسرته وأيقوناته وكنوزه ، مع قوة صغيرة من الجنود ، وسار إلى مقره الصيفى فى اسكندروفسك . وأرسل إلى موسكو بيانين ، زعم في الأول أن النبلاء

والبيروقراطية والكنيسة تأمروا ضده وضد الدولة ، وأنه لذلك « مع أشد الأسف » اعتزل الآن العرش ، ليعيش في عزلة . أما البيان الثاني فقد أكد فيه لأهل موسكو أنه أحبهم وأن لهم أن يبقوا واثقين من نياته الطيبة دوماً . والحق أنه تمسك بمحاربة العامة والتجار ضد الأرستقراطية ، وقد شهد بذلك ما قامت به الطبقتان الوسطى والدنيا آنذاك ، فقد انفجروا يرددون صيحات التهديد ضد النبلاء ورجال الدين ، مطالبين بأن يشخص إلى القيصر وفد من الأساقفة والنبلاء ، ليرجوه في العودة إلى العرش ، وتم ذلك وقبل إيفان « أن يتولى أمر الدولة من جديد » ، بشروط يحددها هو فيما بعد .

وعاد إيفان إلى موسكو في فبراير ١٥٦٥ ، ودعا الجمعية الوطنية من رجال الدين والنبلاء ، وأعلن أنه سيعدم زعماء المعارضة ويصادر أملاكهم ، وأنه من الآن فصاعداً سيتولى كل السلطة دون استشارة النبلاء أو الجمعية ، وأنه سينفى كل من يخالف أوامره العالية ومراسيمه ، ولما كانت الجمعية تخشى ثورة الجماهير فقد استسلمت وانحلت ، وقرر إيفان أن روسيا سوف تنقسم في المستقبل إلى قسمين : الأول « زمستشينا Zemstchina أو مجموعة المقاطعات ، ويظل تحت حكم النبلاء ومجالسهم « الدوما » ، ويخضع نصريبة إجمالية يفرضها القيصر ، ويكون تابعاً له في الشؤون العسكرية والخارجية ، ويكون فيما عدا ذلك حراً يتمتع بحكم ذاتي . والقسم الثاني « أوبرشنيينا Oprichnina - الممتلكات المستقلة » يحكمه هو أى إيفان ، ويتكون من الأراضي التي ينحصرها هو « للطبقة المنفصلة Oprichniki » التي يختارها القيصر للشرطة ولإدارة نصف المملكة هذا ، ولحمايته من الشعب ، ولتقوم بحمايته هو شخصياً ، ولتقدم له الخدمات العسكرية الخاصة به . واختير الموظفون الجدد - وكانوا في البداية ألفاً وبلغ عددهم في النهاية ستة آلاف ، اختيروا على الأخص من بين صغار أبناء النبلاء ، ولما لم يكن لديهم

أرض ، فقد كانوا على استعداد لتأييد إيفان مقابل الضياع التي منحهم إياها . واقتطع جزء من هذه الأراضي من أملاك التاج ، والجزء الأكبر منها من أملاك النبلاء الثوار التي صودرت . وبنهاية عصر إيفان كانت هذه « الممتلكات المستقلة — أوبرشينا » تشمل نصف روسيا تقريباً ، وكثيراً من موسكو وأهم طرق التجارة . وكان هذا الانقلاب ممثلاً لما حاوله بطرس الأكبر بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً : الارتفاع بطبقة جديدة إلى السلطة السياسية ، والارتقاء بالتجارة والصناعة في روسيا . وفي مثل هذا القرن الذي كانت فيه القوة العسكرية كلها من الوجهة العملية في قبضة الأرستقراطية ، تطلب المشروع شجاعة مفرطة في القيصر الذي لم يتزود إلا بجنده الخصوصيين ، وبالتأييد الهزيل الذي لا يعتمد به من جانب التجار والجماهير . ويؤكد لنا بعض المعاصرين أن إيفان — في هذه الفترة الدقيقة — وهو آنذاك في سن الخامسة والثلاثين ، كان يمثل ابن العشرين (١) .

واتخذ إيفان آنذاك الاسكندر وفلسك مقراً دائماً ، وحولها إلى قلعة محصنة . وربما كان التوقر الذي انتاب بسبب ثورته ضد النبلاء بالإضافة إلى الإخفاق في الحرب الطويلة الأمد مع ليفونيا ، سبباً في اعتلال عقله الذي لم يكن قط كامل الاتزان . ولقد ألبس حراسه خنارات سوداء ، وهي لباس الكهنة ، وقلنسوات ضيقة ، وأطلق على نفسه لقب رئيس الرهبان . ورتل مع فرقة المرتلين ، وشهد معهم القداس يومياً ، وكم نحر ساجداً أمام المذبح في حماسة حتى تكررت إصابات جهته بالكدمات . وزاد هذا من الفزع الذي بثه في روسيا التي بدأت تحس نحوه بمزيج من التبجيل له والإشفاق عليه ، وحتى أفراد « الطبقة المنفصلة » Oprichniki كانت تمثل أدمه في ذلة ونحشوع حتى أدان عليهم أنهم حاشيته أو بلاطه .

واقترن انقلاب إيفان بالإرهاب ، شأنه في ذلك شأن أى انقلاب آخر ، وقبض على معارضيه وأعدوا دون شفقة أو رحمة ، وجاء في عرض

لأحداث هذه السنوات (١٥٦٠ — ١٥٧٠) دونه أحد الرهبان ، ويحتمل أن يكون معاديا ، أن عدد قتلى غضبه بلغ ٣٤٧٠ . ويقول هذا العرض التاريخي أن الضحية كان في الغالب يعدم « مع زوجته » أو « مع زوجته وأطفاله » ، وفي حالة واحدة « مع عشرة من الرجال جاءوا لمساعدته (١٢) » . وأعدم الأمير فلاديمير مع أمه ، أما أولاده فقد أبقى إيفان على حياتهم ووفر لهم أسباب العيش . ويقال إن القيصر طلب إلى الرهبان أن يصلوا من أجل نفوس ضحاياه . ودافع إيفان عن إعدامهم بأن هذا هو العقاب المعتاد لحرمة الحيانة وخاصة زمن الحرب . وقد سلم أحد ممثلي بولنده بهذه الحجة ، وتضرع إنجليزى شهيد شيئاً من هذه المجزرة قائلا : « ندعو الله أن نتتمكن من تعاليم ثوارنا العنيدين واحبهم نحو أمبرهم بالطريقة نفسها (١٣) » .

وجاءت ذروة هذا الإرهاب في نفجورد . وكان إيفان قبل ذلك بفترة وجيزة قد منح رئيس الأساقفة مبلغاً كبيراً من المال لإصلاح الكنائس ، وظن أنه كان بذلك محبوباً من رجال الدين هناك على الأقل . ولكنه أبلغ أنه قد وجدت وثيقة ، ليست بالضرورة غير مزيفة ، خلف صورة للعدراء في أحد أديار نفجورد ، وفيها عهد بالتعاون بين نفجورد وبسكوف مع بولنده لمحاولة خلع القيصر . وفي الثاني من يناير ١٥٧٠ انقضت على المدينة قوة عسكرية قوية يقودها الأوبرشنيكى ، وأعملت النهب والسلب في الأديرة ، وقبضت على ٥٠٠ من الرهبان والكهنة . وفي ٦ يناير وصل القيصر إلى هناك ، وأمر أن يجلد بالسياط حتى الموت كل من لم يستطع من رجال الدين هؤلاء أن يدفع فدية قدرها ٥٠ روبلا ، كما جرد رئيس الأساقفة من ثوبه وسجن . وجاء في « سجل أحداث نفجورد الثالث » أنه قد أعقب هذا مذبحة الأهالي التي دامت خمسة أسابيع . وفي بعض الأحيان كان خمسمائة فرد يذبحون في اليوم الواحد ، وتقول البيانات الرسمية أن عدد القتلى بلغ ٢٧٧٠ ، واحتج إيفان بأنهم ١٥٠٥ فقط . ولما استقر في الأذهان أن التجار ، وهم متلهفون

على إعادة فتح باب التجارة مع الغرب ، قد شاركوا في المؤامرة ، فقد أحرق جنود القيصر كل حوانيت المدينة ، ودمرت بيوت التجار في الضواحي ، وحتى البيوت في المزارع المجاورة للمدينة لحقها التدمير ، وما لم يكن رواة الأحداث في الأديار قد بالغوا في وصف المذبحة ، فإنه يجدر بنا أن نعود بالذاكرة إلى عقاب شارل الجريء لثوار ليبج ١٤٦٨ ، وأعمال السلب والنهب في رومه على يد جنود شارل الخامس ١٥٢٧ لنجد أمثلة شبيهة بانتقام إيفان الوحشي . ولم تستعد نفجرد قط تفوقها القديم في الحياة التجارية في روسيا . واتجه إيفان بعد ذلك إلى بسكوف حيث حظر على جنوده السلب والنهب ، ثم عاد أدراجه إلى موسكو حيث احتفل في حفلة فكريية ملاكية بإفلاته من مؤامرة خطيرة .

إن حكماً مثل هذا ممتلئاً بالفن والشغب لا يكاد يساعد على التقدم الاقتصادي أو إنجاز الأعمال الثقافية . لقد انتعشت التجارة وقت السلم وانعكست زمن الحرب . وفي الأراضي المخصصة لطبقة الأوبرشنيكي ، وفي سائر الأراضي فيما بعد ، كان الفلاح ربيطاً قانوناً بالأرض ، على أساس أنه وسيلة للنهوض بالزراعة المستمرة فيها (١٥٨١) على أن نظام الرق الذي كان نادراً في روسيا قبل ١٥٠٠ ، صار في ١٦٠٠ قانوناً من قوانين الأرض . وكانت الضرائب باهظة فاحشة ، واندفع التضخم المالي بشدة ، فكان الروبل في ١٥٠٠ يساوي ٩٤ ، وفي ١٦٠٠ يساوي ٢٤ من الروبلات في ١٩١٠ (١٤) . وليس بنا من حاجة إلى تتبع الهبوط إلى أبعد من ذلك ، إلا لنعلم ، كدرس من دروس التاريخ ، أن النقود هي آخر شيء يجدر بالإنسان أن يدخره .

وأرغم إسراف الأسر القصير النظر في الإنجاب وإرهاق التربة ، الناس على هجرة متواصلة لا تهدأ إلى أراض بكر . فلما اجتاز المهاجرون جبال الأورال وجدوا أمامهم مملكة للتار سكانها من قبائل البشكير المسلمة

Bashkirs وقبائل أوستياك (قبائل من الفنلنديين والماجيار في غرب سيبيريا) تعرف عاصمتها باسم سيبير Sibir (وهي من ألفاظ القوزاق). وفي ١٥٨١ جند سيبيين ستروجانوف ٦٠٠ من القوزاق وأرسلهم تحت قيادة إرماك تيموفيفتش لغزو هذه القبائل، وقد تم له ذلك، وأصبحت سيبيريا الغربية جزءاً من المملكة الروسية المتضخمة. أما إرمالك الذي كان من زعماء قطاع الطرق فقد مجدهته الكنيسة الأرثوذكسية، وضمته إلى قائمة القديسين.

وكانت الكنيسة هي الحاكم الحقيقي لروسيا، لأن خشية الله كانت سائدة في كل مكان، على حين كان سلطان إيفان محدوداً. وكانت قواعد الطقوس الدينية، إن لم تكن قواعد الفضيلة والأخلاق، تقيد الجميع، حتى القيصر نفسه، وكان الكهنة يراقبون هل غسل يديه بعد مقابلته لسفراء الدول من خارج نطاق الأرثوذكسية. وكانت الصلاة وفق الطقوس الرومانية الكاثوليكية غير مرمخص بها، أما البروتستانتية فقد تسامحوا معها على أساس المشاركة في العداء للبابا في رومة. وكان إيفان الرابع - مثل هنري الثامن - يزهو بعلمه في اللاهوت، وانغمس مرة في مناقشة عامة في الكرملين مع كاهن لوثرى من بوهيميا، ويجب أن نسلم بأنه، وهو أعنف القياصرة، أدار المناقشة في كياسة أكثر مما بدا في المنازعات الدينية في ألمانيا لمعاصرة (١٥). ولكن إيفان لم يتصرف بمثل هذه الكياسة مع رجل لاهوتي آخر، ذلك أنه ذات يوم أحد في سنة ١٥٦٨ أثناء الصلاة في كنيسة الصعود، رفض فيليب مطران موسكو أن يمنح إيفان البركة التي توصل إليه فيها، وطلب القيصر ذلك ثلاث مرات ولكن دون جدوى، ولما سأل أتباعه عن سبب لهذا الرفض، بدأ فيليب بعدد جرائم إيفان وفسوقه، فصاح القيصر: «هدئ من روعك وامنحني البركة» فأجاب المطران: «إن سكوتي يوقعك في الخطيئة ويستوجب هلاكك». وغادر إيفان المكان دون أن يمنح البركة. وظل فيليب شهراً تعروه الدهشة والعجب والقلق،

ولكن لم يمس فيه بسوء . وبعده دخل أحد خدم القيصر الكاتدرائية وقبض على المطران وساقه إلى أحد السجون في تفر . ولا يعلم مصيره علم اليقين ، ولكن الكنيسة الروسية تؤيد القول بأنه أحرق حياً . وفي ١٦٥٢ ضم إلى قائمة القديسين ، وبقيت رفاة حتى ١٩١٧ موضع إجلال وتبجيل في كنيسة صعود العذراء .

وظات الكنيسة تفتج معظم الأدب والفن في روسيا . ودخلت الطباعة في سنة ١٤٩١ ، ولكن اقتصر المطبوع طوال هذا العهد على كتب الصلوات وكان زعيم العلماء آنذاك هو المطران مكاريوس ، الذي شرع في ١٥٢٩ ، بمعونة بعض السكرتيرين في جمع ما تبقى من آداب بلده في اثني عشر مجلدا ضخماً ، ومرة أخرى نرى أن معظمها كان دليلاً تماماً . وفي الكثير الغالب يتعلق بالأديار ووقائع التاريخ حسب ترتيب حدوثها . والف سلفستر معلم الاعتراف لإيفان كتاباً مشهوراً هو « كتاب الأسرة » ، بمثابة دليل للاقتصاد المنزلي والسلوك ، والخلاص الأبدي ، ولما نلاحظ فيه حث الزوج على أن يضرب زوجته برفق ، وتعاليمات دقيقة لآداب البصق والمخاط (١٦) . ولم يكن إيفان نفسه ، كما تدل رسائله ، أقل كتاب هذا العصر براعة وقوة .

وكان أروع إنتاج فني روسي في عهد إيفان هو كنيسة « بازل المبارك » التي لا تزال قائمة بعيداً عن الكرملين في أحد أطراف الميدان الأحمر . ولدى عودة القيصر من حملاته الظافرة ضد كازان وأستراخان (١٥٥٤) شرع في بناء ما أسماه كاتدرائية « شفاعة العذراء » وهي التي نسب إليها انتصاراته بحكمة . وحول هذا المقام المتوسط من الحجر ، شيدت فيها بعد سبعة معابد من الخشب خصصت لقديسين كان إيفان قد تغلب على أعدائه في أيام أعيادهم . وتوج كل معبد منها بقبة رشيقة مزدانة بالرسوم ، وكانت القباب كلها بمصلية الشكل ، وإن اختلفت زخرفة كل منها . وأضفى آخرها وهو

الذى أقيم للقديس بازل في ١٥٨٨ : أضفى اسمه في وقت لاحق ، على هذه المجموعة الرشيدة الفاتنة . وتنسب أسطورة لا يمكن التغاضي عنها هذه العمارة إلى أحد الإيطاليين . وتروى كيف أن إيفان فقتاً عيذه لئلا ينافس هذه التحفة الفنية الرائعة . ولكن اثنين من الروس : بارما وبوستنيكوف هما اللذان وضعوا التصميم ، ولكنهما اقتبسا بعض حركات عصر النهضة في زخرفتها فحسب (١٧) . ويوم أحد السعف من كل سنة ، كجزء من حكمة الدولة ، سار سادة موسكو ورجال الدين فيها في مركب رهيب إلى هذه الكاتدرائية ، على حين امتلأ المطران صهوة جواد مزود بأذان صناعية ، ليقلد الحمار الذي قيل إن السيد المسيح كان يركبه عند دخوله أورشليم ، وسار القيصر على قدميه يقود حصان المطران في تواضع وخشوع ممسكاً بالمجامه ، وكانت تحف بالموكب الأعلام والصليان والأيقونات وحملة المباخر ، على حين ردد الأطفال عبارات الشكر والثناء تضرعا إلى السماء لتبارك الحياة في روسيا .

وما أن وافي عام ١٥٨٠ حتى بدا أن إيفان قد انتصر على كل أعدائه . وكان قد بقي على قيد الحياة بعد وفاة عدد من الزوجات ، وبني بـزوجة سادسة . وفكر في اتخاذ زوجة أخرى عن طريق المضارة الودية (١٨) (الزواج باثنتين في وقت واحد) . وكان له أربعة أولاد ، مات أولهم في طفولته ، وكان الثالث فيودور يعاني من تخلف عقلي . أما الرابع ديمتري ، فزعموا أنه كان بنوبات صرع . وفي أحد أيام شهر نوفمبر ١٥٨٠ أنب القيصر زوجة ابنه الثاني « إيفان » وضربها ، لما بدا له من أنها ترتدى ثوبا ينافي الحشمة والوقار ، فأجهضت ، فما كان من ابن القيصر إلا أن وجه اللوم إلى أبيه . فضرب القيصر ابنه في سورة الغضب دون ترو بالعصا الملكية على رأسه فمات الابن لتوه من أثر الضربة . فمجن جنون القيصر ندما على فعلته ، وقضى أيامه ولياليه بصرخ صراخاً عالياً من الحزن والأسى . وكان يقدم

تنحيه عن العرش صباح كل يوم ، ولكن حتى أعضاء المجلس أنفسهم أصبحوا الآن يوثرونه على أبنائه ؛ وعاش إيفان ثلاث سنين بعد ذلك ، ثم أصابه مرض غريب ، جعل جسمه يتورم وتلبعث منه رائحة متقة . وفي ١٨ مارس ١٥٨٤ قضى نفيه وهو يلعب الشطرنج مع بوريس جودونوف ، وتناثرت الإشاعات تتهم بوريس بأنه دس له السم ، وأعد المسرح لأوبرا عظيمة في تاريخ القياصرة .

ويجدر بنا ألا نظن أن إيفان الرابع كان مجرد غول متوحش . ونظراً لطول قامته وقوته كان يمكن أن يكون وسيماً ، لولا أنفه العريض المسطح الذي كان يعلو شارباً منتشراً ولحية كثة حمراء . لقد ترجمت خطأ لفظة **Groznyi** بلفظة الرهيب **Terrible** والأرجح أنها تعني « المرعب » ، **Awesome** ، مثل لفظة أغسطس التي أطلقت على القياصرة (الرومان) ، وقد أطلق على إيفان الثالث نفس اللقب كذلك . وفي نظرنا ، وحتى في نظر معاصريه القساة ، كان إيفان الرابع قاصياً تواقاً إلى الانتقام بشكل يدعو إلى الاشمئزاز ، وقاضياً لا يستشعر الرحمة ؛ لقد عاصر محاكم التفتيش في أسبانيا ، وإحراق سرفيتس^(١٩) ، وعادة هنري الثامن في ضرب العنق ، واضطهاد الملكة ماري ، وما بحة سانت برثليميو . ويقال إنه عندما سمع بهذه المذبحة أنكر همجية الغر^(٢٠) (ولو أن أحد الباهوات رحب بالمذبحة وامندحها) . لقد كان ثمة أشياء تثير غيظه وحنقه ، وتذكي النار في مزاج سريع الانفعال أكسبته للورثة والبيئة عنفاً ؛ ويقول شاهد عيان إنه كان في بعض الأحيان « يرغب من فمه - كما يفعل الحصان »^(٢٠) لتيجة مضايقة صغيرة أو الزعاج يسير ؛ ولقد اعترف القيصر بخطاياہ وجرائمه بل بالغ فيها أحياناً ولم يكن على أعدائه إلا أن ينتحسوا منها اتهاماتهم له .

(١٩) **Servetus** ١٥١١ ، ١٥٥٣ طبيب وعالم لاهوت أسباني أحرق وهو مشدود

إلى خازوق في جنيف لاثامه بالزندقة .

وأكب على الدرس والتحصيل في حماسة ؛ وجعل من نفسه أحسن متعلم من غير رجال الدين في بلده وفي زمانه ؛ وكان يتميز بروح المرح والدعابة ، ويضحك ضحكات عالية بملء شذقيه ، ولكن غالباً ما كانت ابتسامته تنم على الدهاء الخفيف . غطى شروره بالنيات والمقاصد الرائعة ، فكان يريد أن يحمي الفقير والضعيف من الغنى والقوى ، ويحايي التجار والطبقات الوسطى كبهاً لجماح الأرستقراطية الإقطاعية المشاكسة ، كما كان يرغب في فتح باب للتجارة والأفكار على الغرب ، ويزود روسيا بطبقة جديدة من الإداريين الذين لا يتقيدون — كما تنفيد أعضاء المجلس — أبناء الطبقة العليا — بالأساليب العتيقة الجامدة ، ويحرر روسيا من ربة التتار ، وينتشلها من وهدة للفوضى إلى الوحدة ؛ وكان القيصر همجياً يناضل فضلاً وحشياً ليرقى سلم الحضارة .

وأخفق إيفان لأنه لم ينضج قط إلى حد السيطرة على النفس . وكادت أن تنسى في غمرة الانقلاب تلك الإصلاحات التي كان قد خططها ؛ وترك الفلاحين خاضعين لملك الأرض خضوعاً أشد وأنكى من ذي قبل . وأوصد بالحروب أبواب التجارة ، وساق الرجال القادرين إلى أسلحة العدو ، وشرط روسيا إلى قسمين متناحرين ، وسار بها إلى الفوضى . وضرب لشعبه مثلاً مفسداً للقسوة المتسمة بالورع وللأهواء الجامحة ؛ وقتل أحسن أبنائه مقدرة وكفاية . وأسلم عرشه إلى شخصية ضعيفة أدى عبجها إلى الحرب الأهلية ؛ لقد كان إيفان واحداً من كثيرين من رجال عصره ، الذين يمكن أن يقال عنهم إنه كان من الخير لبلادهم وللإنسانية جمعاء ألا يولدوا قط .

الفصل الثالثون

عبقرية الإسلام

١٢٥٨ - ١٥٢٠

صمد العالم الإسلامي من ١٠٩٥ إلى ١٢٩١ أمام سلسلة من الحملات الدينية العنيفة ، مثل تلك الحملات الدينية العنيفة التي أخضع بها فيما بعد البلقان ، وحول ألفاً من الكنائس إلى مساجد . ودفعت سبع حملات صليبية حث عليها اثنا عشر من البابوات ، نقول دفعت بملوك أوروبا وفرسانها ورعاها ضد قلاع المسلمين في آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر وتونس . وعلى الرغم من إخفاق هذه الهجمات آخر الأمر ، فإنها أضعفت نظام هذه الدول الإسلامية ومواردها إضعافاً خطيراً . وكان الصليبيون قد نجحوا في أسبانيا حيث هزم المسلمون وأخرجوا ، ولكن بقاياهم تجمعوا في غرناطة التي تأخر قدرها المحتوم بعض الوقت ، وكان النورمانديون الأشداء قد أخذوا صقلية من المسلمين . ولكن أين هذه الجراح والتمزيق من انقضااض المغول الوحشي المدمر (١٢١٩ - ١٢٥٨) على بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق ؟ وتعرضت مراكز إشعاع الحضارة الإسلامية ، المدينة تلو الأخرى ، للسلب والنهب والمذابح والحريق - بخارى ، سمرقند ، بلخ ، ليسانبور ، الري ، هراة ، بغداد . وأسقطت الحكومات الإقليمية والمحلية ، وأهملت القنوات وتمكنت للرمال التي تذررها الرياح ، وأكرهت التجارة على الفرار ، ودمرت المدارس والمكتبات ، وتشتت الدارسون ورجال العلم أو ذبحوا أو استعبدوا . وتخطمت روح الإسلام لنحو قرن من الزمان

ثم انبعثت من جديد في بطنه ، ثم اكتسح تبار بتمورلنك غربى آسيا بدمار جديد ، وشق الأنراك العثمانيون طريقهم عبر آسيا الصغرى إلى البسفور ، ولم تعرف حضارة أخرى في التاريخ مثل هذه الكوارث عدداً وانتشاراً وشمولاً .

على أن المغول والتتار والأنراك أتوا بدمهم الحديد ليحل محل أنهار الدماء البشرية التي كانوا قد سفكوها . وكان الإسلام صار مترفاً فاتر الحمة ، وكانت بغداد — مثل القسطنطينية — فقدت إرادتها في امتشاق الحسام للدفاع عن النفس ، وأغرم الناس هناك بالحياة اللينة الهينة الرخية إلى حد الإشراف على الموت ، إن تلك الحضارة الرائعة — مثل الحضارة البيزنطية ، أئبعت لتدوى وتذبل . ولكنها كانت غنية — مثل اليونان القديمة وإيطاليا النهضة — إلى حد القدرة على تمدين غزاتها ، بفضل ما أنقذ من شتاتها وذكرياتها ، وأنشأت فارس تحت حكم نخانات المغول حكومة مستنيرة وأنتجت أدباً جيداً وفتاً عظيماً ، وشرفت التاريخ بعالم جليل هو رشيد الدين . وفيما وراء النهر ، بنى تيمورلنك وعمر ، بشكل مؤثر ، قدر ما كان قد خرب ودمر . ووسط حملات السلب والنهب التي كان يشنها ، توقف ليكرم حافظ الشيرازى ، وفي الأناضول كان الأتراك فعلاً متحضرين . وكان الشعراء بينهم من الكثرة قدر كثرة الخواريات أو الخليلات . وفي مصر استمر الماليات في إقامة الأبنية بناء العمالة الجبارة . وفي غرب إفريقيا أنجب الإسلام فيلسوفاً مؤرخاً ، كان يبادر إلى جانبه أعظم علماء المسيحية المعاصرة بمحاكاة حشرات صغيرة تقع في الشرك وتموت جوعاً وسط عناكب الفلاسفة النصرانية في العصور الوسطى . وفي نفس الوقت كان الإسلام ينتشر في الهند إلى أقصى الشرق .

١ - الأيلخانات في فارس

١٢٦٥ - ١٣٣٧

عندما سار ماركوبولو في ١٢٧١ عبر فارس ليرى الصين على عهد قبلاى خان ، وجد نفسه وسط إمبراطورية المغول . ولم يكن التاريخ قد سجل من قبل قط مملكة مترامية الأطراف مثلها . ففي الغرب لامست شواطئ نهر الدنيير في روسيا ، وفي الجنوب شملت القرم والعراق وفارس والتبت والهند حتى ضفاف نهر الكنج . وفي الشرق طوقت الهند الصينية والصين وكوريا ، وفي الشمال كان يقع موطنهم الأصلي منغوليا . وفي كل هذه البلاد تعهد حكام المغول الطرق ، ونهضوا بالتجارة ، وقاموا على حماية السائحين والمسافرين ، وأطلقوا حرية العبادة لمختلف العقائد .

لقد أسس هولاكو حفيد جنكيزخان ، بعد تدمير بغداد ١٢٥٨ ، عاصمة جديدة اسمها المراغة شمال غربي فارس . ولما مات ١٢٦٥ أصبح ابنه « أباقا » خان أو أمير فارس ، وخضع خضوعاً غير ثابت لقبلاى خان ، على بعد الشقة بينهما . ومن هنا بدأت أسرة الأيلخانية التي حكمت فارس والعراق حتى ١٣٣٧ . وكان أعظم أفراد هذه الأسرة هو غازان خان ، الذى كاد أن يكون أقصر رجال جيشه قامة ، ولكن إرادته كانت أقوى من أسلحتهم . وطرح غازان ولاءه للخان الأكبر في منغوليا أو الصين وجعل من دولته مملكة مستقلة ، واتخذ من تبريز عاصمة لها ، وقدم إليه الرسل من الصين والهند ومصر وإنجلترا وأسبانيا . وقد أصلح الإدارة ، وثبت العملة ، وحى الفلاحين من ملاك الأرض ومن اللصوص ، وساد الرخاء بدرجة تذكر ببغداد في أزهى أيامها . وشيد في تبريز مسجداً ومدرستين وأكاديمية للفلسفة ومرصداً ومكتبة ومستشفى . ووقف دخول أراض معينة ، وقفاً دائماً للإنفاق على هذه المنشآت ، ووفر لها أعظم العلماء والأطباء ورجال

للعلم في ذلك العصر . وكان هو نفسه واسع الثقافة . وكان يعرف عدة لغات ، واضح أن من بينها اللاتينية^(١) . وشيد لنفسه مقبرة بلغت من الفخامة والضمخامة مبلغاً ظن معه أن موته (١٣٠٤) كان بمثابة دخوله ظافراً منتصراً إلى مقر أشرف وأعظم .

ووصف ماركو بولو تبريز بأنها « مدينة عظيمة متألقة » . وقال عنها فرا، أودريك Fra Oderic (١٣٢٠) « إنها أجمل مدينة في العالم للتجارة ، فهنا توجد أية سلعة بكميات وفيرة . . . » ويقول المسيحيون هنا « إن للدخل الذي كانت تدفعه المدينة لحاكمها يفوق ما تدفعه فرنسا كلها للملكها »^(٢) هذا بالإضافة إلى « المباني الأنيقة والمساجد الفخمة » ، « وأروع الحمامات في العالم »^(٣) . وقدر أودريك أن عدد سكانها يبلغ ما يونا من الأنفس .

وتابع أوبلخايتو السياسة المستنيرة التي انتهجها أخوه غازان . وشهد عصره بعضاً من أروع العمارة والزخرفة في تاريخ فارس ، وإن سيرة قاضي قضاته رشيد الدين فضل الله لتوضح ازدهار التعليم والثقافة والآداب في هذا العصر . وولد رشيد الدين سنة ١٢٤٧ في همدان ، وربما كان أبواه من اليهود ، كما قال أعداؤه ، مستشهدين بسعة اطلاعه وعلمه بالشرعية الموسوية . ولقد خدم رشيد الدين الخان أباقا كطبيب له ، وغازان بوصفه كبيراً للوزراء ، وأوبلخايتو بوصفه صاحب بيت المال . وشيد في إحدى الضواحي شرقي تبريز حياً جديداً أسماه « ربع الرشيد » ، وهو مركز جامعي فسيح ، وفي رسالة له محفوظة في مكتبة جامعة كبرديج يصف هذا المركز فيقول :

« لقد شيدنا نزلاً شاهقاً يناطح السحاب ، و ١٥٠٠ حائوت

تفوق الأهرام في رسوخها ، و ٣٠٠٠٠ منزل فائن ٥ كما

شيدت فيها الحمامات الصحية والحدائق الغناء والمخازن والمطاحن ومصانع النسيج والورق . ونزع الناس من كل حذب وصوب إلى هذا الربع ، وكان من بينهم مائتان من قراء القرآن ، وزودنا بالمساكن ٤٠٠ آخرين من العلماء ورجال اللاهوت ورجال القانون وعلماء الحديث ، في شارع مسمى « شارع العلماء » . وأجرينا على هؤلاء جميعاً رواتب يومية وأرزاقاً ومخصصات سنوية للملابس ، ومبالغ من المال لشراء للصابون والخبز . وأتينا كذلك بألف طالب ، وأصدرنا الأوامر بصرف الأرزاق والمخصصات اليومية لهم ، حتى يتفرغوا في راحة وأمان ، لطلب العلم ونفع الناس به . كما حددنا كذلك ، من من الطلبة ، وكم منهم يدرسون مع كل أستاذ أو معلم . وبعد التحقق من صلاحية كل طالب وقدرته على فرع الدراسة الذي يريد التخصص فيه ، أمرناه بأن يتعلمه .

وأولينا عنايتنا ورعايتنا بصفة خاصة ويطرق شتى ، لخمسين طبيباً داهرا جاءوا من الهند واثنتين ومصر وسوريا . فأمرنا بأن يترددوا على دار الشفاء كل يوم ، وأن يتعهد كل منهم عشرة طلاب صالحين لدراسة الطب ، ويأمرهم على ممارسة هذا الفن الجليل . كما أمرنا بأن يعهد إلى أطباء النظارات والجراحين وأطباء العظام الذين يعملون بدار الشفاء ، بخمسة من أبناء موظفينا وحاشيتنا ليتعلموا طب العيون والجراحة وطب العظام : ولكل هؤلاء الرجال شيدنا حياً خلف دار الشفاء سمي « شارع الأطباء » . كذلك استقرت كل جماعة من أرباب الحرف ورجال الصناعة الذين أتينا بهم من مختلف البلاد ، في شارع سمي باسمها « (١) » .

وخلق بنا أن يتولانا أشد العجب والدهشة لرجل وجد، مع إسهامه النشط
إدارة شئون المملكة ، من الوقت والمعرفة ما استطاع معه تدوين خمسة
كتب في اللاهوت ، وأربعة في الطب وفي نظم الحكومة ، وكتاباً من عدة
مجلدات في تاريخ العالم . وفوق ذلك يؤكد لنا أحد المسلمين المعجبين أن
رشيد الدين استطاع أن يخصص لتأليفه فترة ما بين صلاة الفجر وشروق
الشمس . ومهما يكن من أمر فإن هناك أياماً تتبدل فيها السماء بالغيوم حتى
في أذربيجان . وقضى رشيد الدين سبع سنين في كتاب « جامع التواريخ »
ونشره في مجلدين ضخمين ، ويقتضى نشره بالإنجليزية سبع مجلدات . وضمنه
بيانات جوهرية عن المغول من جنكيزخان إلى غازان ، وعن مختلف الدول
والأسرات الإسلامية في شرقي العالم الإسلامي وغربيه ، وعن فارس واليهود
قبل بعثة الرسول وبعدها ، وعن الصين وأهلها ، مع دراسة مستفيضة لبوذا
والبوذية ، مع موجز مبسط لأعمال وأفكار ملوك أوربا وبابواتها وفلاسفتها .
ويشهد كل الذين قرأوا هذه المجلدات - ولو أنها لم تترجم بعد إلى أية لغة
أوربية - بأنها أقيم عمل في النثر الأدبي في فارس . ولم يستفد رشيد الدين
من محفوظات حكومته فحسب ، ولكنه استخدم كذلك علماء من الصين
ليؤمنوا له المعاهدات الصينية وغيرها من الوثائق ، ويبدو أنه قرأها مع غيرها
من المراجع العربية والعبرية والتركية والمغولية ، كل في لغته الأصلية^(٥) .

ورغبة في نقل هذه المجموعة الوافية من التواريخ إلى الأعقاب رغم الزمن
والحرب ، أرسل رشيد الدين نسخاً من هذا الكتاب إلى المكتبات هنا وهناك ،
وترجم إلى العربية ووزع . وخصص أموالاً لكتابة نسخة بالعربية وأخرى
بالفارسية في كل عام ، لإهدائها إلى إحدى المدن في العالم الإسلامي . على أن
كثيراً من هذا الكتاب مع مؤلفاته الأخرى قد ضاع ، وربما يرجع هذا إلى
الكارثة السياسية التي حلت به . ذلك أنه في سنة ١٣١٢ أشرك الأمير أوبلخابتو
على شاه مع رشيد الدين في الإشراف على بيت المال . وفي زمن « أبي سعيد »

الذى خلف أولجابتو ، نشر على شاه مختلف الاتهامات ضد زميله رشيد الدين ، وأغرى الخان بأن رشيد الدين وابنه إبراهيم كانا قد دسا السم لأولجابتو . فعزل المؤرخ (رشيد الدين) وسرعان ما أعدم (١٣١٨) وهو فى سن السبعين ، مع أحد أبنائه ، وصودرت ممتلكاته ، وحرمت مؤسساته من العطايا والمنح ، ونهبت ضاحية « ربع رشيد » ودمرت .

وقام أبو سعيد بترضية متأخرة ، ذلك أنه عين ابنا آخر من أبناء المؤرخ وزيراً له ، ونهج غياث الدين سبيل الحكمة والعدالة فى إدارة دفة الحكومة . وأعقب موت أبى سعيد فترة من الفوضى ، ووضعت نهاية لحكم أسرة الأيلخانية ، وانقسمت مملكتهم إلى ولايات صغيرة دمرتها الحرب ، ونخلصها الشعر .

٢ - حافظ الشيرازى

١٣٢٠ - ١٣٨٩

ما كان أكثر من ينظم القصيد فى فارس . وكان الملوك يكرمون الشعراء الذين لم يتقدم عليهم فى الخطوة بهذا التكريم والتعجيل إلا الخطايا والحظاظون والقواد . وفى زمن حافظ طبقت الآفاق شهرة عشرين من الشعراء ، وذاع صيتهم من البحر المتوسط إلى نهر الكنج ، ومن اليمن إلى سمرقند ، ولكنهم جميعاً ، على أية حال ، أحنوا رءوسهم لإجلالاً لشمس الدين محمد - المشهور باسم حافظ الشيرازى - وأكدوا له أنه بز « الشيخ سعدى » الشاعر الرخيم نفسه . وارتضى حافظ هذا التقدير ، وأخذ يحدث نفسه فى احترام قائلاً :

« قسماً بالقرآن الذى تعيه فى صدرك يا حافظ ، لم أرقط أجمل من شعرك » (٦) .

« وحافظ » لفظة معناها « القدَّ كور » الذى يحفظ ويتذكر ، وهو لقب

أطلق على كل من حفظ القرآن كله — مثل شاعرنا — ولم يعرف تاريخ ميلاده ، وأبواه غير معروفين . وسرعان ما أقبل على الشعر : وكان أول من رعى الشاعر واحتضنه هو « أبو إسحق » الذى عينه غازان خان حاكماً على جنوب إيران . وأولع أبو إسحق بالشعر أيما ولع ، وأهمل شئون الحكومة . ولما جاءه النذير بأن بعض القوات المعادية تعد العدة لمهاجمة عاصمته « شیراز » ، قال إنه لسفيه ذلك الرجل الذى يضيع مثل هذا الربيع الجميل فى الحرب . ولكن قائداً متبلداً الشعور هو « مبارز الدين محمد بن المظفر » استولى على شیراز وقتل أبا إسحق (١٣٥٢) ، وحرم شرب الخمر وأغلق كل حانة فى المدينة . وفى هذا كتب حافظ مرثية حزينة قال فيها :

« رلو أن الخمر تبعث السرور ، والريح تنشر أريج الورد ،

لا تشربوا الخمر على أنغام القيثارة لأن المحتسب يقظ .

ونخبثوا الطاس فى أكمام عباءاتكم المرقعة ،

لأن الزمن يسفك الدماء ، كما ينسكب الخمر من عين الإبريق الدامعة ،

واغسلوا بدموعكم ما تلطخ بالخمر من أرديتكم

لأن هذا موسم الورع وزمن التقشف والتعفف » (٧) .

ولما وجد خليفة ابن المظفر أن تحريم الخمر أمر غير عملي ، أو تبين أن

شاربي الخمر أسلس قياداً وأيسر حكاماً من المتطهرين المتزمين ، أعاد فتح

أبواب الخانات ، وخلد حافظ اسمه .

وسار شاعرنا على تقاليد الفرس فى نظم كثير من القصائد فى الخمر ،

واعتبر فى بعض الأحيان أن زجاجة من الخمر « تسمو على تقبيل العذارى » (٨) .

ولكن حتى الكروم تجف وتذوى بعد ألف مقطع من الشعر ، وسرعان

ما تبين حافظ أن الحب ، عذرياً كان أو عملياً ، لا يستغنى عنه الشعر .

« هل تعرف ما هو الحظ السعيد ؟ إنه الظفر بنظرة إلى غادة هيفاء ، إنه التماس صدقة منها في زقاقها ، وازدراء أبهة الملك » (٩) .
وبدا له الآن أن الحرية ليست حلوة مثل حلوة العبودية في الحب .

« إن عمرنا قصير ، ولكن طالما أننا قد نفوز

بالمجد وهو الحب ، فلا تحتقر

الإصغاء إلى توصلات القلب ،

فإن سر الحياة سوف يبقى فيما وراء العقل .

فاهجر عملك إذن وقبل حبيبته الآن .

إني لأمنح العالم كله هذه النصيحة الغالية ،

عندما تنفتح أزهار الربيع ، وتهجر الريح الطاحون

وتنزل برفق لتقبل الغصن المورق .

أى حسناء شيراز ، امنحيني أمنية الحب ،

ومن أجل شامتك — تلك الحبة من الرمل العالقة

بصفحة خد من اللؤلؤ — سوف يمنحك حافظ

كل بخارى ، وكل سمرقند .

آه لو دخلت مع القدر في رهان مرة ،

لحاولت برمية واحدة ، مهما كان الثمن ،

لألتقط أنفاسي ، أيها الحب اجمع بيننا ،

فما حاجتي بعد ذلك إلى الجنة .

إن الذى خلق غدائر شعرك من ذهب وفضة ،

وجمع بين الوردة الحمراء والوردة البيضاء

وأسلم إليهما خدك في شهر العسل

أليس بمقادير على أن يمنحني الصبر ، وأنا ابنه (١٠) .

ويبدو أنه آخر الأمر ، قد هدأت نفسه بالزواج ، فلو فسرنا قصائده
الرقيقة تفسيراً صحيحاً ، فإنه وجد زوجة وأتجب عدة أطفال ، قبل أن
يحزم أمره بين النساء والخمر . ويبدو أنه في بعض أشعاره يرثيها ويتألم لفراقها :

« سيدتي ، يا من حولت بيتي

إلى فردوس حين حللت به ،

من أخص القدم إلى قمة الرأس كان ثمة ملك

من عند الله أحاطها بعنايته ، كانت طاهرة ، مبرأة من الإثم ،

جميلة المحيا مثل القمر ، عاقلة ،

وعيناها ذواتي النظرة العطوفة الناعمة

كانتا تشعان فتنة لا حدود لها

ثم حدثني قلبي : هنا سوف يستقر بي المقام !

فإن هذه المدينة تتنفس بحبها في كل ركن منها .

ولكنها نقلت إلى عالم بعيد قصي ،

للأسف لم يعرفه قلبي ، واأسفاه أيها القلب المسكين !

إن نجماً خبيثاً شريراً أعمل أثره

فأرختي قبضة يدي التي كانت تمسك بها ، ووحدها بعيداً

رحلت من كانت تسكن في صدري « (١١) .

ومهما يكن من أمر فقد ألف المقام ، وركن إلى العزلة الهادئة ، وقالما

ارتحل إلى خارج شيراز ، وقال إنه يترك لقصائده أن تجوب الأرض بدلا

من شخصه ، وكم دعى إلى بلاط كثير من الملوك والأمراء . وأقنع للحظة

وجيزة بقبول دعوة من السلطان أحمد بالإقامة في القصر الملكي في بغداد (١٢) ،

واكن حبه لشيراز أبقاه حبيساً بها ، وكان يشك في أن بالحنة نفسها مثل هذه الأنهار الفاتنة أو مثل هذه الورود الحمراء في شيراز . وكان بين الحين والحين يوجه قصائد المديح إلى أمراء الفرس في عصره أملاً في عطايا أو جوائز تخفف من ألم الفقر الذي كان يعاني منه ، لأنه لم يكن في فارس ناشرون لينقلوا نفثات اليراع عبر البحار ، وكان على الفنان (أى الشاعر) أن ينتظر على أبواب النبلاء والملوك . والحق أن شاعرنا « حافظ » كاد أن يرحل يوماً إلى الخارج ، ذلك أن أحد أمراء الهند لم يبعث إليه بالدعوة فحسب ، بل زوده كذلك بالمال اللازم لنفقات الرحلة ، فأقلع حافظ ووصل إلى هرمز على الخليج الفارسي ، وكان على وشك الركوب في السفينة فهبت عاصفة هوجاء حولته عن عزمه ، وحببت إليه الاستقرار . فعاد أدراجه إلى شيراز ، وبعث إلى الأمير الهندي بقصيدة يلدأ من شخصه .

ويضم ديوان حافظ ٦٩٣ قصيدة معظمها غنائية ، وبعضها رباعيات ، وبعضها الآخر شذرات غير واضحة المعنى . وهى أصعب في ترجمتها من أشعار دانتى ، زاهرة يقواف كثيرة مما يجعل منها في الإنجليزية شعراً غير مصقول محطم الوزن ، كما تعج بالإشارات والتلميحات المهمة التى كانت تبهج عقول الناس في ذلك الزمان ، ولكنها الآن ثقيلة على السمع فى الغناء ، والأفضل أن توضع نثراً فى الغالب :

« كاد الليل أن ينصرم ، حين جذبني أريج الورود ، فدلفت إلى الحديقة ، مثل العندليب ، أفقش عن بلسم اللحمى التى انتابت .
وهناك فى الظل تألقت وردة ، وردة حمراء كأنها مصباح محجب ،
فحدقت النظر فى محياها ،

إن الوردة فاتنة لمجرد أن وجه محبوبتى فاتن . . . وماذا يكون
غير المروج ، والتسيم الذى يهب فى الحديقة ، إذا لم يكونا

لحد محبوبتي الذي يشبه الخزامى (التيوليب) ؟
وفي ظلمة الليل حاولت أن أطلق قلبي من رباط غداثر شعرك
ولكنني أحسست بلمسات خذك ورشفت رحيق شفتيك ، وضمتك
إلى صدري . ولفني شعرك وكأنه لهب . وألصقت شفتي
بشفثتك ، وأسلمت قلبي ونفسي لك كأنهما فدية (١٣) .

وكان حافظ إحدى النفوس الموهوبة الصادقة المنهكة ، التي تستجيب
وتتأثر - عن طريق الفن والشعر والمحاكاة والرغبة شبه اللاواعية ، تستجيب
وتتأثر بالجمال إلى حد الرغبة في عبادته ، فترغب بالعينين وبالألفاظ
وبأطراف الأنامل ، أن تعبد أي شكل جميل ، سواء كان نحتاً على حجر
أو رسماً أو آدمياً أو زهرة ، ونعاني في صمت مكبوت كلما ألم بها الجمال ؛
ولكن هذه النفوس أيضاً تجد فيما تفاجأ به كل يوم من فتنة أو سحر أو جمال
جديد ، بعض المغفرة لقصر عمر الجمال ولسلطان الموت . ولذلك خطط
حافظ التجديف بالعبادة ، وانساق في هرطقة غاضبة حتى في الوقت الذي
كان فيه يثنى على « الواحد الأحد الخالد » وهو المصدر الذي يفيض منه كل
جمال على الأرض .

والتمس كثير من الناس أن يصفوا عليه احتراماً ووقاراً ، بتفسير خمره
بأنها نشوة روحية ، وحاناته بأنها أديار ، ولهبه بأنها « النار المقدسة » ؛
صحيح أنه أصبح متصوفاً وشيخاً ، وارتدى ملابس الدراويش ، ونظم
قصائد صوفية غامضة ، ولكن معبوداته الحقيقية كانت الخمر والنساء والغذاء ،
وبدأت حركة المحاكاة بوصفه زنديقاً كافراً ، ولكن أفلت منها بالتوسل بأن
قصائد الهرطقة كان يقصد بها أن يعبر عن آراء أحد المسيحيين ، لا عن آرائه
هو . ومع ذلك كتب يقول :

« أيها المتعصب ، لا تظن أنك بمنجاة من خطيئة الكبرياء ؛

فليس الفرق بين المسجد وكنيسة الكفار سوى الغرور » (١٤) .

والكافر هنا بطبيعة الحال هو المسيحي : وبدأ في بعض الأحيان لحافظ
أن « الإله » ما هو إلا شيء اختلقته آمال الإنسان :

« وهذا الذي يسوقنا في هذه الأيام التي تمر كوميض البرق ،
هذا الذي نعبده رغم معرفتنا بمن يقنيه أو يذبحه ،
أنه هو نفسه قد يتولاه الحزن والأسى ، لأننا حين نفد
سيختفي هو أيضاً في هذا اللهب نفسه » (١٥) .

ولما مات حافظ كانت عتميدته مشكوكاً فيها ، وكان مذهب المتعة عنده
لاصقاً به إلى حد الاعتراض على تشييع جنازته في احتفال ديني ، ولكن
أصدقاءه أنقذوا الموقف بتفسير أشعاره بالحجاز والاستعارة . وجاء بعد ذلك
جيل دفن رفاقه في حديقة أطلقوا عليها « الحافظة » تزدان بورود شيراز ،
وتحققت نبوءة الشاعر بأن قبره سيكون « مزاراً يحج إليه عشاق الحرية من
جميع أنحاء العالم » : وعلى لوح مقبرة حافظ المصنوع من المرمر نقش
إحدى قصائده ، وهي عامرة بالروح الدينية العميقة أخيراً . وفيها :

« أين أنباء الوحدة ؟ حتى أنهض
من التراب ، سوف أصبحو لأرحب بك !
إن نفسي مثل الطائر الزاجل ، حنيناً منها إلى الجنة ،
سوف تصبحو وتتوحد من شرور العالم التي أطلقت من عقالها .
وعند ما يهتف بي صوت حبك لأكون عبداً لك
سوف أصبحو إلى ما هو أعظم كبراً من السيادة
على الحياة والعيش ، والزمن والعمر الفاني .
صب يا إلهي من سحب نعمتك الهادية
شأبيب الرحمة التي تسرع إلى قبري ،

قبل أن أنهض ، مثل التراب الذي تفرده الرياح من مكان إلى مكان ،
إلى ما وراء علم الإنسان .

وعندما تعرج بقدميك المباركتين إلى قبري ،
سوف تحضر بيدك الخمر والإغراء إلى ،
ولسوف يرن صوتك في طيات ملائقي الملفوفة ،
ولسوف أنهض وأرقص على غناء قيثارتك .
ورغم شيخوختي ، ضمنى ليلة إلى صدرك ،
نلأى ، عندما ينبثق الفجر ليوقظني ،
بنضارة الشباب في خدي ، من بين أحضانك سوف أنهض .
انهض ! دع عيني تسرح وتمرح في نعمتك العظيمة !
أنت الهدف الذى حاول كل الناس الوصول إليه ،
أنت المحبوب الذى يعبدده حافظه ، ووجهك
سوف يأمره أن ينبعث من الدنيا ومن الحياة ويصحو (١٦)

٣ - تيمور

١٣٣٦ - ١٤٠٥

عرفنا أول ما عرفنا عن التتار أنهم قوم رحل من آسيا الوسطى ، وأنهم
أنسباء وأقرباء ، وجيران للمغول ، وشاركوهم في الحملات على أوروبا .
ووصف كاتب صيني من القرن الثالث عشر تحدرهم ، وصفاً كثير الشبه
بما صور به المؤرخ جوردانيز أمة الهون قبل ذلك بألف سنة ، فالتتار قصار
للقامة ، كريهو الطلعة والمحيا للغرباء عنهم ، يجهاون القراءة والكتابة ،
مهرة في الحرب ، يسددون سهامهم دون أن تطيش من فوق ظهر جواد
بسرع ، ويحافظون على استمرار جنسهم أو عرقهم بالمواظبة على تعدد
للزوجات . وكانوا في هجراتهم وحملاتهم ينقلون معهم كل متاعهم وأمراتهم
- الزوجات والأولاد والجمال والخيول والغنم والكلاب ، ويرعون الحيوانات

فما بين المعارك ، ويتغذون بلحومها وألبانها ، ويتخذون الملابس من جلودها .
وكانوا يأكلون بنهم وشراهة عند توافر المؤن ، ولكن كانوا يحتملون الجوع
والعطش والقيظ والقر ، « بصبر أكثر من أى شعب آخر في العالم » (١٧) .
وكانوا يتسلحون بالسهم المكسوة أطرافها أحياناً بالنفط الملتهب ، وبالدفاع ،
وبكل معدات العصور الوسطى للحصار ، ومن ثم كانوا أداة صالحة مستعدة
لكل من كان يحلم بتأسيس إمبراطورية منذ كان في المهد صبياً .

وعند ما مات جنكيز خان (١٢٢٧) وزع ملكه على أبنائه الأربعة :
فأعطى جغتاي الإقليم المحيط بسمرقند ، وحدث أن أطلق اسم هذا الابن على
قبائل المغول أو التتار التي حكمها . وولد تيمور (أى الجديد) ، في مدينة
« كesh » في بلاد ما وراء النهر ، لأمر إحدى هذه القبائل . وطبقاً
لما رواه كلافيجو Clavijo أدى « سوط الله » الجديد هذه المهمة منذ نعومة
أظفاره : فنظم عصابات من صغار اللصوص لسرقة الغنم والماشية من
المراعى المجاورة (١٨) . وفقد في إحدى هذه المغامرات أصبعيه الوسطى والسبابة
من يده اليمنى ، وفي مغامرة أخرى أصيب بجرح في عقبه ، ومن ثم عرج
بقية أيام حياته (١٩) فلقبه أعداؤه Timur-i-Lang أى تيمور الأعرج ، ولكن
الغربيين غير المدققين ، مثل مارلو حرفوا هذا الاسم إلى Tamburlane
أو Tamerane . وقد وجد تيمور فسحة من الوقت لتلقى قليل من التعليم ،
وقرأ الشعر ، وعرف الفرق بين المبادئ والانحلال . ولما بلغ سن السادسة عشرة
ولاه أبوه زعامة القبيلة . وآوى إلى أحد الأديار ، لأن هذا الرجل العجول
(الوالد) قال عن الدنيا إنها ليست « أفضل من زهرية من الذهب مليئة
بالتعابين والعقارب » (*) وقيل إن الوالد نصح ابنه أن يرعى الديانة دوماً ،

(*) هذا ، على أية حال ، منقول من مذكرات تيمور (ه ، ١) المظنون أنه أملاها
في أعوامه الأخيرة ، ولكن يشك في صحتها .

واتبع تيمور هذه الوصية إلى حد تحويل الرجال إلى مآذن (تكديس بعضهم فوق بعض للتنكيل بهم) .

وفي سنة ١٣٦١ عين خان المغول « خوجه الياس » حاكماً على بلاد ما وراء النهر ، وعين تيمور مستشاراً له ، ولكن الشاب النشيط لم يكن قد نضج بعد لممارسة فن الحكم ، وتشاجر بعنف مع سائر موظفي خوجه الياس . وأجبر على الهروب من سمرقند إلى الصحراء . . . فجمع حوله عدداً من المحاربين الشباب ، وضم عصبته إلى عصابة أخيه الأمير حسين الذي كان في مثل ظروفه . وتجولوا من مكن إلى مكن ، حتى تحجرت أجسامهم ونفوسهم بسبب الأخطار والنشرد والفقر ، إلى أن واتاهم بعض الحظ حين استخدموا لقمع فتنة في سيستان Sistan ، وما أن اشتد عود الأخوين حتى أعلننا الحرب على خوجه الياس وخلعاه وذبجناه . وأصبحا حاكمين في سمرقند على قبائل جغتاي (١٣٦٥) ، وبعد ذلك بخمس سنوات تأمر تيمور على ذبح الأمير حسين ، وأصبح السلطان الوحيد .

وتروى سيرة حياته المشكوك فيها ، عن عام ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م) : « دخلت عامي الثالث والثلاثين ، ولما كنت دوماً قلق البال لا يقر لي قرار ، فقد كنت تواقاً إلى غزو بعض البلاد المجاورة » (٢٠) . وكان يقضي أيام الشتاء في سمرقند ، وقل أن انقضى ربيع دون أن يخرج فيه إلى حملة جديدة . وقد لقن المدن والقبائل في بلاد ما وراء النهر أن تتقبل حكمه طواعية أو سلباً لا حرباً . وفتح ~~هراة~~ هراة وسيستان ، وأخضع المدينتين الغنيتين هراة وكابول ، وأحبط المقاومة والتمرد بما كان ينزل من عقاب وحشي . ولما استسلمت مدينة سبزاوار Sabzawar بعد حصار كلفه كثيراً ، أسر ألفين من رجالها ، « وكدسهم أحياء ، الواحد فوق الآخر ، وضرب عليهم بنطاق من الآجر والطين ، وأقام منهم مئذنة ، حتى إذا استيقن الرجال جبروت غضبه ، لا يعود يغويهم شيطان الصلف والكبرياء » . وهكذا روى القصة مادح

معاصر (٢١) . وغفلت مدينة زيريه Zirih عن هذه الحقيقة وأبدت مقاومة ، فأقام الغازي من رؤس أبنائها عدداً أكبر من المآذن . واجتاح تيمور أذربيجان واستولى على لورستان وتبريز ، وأرسل فنانيهما إلى سمرقند . واستسلمت أصفهان في ١٣٨٧ وارتضت بقاء حامية من التتار بها ، فلما غادر تيمور المدينة انقض السكّان على الحامية وذبحوا رجالها . فعاد تيمور بجيشه وانقض على المدينة وأمر كل فرد في جيشه أن يأتيه برأس واحد من الفرس . وقيل إن سبعين ألفاً من رعوس الأصفهانيين علقت على أسوار المدينة أو أقيمت منها أبراج تزين الشوارع (٢٢) . فلما سكن روع تيمور وهدأت نفسه خفض الضرائب التي كانت المدينة تدفعها لحاكمها ، ودفعت سائر مدن فارس الفدية دون ضجة .

وتقول أسطورة أطرف من أن تصديق ، إنه في شيراز في ١٣٨٧ ، دعا تيمور أشهر مواطني المدينة إلى المثل بين يديه ، وقرأ عليه غاضباً سطوراً (من الشعر) كانت قد قدمت فيها مدينتا بخارى وسمرقند من أجل الخال في خد سيدة ، وقيل إن تيمور شكاً غاضباً وهو يقول : « إني بضربات سيفي اللامع الصقيل أخضعت معظم الأرض المعمورة لأزين بخارى ، وسمرقند ، مقر حكومتى ، وأنت أيها التعس الحقير تريد أن تبيعهما من أجل شامة سوداء في خد سيدة تركية في شيراز ! » وتؤكد الرواية أن حافظ النخعي أمام الأمير وقال : « واأسفاه أيها الأمير ، أن هذا التبذير هو سبب للبؤس الذي تراني فيه » . واستساغ تيمور هذا الجواب فأبقى على حياة الشاعر ومنحه هدية سنوية . ومما يؤسف له أن أحداً من كتاب سيرة تيمور المتقدمين لم يورد ذكر هذه الحادثة الطريفة (٢٣) .

وعند ما كان تيمور في جنوبي فارس جاءته الأنباء بأن طقطميش خان للقبيلة الذهبية انتهز فرصة غيابه ليغزو بلاد ما وراء النهر ، بل حتى ليعمل السلب والنهب في المدينة الجميلة بخارى التي قدرها حافظ بنصف خال على

نجد سيده ، فسار تيمور ألف ميل إلى الشمال (تصور مشاكل التكوين في مثل هذه المسيرة) ، ورد طقطميش إلى القوبلجا ، وسار جنوباً وغرباً ، وأغار على العراق وجورجيا وأرمينية ، وهو يذبح في طريقه كل السادة الذين دسغهم بأنهم « شيوعيون مضللون » (٢٤) . واستولى في ١٣٩٣ على بغداد بناء على طلب سكانها الذين لم يعودوا يحتملون جور سلطانهم أحمد بن أويس ، ولما رأى تدهور العاصمة أمر معاوניה بإعادة بنائها ، وفي نفس الوقت أضاف إلى حريمه نخبة من الزوجات ، وإلى حاشيته واحداً من أشهر الموسيقيين ، ولجأ السلطان أحمد إلى بايزيد الأول سلطان العثمانيين في بروسه . وطلب تيمور تسليم السلطان أحمد ، فرد بايزيد بأن هذا أمر يخدش تقاليد الضيافة عند الأتراك .

وكان من الممكن أن يتقدم تيمور إلى بروسه ، لولا أن طقطميش عاود غزو بلاد ما وراء النهر . فاكسح التتارى المهتاج جنوبى روسيا ، وبينما كان طقطميش مختبئاً في البرية ، اجتاح مدينتى القبيلة الذهبية : سراى واستراخان . ولما لم يجد تيمور أية مقاومة ، تقدم بجيشه غرباً من القلججا إلى الدون ، وربما كان من خطته أن يضم روسيا كلها إلى مملكته . وأقسام الروس في البلاد أنصلاوات في حرارة وحمية ، وحملت « عنراء فلاديمير » إلى موسكو ، بين صفوف الضارعين الراكعين وهم يصيحون : « يا أم الإله ، خلاصى روسيا » . وساعد فقر السهوب على إنقاذها . ولما وجد تيمور أنه لا غناء في هذه السهول الجرداء ولا شىء فيها يمكن سلبه ، ارتد إلى الدون وقاد جنوده المنهوكين الجياع إلى سمرقند (١٣٩٥ - ١٣٩٦) .

وتجمع كل الروايات على أنه كان في الهند ثروات تشتري مائة روسيا ، وأعلن تيمور أنحكام المسلمين في شمال الهند شديداً التسامح مع الهندوس الوثنيين الذين يجب عليهم اعتناق الإسلام أو تحويلهم إليه . وسار تيمور ، وهو في الثالثة والستين من العمر على رأس جيش قوامه ٩٢٠٠٠ رجل

(١٣٩٨) : وعلى مقربة من دلهى التقى بجيش سلطانها محمود ، فهزمه ،
وذبح مائة ألف (؟) سجين ، ونهب العاصمة ، وجلب معه إلى سمرقند
كل ما استطاعت جنوده ودوابه أن تحمل من ثروات الهند الأسطورية :

وفي ١٣٩٩ ، ولم تكن قد حيت من ذاكرته قصة أحمد وبايزيد
الأول ، تقدم مرة ثانية ، وعبر فارس إلى أذربيجان ، ونخلع ابنه
المبذر المضيع الذى كان حاكماً عليها ، وشنق الشعراء والوزراء الذين كانوا
قد أغروا الشاب بالانغماس فى اللهو ، واجتاح جورجيا . ولما دخل آسيا
الصغرى حاصر سيواس ، واغتاز لطول مقاومتها ، فدفن أربعة آلاف
جثدى مسيحي أحياء — أو أن مثل هذه القصص من دعاية الحرب ؟ ورغبة
منه فى حماية جناح جيشه عند مهاجمة العثمانيين ، أرسل رسولا إلى مصر
مقترحاً ميثاق عدم اعتداء ، ولكن سلطان المماليك أودع الرسول السجن ،
واستأجر سفاحاً لقتل تيمور . وباء المشروع بالإخفاق . وبعد إخضاع
حمص وحلب وبلبك ودمشق ، سار الترى إلى بغداد التى طردت كل
الموظفين الذين عينهم هو . واستولى عليها بثمان باهظ ، وأمر جنوده
البالغ عددهم عشرين ألفاً بأن يحضر إليه كل منهم رأس واحد من الأهالى :
وتم له ما أراد — أو هكذا قيل : أغنياء وفقراء ، رجالاً ونساء ، شيباً
وشباناً ، فكلهم دفعوا ضريبة الرأس هذه ، وكدست رءوسهم على شكل
أهرام مروعة أمام أبواب المدينة (١٤٠١) . وأبقى الغزاة على مساجد
المسلمين وعلى أديار الرهبان والراهبات ، وسلبوا ودمروا ما عداها تدميراً
تاماً ، حتى العاصمة التى كانت يوماً مدينة زاهرة باهرة لم تعد سيرتها
الأولى إلا فى أيامنا هذه بفضل زيت البترول .

وإذ أيقن آنذاك تيمور أنه يمكنه أن يطمئن على ملكه عن اليمين وعن
الشمال ، أرسل إلى بايزيد إنذاراً نهائياً للتسليم . ولكن سلطان الأتراك
الذى زادت ثقته بنفسه يفضل انتصاره فى معركة نيقوبوليس ١٣٩٦ ،

أجاب بأنه سوف يسحق جيش التتار ويتخذ من زوجة تيمور الأثرية جارية له (٢٥) والتحم أقدر قائدين في زمانهما في أنقرة ١٤٠١ ، وأرغمت استراتيجية تيمور أعداءه الأتراك على القتال بعد أن أرهقهم وأهلك قواهم طول السير . وهزم الأتراك هزيمة منكرة وأخذ بايزيد أسيراً . وابتهجت القسطنطينية ، وظل العالم المسيحي بمنجاة من الأتراك لمدة نصف قرن بفضل التتار . وواصل تيمور سيره في اتجاه أوروبا إلى بروسه وأحرقها ، وحل معه من المدينة المكتبة البيزنطية والأبواب الفضية . وتقدم نحو البحر المتوسط ، وانتزع أزمير من أيدي فرسان رودس ، وذبح السكان ، وأقام في إفسوس . وارتعد العالم المسيحي فرقاً مرة أخرى ، وقدمت جنوه التي كانت لا تزال تحتفظ بنجيوس وفوشيا وميتلين خضوعها ودفعت الجزية . وأفرج سلطان مصر عن رسول ملك التتار ، وانخرط في الزمرة الممتازة ، زمرة التابعين الخاضعين لسلطان تيمور . وعاد تيمور أدراجه إلى سمرقند ، وهو أقوى حكام عصره ، حيث امتد مملكه من أواسط آسيا إلى النيل ومن البسفور إلى الهند . وبعث إليه هنري الرابع ملك إنجلترا بالتهنئة ، كما أوفدت إليه فرنسا أسقفاً يحمل الهدايا . وأرشد إليه هنري الثالث ملك قشتالة بعثة شهيرة برياسة روى جونزاليز كلافيجو .

وإننا لمدينون لمذكرات كلافيجو بمعظم ما نعلمه عن بلاط تيمور . فقد غادر قادس في ١٣ مايو ١٤٠٣ ، ومر بالقسطنطينية وطرابزون وأرضروم ، وتبريز وطهران (التي وردت الآن لأول مرة على لسان أحد الأوربيين) ونيسابور ، ومشهد ، حتى وصل سمرقند في ٣١ أغسطس ١٤٠٤ . وكان قد توقع لسبب ما ، أن هناك قوماً من السفاكين الكريهي الطلعة . وما كان أشد دهشته لكبر عاصمة تيمور وازدهارها ، وفخامة المساجد والقصور ، وسلوك ساداتها وعاداتهم الحميدة ، وثراء البلاط وترفه ، واحتشاد للفنانين والشعراء حول تيمور احتفاء به وتكريماً له .

وكانت المدينة آنذاك قد مضى على بنائها أكثر من ألفى عام ، وكانت تضم نحو مائة وخمسين ألف نسمة مع « مجموعة من أعظم الدور وأجملها » ، مع كثير من القصور « التي تظللها الأشجار » ، بهذا كله رجع كلافيجو أن سمرقند « أكبر من أشبيلية » ، هذا بخلاف الضواحي المترامية . وكان الماء يرفع إلى البيوت من نهر يجرى بالقرب من المدينة ، وكست مياه الرى المنظمة الخلفية بالخضرة . وتضيق الهواء بعبير البساتين والكروم . وتوافرت المراعى للأغنام والماشية ، ونمت المحاصيل الكثيرة . وكان فى المدينة مصانع للمدافع والدروع والأقواس والسهام والزجاج والخزف ، والمنسوجات المتناهية فى اللامعان بما فيها « القرمزى » وهو الصباغة الحمراء ، ومنه اشتقت اللفظة الإنجليزية **Crimson** . وكانت المدينة تضم التتار والأتراك والعرب والفرس والعراقيين والأفغانيين والكرجيين واليونان والأرمن والكاثوليك والنساطرة والهندوس ، ممن يعملون فى الحوانيت أو فى الحقول ، ويسكنون فى بيوت من الطوب أو من الطين أو الخشب ، أو يسرحون ويمرحون فى المدينة على ضفة النهر ، كل يمارس شعائره الدينية فى حرية تامة ، ويدعو لعقيدته المتعارضة مع سائر العقائد . وكانت تحف على جوانب الشوارع الرئيسية الأشجار والحوانيت والمساجد والمدارس والمكتبات ، وكان هناك مرصد ، وكان ثمة جادة رئيسية عريضة تقطع ، فى خط مستقيم ، المدينة من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر ، وكان القطاع الرئيسى من هذا الطريق العام مغطى بالزجاج (٢٦) .

وفى ٨ سبتمبر استقبل إمبراطور التتار كلافيجو ، الذى مر بساحة فسيحة « نصبت فيها خيام كثيرة من الحرير » ، وسراقات مطرزة بالحرير ، وكانت الخيمة هى المسكن المألوف لدى التتار ، وكان لثيودور نفسه فى هذه الساحة خيمة يبلغ محيطها ٣٠٠ قدم ، كما كان هناك أيضاً قصور ذوات أرضية من الرخام أو القرميد ، مزودة بأثاث متين مرصع بالأحجار

الكريمة ، وكله مصنوع أحياناً من الفضة أو الذهب . ووجد كلا فيجو ملك التار جالساً القرفصاء على وسائد من الحرير « تحت مدخل أجمل قصر » قبالة نافورة يندفع منها عامود من الماء الذى انصب فى حوض يتحرك فيه التفاح بلا انقطاع . وكان تيمور يرتدى عباءة من الحرير ويلبس قبعة عالية واسعة مرصعة بالياقوت والآلى . وكان هذا العاهل طويل القامة نشيطاً يقظاً ، أما الآن وهو فى سن الثامنة والستين ، فقد كان منحنيّاً ضعيفاً متوجعاً ، وكاد أن يكون كفيفاً . وكان يستطيع بشق النفس أن يرفع جفنيه ليرى السفير .

وحصل تيمور من الثقافة على ما يمكن أن يحتمله رجل عمل ، فقراً التاريخ ؛ وجمع الفن والفنانين ، وصادق الشعراء والعلماء ، واستطاع عند الاقتضاء أن يتحلى بأجمل العادات . واستوى غروره مع قدرته ، مما لم يتفوق فيه أحد عليه فى زمانه ، وقدر تيمور على العكس من قيصر ، أن القسوة جزء ضرورى من الاستراتيجية ، ولكنه ، إذا صدقنا ضحاياها ، غالباً ما يبدو آثماً متهماً بالقسوة لمجرد الانتقام . فإنه حتى فى إدارته المدنية كان يسرف فى الحكم بالإعدام ، حتى على محافظ اتبع سياسة الظلم فى المدينة ، أو على جزار تقاضى للحم ثمناً أكثر مما ينبغى (٢٧) . إنه نفذ سياسة القسوة والعنف بوصفها ضرورة لحكم شعب لم يألف القانون بعد . وبرر مذابحه على أنها وسيلة لإرغام القبائل المخالفة للقانون والنظام على اتباع النظام ومتطلبات الأمن فى دولة موحدة قوية . ولكنه مثل سائر الغزاة والناخبين أحب القوة لذاتها ، وأحب الغنائم والأسلاب من أجل العظمة التى يمكن أن تغطى الغنائم تكاليفها .

وفى ١٤٠٥ شرع فى فتح منغوليا والصين ، يراوده حلم إنشاء دولة تضم نصف العالم ، وتربط بين البحر المتوسط وبحر الصين . وكان جيشه يتألف من مائتى ألف من الرجال الأشداء . ولكنه قضى نحبه فى أثار

Ottar على الحدود الشمالية من مملكته ، وكانت آخر أوامره أن يتابع جيشه سيرة ، ولبرهة بسيطة تقدم بجواده الأشهب المسرج ، دون أن يمتطيه صاحبه ، وهو يسير الهوينا في خطى متزنة — تقدم الحشد . ولكن جنوده كانوا على يقين من أن عقل قائدهم وإرادته كانتا تشكلان نصف قوتهم . فعادوا على عجل إلى أوطانهم وهم في حداد على موت القائد ، وقد كتب لهم الخلاص من هذه المهمة : وشيد له بنوه في سمرقند مقبرة فخمة هي « مقبرة الأمير » ، وهي عبارة عن برج تعلوه قبة ضخمة بصلية الشكل ، مكسوة واجهتها بالآجر ذي الطلاء الأزرق الجميل الفيروزي المائل للخضرة :

وتخطمت إمبراطورية تيمور بموته ، وكادت الأقاليم الغربية أن تنهار في الحال . وكان لازماً أن يقنع أولاده بالشرق الأوسط . وكان أعقل أفراد أسرة تيمور هو شاه رخ الذي رخص لابنه أولوج في أن يحكم بلاد ما وراء النهر من سمرقند ، على حين حكم الوالد نفسه خراسان من هراة ، ونحت حكم خليفتي تيمور هذين أصبحت العاصمتان مركزين متنافسين على ازدهار التار وثقافتهم ، ازدهاراً وثقافة تعدلان أياً من مثيلتهما في أوربا في ذات العصر (١٤٠٥ — ١٤٤٩) : وكان شاه رخ قائداً قديراً يحب السلام ، وقد شجع الفنون والآداب ، وأسس في هراة مكتبه ذائعة الصيت ، وقال أحد أمراء أسرة تيمور « إن هراة هي جنة الدنيا » (٢٨) . أما أولوح بك فقد رعى رجال العلم ، وشيد في سمرقند أعظم مرصد في ذلك العصر . وقال أحد كتاب السير المنمقين من المسلمين :

« كان عالماً ، عادلاً ، بارعاً ، نشيطاً ، على درجة كبيرة من المعرفة بعلم الفلك ، على حين أنه في علوم البلاغة كان شديد التدقيق . وسمت مكانة رجال العلم في عصره إل ذروتها . وفي الهندسة فسر أدق المسائل ، أما في علم الظواهر الكونية

(الكوزموجرافيا) فقد شرح كتاب بطلمبوس . ولم يجلس على العرش ملك مثله قط حتى اليوم . وسجل ملاحظات عن النجوم بالتعاون مع العلماء الأولين . وأسس في سمرقند كلية لا يمكن أن يوجد لها في الأقاليم المتاخمة السبعة مثيل من حيث جمالها ومكانتها وقيمتها» (٢٩) .

ولكن هذا النموذج الثريد للرعاية قتل في ١٤٤٩ بيد ابن غير شرعى له . واستمرت هذه الثقافة العالية التي تميزت بها أسرة تيمور على عهد السلطان « أبو سعيد » والسلطان « حسين بن بيتره » في هراة حتى نهاية القرن الخامس عشر . وفي ١٥٠١ استولى مغول الأوزبك على سمرقند وبخارى ، وفي ١٥١٠ انتزع الشاه الصفوى هراة وبابور ، وفر آخر حكام أسرة تيمور إلى الهند وأسس هناك أسرة مغولية جعلت من دلهى الإسلامية عاصمة رائعة في مثل روعة رومه على عهد أسرة مديتشي .

٤ - المماليك

١٣٤٠ - ١٥١٧

بينما كان الإسلام في آسيا يعاني الغزو المتكرر والثورات ، استغل سلاطين المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) مصر التي سادها استقرار نسبي إذ ذاك . وقضى الموت الأسود على ازدهار البلاد لفترة من الزمن ، ولكن في أثناء هذه القلبات استمر المماليك يوفقون بين الإدارة القادرة والمصالح الفنية من جهة والاختلاسات والفظائع من جهة أخرى . ومهما يكن من أمر ، فإنه في ١٣٨١ بدأت بالسلطان الملك الناصر بن برقوق أسرة المماليك البرجية التي ساد عهدها الترف والدسائس والعنف والانحلال الاجتماعي ، وخفضوا قيمة النقد ، حتى على غير عادة الحكومات . وفرضوا الضرائب الباهظة على ضروريات المعيشة ، وأساءوا استغلال احتكار الدولة

للسكر والفلفل . وفرضوا في الإسكندرية رسوماً باهظة على تجارة أوروبا مع الهند ، مما دعا تجار الغرب إلى البحث عن طريق إلى الهند حول أفريقيا . ونحسرت مصر على مدى جيل بعد رحلة فاسكوداجاما (١٤٩٨) كثيراً من نصيبها الذي كان يوماً هائلاً ، من التجارة بين الشرق والغرب ، وأوقعت هذه الكارثة الاقتصادية البلاد في حالة من الفقر المدقع إلى درجة أن السلطان سليم الأول لم يلق إلا مقاومة ضعيفة ، حين أنهى حكم المماليك ، وجعل من مصر ولاية عثمانية .

وظلت القاهرة من ١٢٥٨ حتى ١٤٥٣ أجمل وأزهى مدن العالم الإسلامي وأكثرها ازدهاراً بالسكان . ووصفها ابن بطوطة وصفاً رائعاً في ١٣٢٦ ، وقال عنها ابن خلدون الذي زارها ١٣٨٣ إنها « عاصمة الكون ، جنة الدنيا ، مكتظة بجميع أجناس البشر ، عرش الملكية ، مدينة ازدانت بالقصور والدور الفخمة والرهبنات والأديار والكلليات ، مضيئة بنجوم العلم والمعرفة ، جنة يرويه النيل حتى ليبدو أن الأرض تقدم ثمارها إلى الناس على سبيل الهدية والتمحية » (٣٠) - وربما كان الفلاحون المنهوكون يعترضون على هذا .

وعكست مساجد مصر في ذاك العصر قساوة الحكم أكثر مما عكست ألوان السماء . فلم يكن هنا إيوانات أو بوابات من الطوب المصقول أو القرميد الملون ، كما كان الحال في آسيا الإسلامية ، بل كانت هناك جدران حجرية ضخمة جعلت من المسجد قلعة أكثر منه بيتاً للعبادة . وكان مسجد السلطان في حسن (١٣٥٦ - ١٣٦٣) عجيبة عصره ، ولا يزال أفخم آثار الفن المملوكي . وذهب المقرئزي المؤرخ إلى أنه « فاق كل ما بنى من مساجد » (٣١) ولكنه كان قاهرياً محباً لوطنه . وتروى أسطورة غير مؤكدة كيف أن السلطان جمع مشاهير المهندسين من بلاد كثيرة ، وطلب إليهم أن يذكروا له أعلى صرح على البسيطة ، وأمرهم بأن يشيدوا صرحاً أعلى منه ، فذكروا له قصر نحسرو الأول في مدينة طيسفون (مدينة بابلية على نهر دجلة) الذي يرتفع الجزء الباقي من مدخله ١٠٥ من الأقدام فوق سطح الأرض . فبنى العمال

جدران المسجد الحديد ، بعد أن سرقوا حجارة الأهرام المتهدمة ، على ارتفاع مائة قدم ، وزادوا فوقها لإفريزاً (كورنيش) بارتفاع ١٣ قدماً وشيدوا في أحد الأركان مثذنة بارتفاع ٢٨٠ قدماً . وإن هذا المبنى الشاهق ليترك انطباعاً في نفوس الغربيين ، ولكنه قل أن يسر الناظرين منهم . ومهما يكن من شيء فإن أهل القاهرة كانوا فخورين به ، إلى حد أنهم ابتدعوا أو استعاروا خرافة تقول بأن السلطان قطع يد المهندس حتى لا يصمم تحفة رائعة تضارع هذه ، وكأن المهندس يصمم بيده ! وكانت مساجد المقابر أكثر فتنة وجذباً للأنظار ، رغم الغرض الذي بنيت من أجله ، وقد بناها سلاطين المماليك خارج أسوار القاهرة لتضم رفاتهم . من ذلك أن السلطان الظاهر برقوق الذي بدأ حياته عبداً شركسياً ، انتهى أمره في مجده صامت ، راقداً في مقبرة من أفخم هذه المقابر .

وكان قايتباي أعظم البناة بين المماليك البرجية ، فالبرغم من أن الحرب مع الأتراك أنهكته ، فقد دبر الأموال لتشييد المباني النفيسة في مكة والمدينة والقدس ، وجدد في القاهرة قلعة صلاح الدين والجامع الأزهر ، وشيد نزلاً مشهوراً بزخارفه العربية المصنوعة من الحجر ، وبني داخل العاصمة مسجداً ذا زخارف منسقة . وتوج قايتباي أعماله في أخريات أيامه ، بمسجد تذكارى من الجرانيت والرخام ، ذى زخرفة رائعة ومثذنة عالية ذات شرفات ، وقبة مزينة بنقوش هندسية ، مما جعل هذا المسجد مأثرة من المآثر الأقل قيمة للفن الإسلامى .

وانتشرت الفنون الصغيرة في عهد المماليك . وصنع النقاشون على العاج والعظام والخشب ألفاً من المنتجات الجميلة ، من صناديق الأقلام إلى المنابر ، وهى منتجات كان يتخيلها الذوق ، ويقوم على تنفيذها العمل المتواصل والمهارة . وحسبك في هذا أن تلقى نظرة على منبر مسجد قايتباي خارج أسوار المدينة في متحف فكتوريا وألبرت . وبلغ التطعيم بالذهب والفضة

ذروته أيام هذه الأسرات الدموية . أما مصانع الخزف المصرى التى كانت قد ابتدعت ألفاً من البدع والأشياء الغربية فى آلاف السنين للسحرة فى القدم ، فإنها أخرجت الآن للعالم الزجاج المثلى بلمينا ومصايبح المساجد والكؤوس والزهرجات المزدانة بالظهور أو الزخرفة التشكيلية من المينا الملونة ، والمرصعة بالذهب أحياناً . ويمثل هذه الطرق وبكثير غيرها لا يحصى العدد ، خلعت الفنانون المسلمون على الجمال شكلاً خالداً ، وبذلك عوضوا عن وحشية ملوكهم أو كفروا عنها .

٥ - العثمانيون

١٢٨٨ - ١٥١٧

يبدأ التاريخ بعد اختفاء الأصول . فلا أحد يعرف أين نشأ الأتراك . « فذهب بعض الناس إلى أنهم كانوا قبيلة فنانية أوجرية Finno-Ugric (شعب أسوي شرق الأورال) من الهون ، وأن اسمهم يعنى « نخوذة » وهى فى إحدى اللهجات التركية Durko . وقد شكلوا لغاتهم من اللغتين المغولية والصينية ، وأدخلوا بعد ذلك ألفاظاً فارسية أو عربية ، وهذه اللهجات التركية هى الوسيلة الوحيدة لتصنيف المتكلمين منهم بوصفهم أتراكاً . واتخذت واحدة من هذه العشائر اسمها من اسم زعيمها ساجوق . ونمت بالنصر تلو النصر ، وتكاثرت سلالتها ، وحكموا فى القرن الثالث عشر فارس والعراق وسوريا وآسيا الصغرى وفرت عشيرة أخرى من أقرباء العشيرة الأولى ، بقيادة زعيمها طغرل ، أر ، من خراسان فى نفس القرن ، حتى لا يكتسحها طوفان المغول . واستخدمها ساجوق أمير قونية بآسيا الصغرى ، فى الأعمال الحربية ، وأقطعها جزءاً من الأرض لرعى ماشيتها .

وفى ١٢٨٨ (٤) مات أرطغرل ، فاختر ابنه عثمان ، وهو إذ ذاك فى الثلاثين من عمره ، ليخلف أباه ، ومنه اشتق اسم « العثمانيين » . ولم

يطلقوا على أنفسهم اسم الأتراك قبل القرن التاسع عشر ، بل أطلقوه على الشعوب شبه الهمجية في تركستان وخراسان . وفي ١٢٩٠ رأى عثمان أن السلجوقيين أضعف من أن يقفوا في طريقه ، فأعلن نفسه أميراً مستقلاً على ولاية صغيرة في الشمال الغربي من آسيا الصغرى ، وفي ١٢٩٩ تقدم بقواته غرباً إلى بنى شير . ولم يكن عثمان قائداً عظيماً ، ولكنه كان مثابراً صبوراً ، وكان جيشه صغيراً ، ولكنه مكون من رجال ألفوا في ديارهم ركوب الخيل أكثر مما ألفوا السير على الأقدام ، رجال أرادوا أن يغامروا بحياتهم الشاقة من أجل الأرض أو الذهب أو النساء أو السلطان ، وكانت تقع بينهم وبين بحر مرمرة مدن بزنطية ناعسة سيئة الحكم هزيلة الدفاع . فحاصر عثمان واحدة منها وهى بروسه ، وأخفق أول الأمر في الاستيلاء عليها ، ولكنه عاود الكرة بعد الكرة ، حتى استسلمت المدينة أخيراً لابنه أورخان ، في الوقت الذى كان يرقد فيه عثمان على فراش الموت فى بنى شير (١٣٢٦) :

وانتخذ أورخان من بروسه ، التى تقدرت برفات أبيه ، عاصمة جديدة للعثمانيين . وساقته الرغبة فى المزيد من السلطان إلى البحر المتوسط ، المركز العتيق للتجارة والثروة والمدنية . وفى نفس العام الذى سقطت فيه بروسه ، انتزع نيقوميديا التى صارت فيما بعد أزميد ، وفى ١٣٣٠ استولى على ليقية التى أصبحت أزنيق ، وفى ١٣٣٦ استولى على برجاموم التى أصبحت برجامه . وكانت تلك المدن العريقة فى القدم والتى تفوح منها رائحة التاريخ ، مراكز للحرف والتجارة ، وقد اعتمدت فى المواد الغذائية والأسواق اللازمة لها على الجماعات الزراعية المحيطة بها والتى كان العثمانيون قد استولوا عليها فى ذلك الحين ، وكان على هذه المدن أن تعيش على هذه البقاع الداخلية أو أن تموت جوعاً . فلم تقاوم طويلاً ، لأنها كانت قد عانت من ظلم حكامها البيزنطيين ، كما سمعت بأن أورخان لم يثقل الكواهل بالضرائب ، وأنه رخص فى حرية العقيدة - وكان كثير من هؤلاء المسيحيين فى الشرق الأدنى هراطقة مرهقين :

نساطرة أو من القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة ، وسرعان ما ارتضى العقيدة الإسلامية جزء كبير من الأراضي المفتوحة ، وهكذا تحل الحرب المشاكل اللاهوتية ، على حين كانت هذه المشاكل قبل الحرب تقف حاجزة محيرة . ومذوسع أورخان ملكه على هذا الشكل ، فقد اتخذ لنفسه لقب سلطان العثمانيين . وعقد أباطرة بيزنطة أواصر السلام معه ، واستأجروا جنوده ، وسمحوا لابنه سليمان في بناء معاقل على أرض أوروبا . وقضى أورخان نخبه وهو في الواحدة والسبعين من عمره ، بعد أن خلد ذكراه بين جوانح شعبه .

وكون خلفائه من بعده أسرة قل أن يوجد لها في التاريخ مثيل ، في هذا المزيج من القوة الحربية والمهارة والمقدرة الإدارية والقسوة الوحشية ، والإخلاص الرفيع للآداب والعلوم والفنون . وكان مراد الأول أقل أفراد هذه الأسرة جاذبية ، ولا كان أمياً فإنه كان يبصم بأصابعه المغموسة في المداد على الوثائق ، على غرار القتلة المغمورين . ولما قاد ابنه صاوندجى ثورة إجرامية فاشلة ضده ، فقأ مراد عينيه وقطع رأسه ، وأرغم آباء الثوار على قطع رعوس أبنائهم (٢٢) . ودرب مراد جيشاً لا يكاد يقهر ، وفتح معظم أراضي البلقان ، ويسر خضوعهم له بأن أقام لهم حكومة أقدر من تلك التي عرفوها على عهد السيطرة المسيحية .

وورث بايزيد الأول عرش أبيه في ميدان القتال في قوصوه (١٣٨٩) . ذلك أنه بعد أن قاد الجيش إلى النصر أمر بإعدام أخيه يعقوب الذى كان قد قاتل ببسالة في ذاك اليوم العصيب . وأصبح قتل الإخوة على هذا النحو قاعدة منتظمة عند سلاطين آل عثمان بعد الجلوس على العرش ، طبقاً للمبدأ للقاتل بأن التمرد على الحكومة يؤدى إلى التمزق ، إلى حد أنه يجدر التخلّص في أول فرصة ممكنة ممن يحمل أن يطالبوا بالعرش . وأحرز بايزيد لقب

« بلدرم أى الصاعقة » ، لسرعته فى خططه الحربية ، ولكن أعوزه فن الحكم الذى تميز به أبوه ، وأضاع بعض طاقته الجبارة فى المغامرات النسائية ، وقدم ستيفن لازارفتش ، حاكم الصرب من قبل السلطان ، أخته لتنضم إلى حريم السلطان ، وأصبحت هذه السيدة دسبوانا زوجته الأثيرة لديه ، وغرست فيه الولع بشرب الخمر وإقامة المآدب السخية ، وربما أضعفت عن غير عمد حيويته كرجل . وتآلق غروره وكبرياؤه حتى سقطه . وبعد أن هزم بايزيد فرسان أوربا فى نيقوبوليس ، أطلق سراح كونت نفرز Nevers مع دعوة ممتازة للمبارزة ، رواها أو عدل فيها فروسار Froissor ، قال :

« أى جون ، إني أعلم جيداً أنك سيد عظيم فى بلدك ، وأنت ابن سيد عظيم . أنت شاب يافع ، وربما تلاقى بعض اللوم أو العار لأنك وقعت فى هذه المغامرة فى بداية عهدك بالفروسية ، وأنت نخلصاً من اللوم وإنقاذاً لشرفك ، ربما تحشد قوة من الرجال لمحاربتى ؟ ولو ساورنى الشك أو الخوف قبل رحيلك ، لأجبرتكَ على أن تقسم بشريعتك وعقيدتك ، أنك لا أنت ولا أحد من زمرتك ، سوف تشهر السلاح ضدى ولكنى لن أؤمك أو ألزم أحداً من أتباعك بمثل هذا القسم أو الوعد . ولكنى سأفعل ذلك عندما تعود إلى وطنك وإلى مسراتك ، لتجمع من القوة ما تشاء ، ولا تدخر وسعاً ، وأخرج إلى قتالى ، ولسوف تجدنى دوماً على أهبة الاستعداد لاستقبالك واستقبال عصبتك . . . وأطلع من تشاء على هذا الذى أقول لك ، فأنى قادر على القتال ، ومستعد على الدوام للتوغل فى العالم المسيحى » (٢٣) .

، لما أسر تيمورلنك السلطان بايزيد عامله بكل إجلال واحترام ؛

على الرغم من الرسائل المهيمنة التي كانا قد تبادلها على مدى عام ، وأمر
تيمور بذلك أغلال السلطان وأجلسه إلى جانبه ، وأكد له أنه سيبقى على
حياته ، وأصدر تعليماته بأن تنصب ثلاث خيام فخمة لحاشيته ، ولكن
عندما حاول بايزيد الحرب ، احتجزي في غرفة ذات نوافذ مسدودة بالحواجز ،
وقد بلغت الأساطير فتالات إنها قفص من حديد . ومرض بايزيد ، فلهذا
تيمور لنك أحسن الأطباء لمعالجته ، وأرسل إلى سيوانا لتسهر على رعايته
ومواساته . ولم تجد هذه المساعدات شيئاً لبعث القوى الحيوية في السلطان
المحطم ومات بايزيد بعد عام من هزيمته .

وأعاد ابنه محمد الأول تنظيم حكومة العثمانيين وقوتهم ، وعلى الرغم
من أنه وفقاً عيني أحد المطالبين بالعرش وقتل آخر ، فإنه اكتسب لقب
السيد المذهب ، بفضل ساوكة الكيس اللطيف وحكمه العادل ، وسنوات
السلم العشر التي منحها للعالم المسيحي . وكان لمراد الثاني مثل هذه المبادئ ،
فأثر الشعر على الحرب ، ولكن عندما نصبت القسطنطينية مزاجاً له ليخلعه ،
ونقضت المجر عهد السلم ، أثبت مراد الثاني في واريته (١٤٤٤) أنه قائد
كأحسن ما يكون القواد : ثم عاد إلى مغنيسيم في آسيا الصغرى ، حيث
عقد مرتين في كل أسبوع اجتماعاً للشعراء والعلماء ، وقرأ الشعر وتحدث
في العلوم والفلسفة . واقتضت ثورة في أدرنه عودته إلى أوربا ، فأخذها ،
وقهر هونياد في قوصوه . وعندما مات في ١٤٥١ ، بعد أن قضى في
الحكم ثلاثين عاماً ، وضعه المؤرخون المسيحيون في مصاف أعظم حكام
عصره ، وقد أمر في وصيته بأن يدفن في بروسه في مصلى متواضع غير
مسقوف ، « حتى تنزل عليه رحمة الله وبركاته مع شروق الشمس والقمر ،
ومسقوط المطر والندى على جدته » (٣٤) .

وتساوى محمد الثاني مع أبيه في الثقافة والفتوحات والفتنة السياسية
وطول الحكم ، وليس في العدل ولا في النبيل . فنقض المعاهدات الوثيقة ،

ولطخ انتصاراته بالمذابح غير الضرورية . وكان يتسم في مفاوضاته واستراتيجيته بدهاء الشرق . وسئل يوماً عن خطته فأجاب : « لو أن شعرة من لحيتي عرفت لانتزعتها » (٣٥) . وتحدث السلطان بخمس لغات ، وكان واسع الاطلاع في عديد من الآداب ، بارعاً في الرياضيات والهندسة ورعى الفنون ، وأجرى معاشات على ثلاثين شاعراً عثمانياً ، وبعث بالهدايا الملكية إلى شعراء في فارس والهند . وجاء بعده في المرتبة الثانية كنصير للأدب والفن وزيره الأكبر محمود باشا ، فأعان هو وسيدته كثيراً من الكليات والمؤسسات الدينية ، حتى أطلق على السلطان « أبوالأعمال الخيرية » . وكان محمد أيضاً « أبا الانتصارات » ، فقد خرت التمسطنطينية له ولمدافعه ، وبفضل مدافعه أصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية ، وأمام جيوشه ودبلوماسيته وقعت دول البلقان في أسر العبودية . ولكن هذا الفاتح الذي لا يقاوم ، لم يتغلب على نفسه أو يكبح جماحها : فما أن بلغ الخمسين حتى كان قد أنهك قواه بكل ألوان الإفراط الجنسي ، ولم تجد العقاقير نفعا في تجديد حيويته ، حتى أدرجه حريمه آخر الأمر في عداد الأغوات . وقضى نحبه في سن الواحدة والخمسين في اللحظة التي بدا فيها أن جيشه على وشك غزو إيطاليا وضمها إلى العالم الإسلامي .

وأدى النزاع بين أبنائه إلى تولي بايزيد الثاني العرش . ولم يكن بالسلطان الجديد نزوع إلى الحرب ، ولكن عندما استولت البندقية على قبرص وتحدثت سيطرة الأتراك على شرقي البحر المتوسط ، أفاق السلطان وضلل مخادعيه بميثاق للسلام ، حتى بنى أسطولا من ٢٧٠ سفينة ودمر أسطول البندقية بعيداً عن شواطئ اليونان . وأغار جيش تركي على شمال إيطاليا حتى وصل غرباً إلى فيشنزا (١٥٠٢) . فتوسلت البندقية لعقد الصلح ومنحها بايزيد شروصاً سخية ، ثم ركن إلى الشعر والفلسفة من

جديد . وخلعه ابنه سليم وجلس على العرش (١٥١٢) ولم يابث بايزيد أن مات ، وقيل إنه مات مسموماً .

إن التاريخ ، من بعض الوجوه ، ليس إلا تعاقباً لموضوعات متعارضة ، فإن الطباع والأشكال السائدة في عصر ينكرها ويرأ منها العصر الذي يليه ، والذي يضيق ذرعاً بالتقاليد ، ويتحرق لهفاً إلى التجديد : فالكلاسيكية تنجب الرومانتيكية ، وهذه تلد الواقعية ، وهذه تأتى بالتأثرية ، كما تدعو فترة الحرب إلى عقد (عشر سنوات) من السلم كما أن السلم الذي يطول أمده يدعو إلى الحرب العدوانية . فقد ازدرى سليم الأول بسياسة السلم التي انتهجها والده . وكان سليم قوى الجسم قوى الإرادة ، عزوفاً عن المسرات وأسباب المتعة ، ولوعاً بالصيد والقنص وحياة المعسكر ، واستحق لقب « العبوس » لأنه شفق تسعة من ذرى قريبه منعاً لأية فتنة أو تمرد ، وشن الحرب تلو الحرب من أجل الفتح والغزو . ولم تزعجه إغارة اسماعيل الصفوى شاه فارس على الحدود التركية . فمطع سليم على نفسه جهداً بأن يشيد ثلاثة مساجد ضخمة في القدس ، وبودا ورومه ، إذا من الله عليه بالنصر على الفرس (٣٦) .

وإذ أثار النعرة الدينية في شعبه إلى حد القتال . فإنه تقدم نحو اسماعيل ، واستولى على تبريز ، وجعل من شمالى أرض الجزيرة ولاية عثمانية . وفي ١٥١٥ حول مدافعه ورجاله الانكشارية إلى الممالك ، وضم سوريا وبلاد العرب ومصر إلى مملكته (١٥١٧) . وحل من القاهرة إلى القسطنطينية أسيراً مكرماً هو « خليفة المسلمين » وهو أكبر مقام دين عند المسلمين . وأصبح سلاطين العثمانيين بعد ذلك — مثل هنرى الثامن — أصحاب السلطة الدينية كما كانوا أصحاب السلطة الزمنية (سادة الدين والدولة) .

وفي أوج مجده قواته وعظمتها ، جهز سليم لغزو رودس والعالم المسيحي . فلما تمت كل الاستعدادات ، أصيب بالطاعون فتضى عليه (١٥٢٠) . وأمر ليو العاشر الذي كان قد ارتعد فرقا لتقدم سايم أكثر مما ارتعد لظهور مارتن لوثر — أمر الكنائس المسيحية بإقامة الصلوات شكراً لله .

٦ - الأدب الإسلامي

١٤٠٠ - ١٥٢٠

نظم سليم العبوس نفسه قصائد من الشعر المفقى ، وورث ابنه سليمان القانوني ديواناً ملكياً ضم قصائده المجموعة ، مثل ما ورثه إمبراطورية تمتد من الفرات إلى الدانوب والنيل ، وإنك ترى اثني عشر من السلاطين وكثيراً من الأمراء ، من بينهم الأمير جم الذي أجزل أخوه . الثاني العطاء للوك المسيحية وبابواتها ليحتجزوا الأمير في معتقل لائق ، نقول إنك ترى هؤلاء السلاطين والأمراء بين ٢٢٠٠ شاعر عثماني طبقت شهرتهم الآفاق في القرون الستة الأخيرة (٣٧) . واقتبس معظم هؤلاء الشعراء من الفرس أشكال شعرهم وأفكاره ، وفي بعض الأحيان لغته ، وواصلوا ، في معين من القصيد لا ينضب : تمجيد عظمة الله ، وحكمة الشاه أو السلطان ، وارتعاد شجرة السرو حسداً عند ما يقع نظرها على السيقان النحيلة الناصعة البياض للحيبة . وقد ألفنا الآن نحن في الغرب هذه المفاتن إلى حد أننا لم نعد نهتز لهذه التشبيهات الهائلة . ولكن « الأتراك الفطعاء » الذين كانت نساؤهم متدثرات من الأنف إلى أخمص القدم بشكل كله إغراء ، اهتزوا إلى الأعماق بهذه الإيمحاءات الشعرية ، وهذا الشعر الذي غيرت ترجمته من طبيعته ، والذي لا يؤثر فينا ولا يحرك فينا شعرة ، كان يحفزهم إلى التقى والورع وإلى نعد الزوجات وإلى الحرب .

ولنا لنختار في خيال ساذج ، من بين ألف من الموتى الخالدين ، ثلاثة أسماء لا تزال غريبة غير مألوفة لدى المجتمعات المحلية في الغرب . من هؤلاء أحمدى ، وهو من سيواس (المتوفى ١٤١٣) الذي نهل أول ما نهل من الأستاذ الفارسي النظامي ، وقد كتب أحمدى « اسكندرنامه » أى كتاب الإسكندر ، وهو ملحمة ضخمة في أسلوب قوى غير مصقول ، لم تتناول

قصة غزو الفرس للإسكندر فحسب ، ولكن تضمنت كذلك تاريخ الشرق الأدنى وديانته وعلومه وفلسفته من أقدم العصور إلى عهد بايزيد الأول : ويجدر بنا أن نكف عن الاقتباس لأن الترجمة الإنجليزية أشبه شيء بـ كايوس يجثم على الصدر . أما شعر أحمد باشا (المتوفى ١٤٩٦) فقد ابتهج به السلطان محمد الثاني إلى حد أنه عين الشاعر وزيراً له . ولكن الشاعر وقع في غرام خادم جميل من حاشية الإمبراطور الذي كان به مثل هذا الميل ، فما كان منه إلا أن أمر بإعدام الشاعر . وأرسل أحمد إلى مولاه قصيدة غنائية تفيض رقة ، حتى أن محمداً وهبه الغلام ، ولكنه نفى الاثنين إلى بروسه (٣٨) . وهناك آوى أحمد إلى داره شاعراً شاباً قدر له في الحال أن يبرزه ، ونظم نجاتي (المتوفى ١٥٠٨) ، وكان اسمه الحقيقي عيسى — نظم قصيدة غنائية مدح محمد الثاني ، وربطها في عمامة صني السلطان وزميله في لعبة الشطرنج ، ودفع فضول محمد الثاني به إلى الوقوع في الشرك ، وفض الليفة وقرأ النصيدة ، واستدعى ناظمها وعينه موظفاً في القصر المكي . وأبقاه بايزيد الثاني ناعماً بالخطوة والثراء . وكتب نجاتي الذي انتصر بشكل بطولي على الازدهار والنجاح ، بعض القصائد الغنائية التي تستحق أعظم الشاء والتقدير في الأدب العثماني .

ومهما يكن من أمر ، فإن فطاحل الشعر الإسلامي كانوا لا يزالون من الفرس . وكان بلاط حسين ببقرة في هراة يعج بالعنادل المغردة ، حتى أن وزيره مير علي شيرنواي شككاً قائلاً : « لو أنك مددت قدميك لرفست بهما ظهر شاعر » : فرد عليه شاعر آخر بقوله : « وكذلك تفعل أنت لو سحبتهم » (٣٩) . وكان مير علي شير (المتوفى ١٥٠١) ، إلى جانب معاونته في حكم خراسان ، ورعايته للأدب والفن ، وذبوع صيته في رسم المنمنمات والتأحين — نقول كان شاعراً فحلاً ، فكان ميسينابيس وهوراس زمانه في وقت معاً . ومن فيض رعايته المستنيرة استمد العرون والساوى المصوران جهاز

وشاه مظفر ، والموسيقيون قول محمود وشائقى نائى وحسين يودى ، والشاعر
الإسلامى الكبير فى القرن الخامس عشر ملا نور الدين عبد الرحمن جامى
(المتوفى ١٤٩٢) .

ووجد جامى فى حياته الطويلة الحادثة فسحة من الوقت ليكتسب شهرته
علماً ومتصوفاً وشاعراً . فشرح باعتباره من رجال الصوفية ، فى نثر رقيق ،
الفكرة الصوفية القديمة ، وهى أن الاتحاد البهيج بين النفس البشرية وبين
الحبيب ، وهو الله سبحانه وتعالى ، لا يأتى إلا إذا أيقنت النفس أن الإنسان
ليس إلا وهماً وسراباً ، وأن كل الأشياء فى الدنيا هى مجموع من الأشباح
العابرة التى تتلاشى فى ضباب الفناء . ومعظم قصائد جامى عبارة عن تصوف
منظوم شعراً ، ممزوج بشيء من الحسية الجذابة . ويقص علينا سامان وأبسال
حكاية طريفة تشير إلى أن الحب الإلهى يسمو على الحب الدنيوى . وسلمان
هو ابن شاه يون (أيونيا) وقد ولد من غير أم (وهذا شيء أصعب بكثير
من التوالد العذرى) وقد تولت تربيته الأميرة الحميلة أبسال التى افتتنت به
حين باغ الرابعة عشرة من العمر ، وقد غزت قلبه وأسرت به بما اصطنعت من
أسباب التجميل والتطرية .

« أحاطت سواد عينيها بسواد الإثم
حتى تحوله إلى ليل وهو فى وضوح النهار ،
وزينت وزججت الحواجب فوقهما .
لتصبيه إذا ضل هناك ، وشعرها الذى يتضوع منه المسك
صنفته فى لفائف أفعوانية كثيرة
كمن فيها « الإغراء » فوق خدها
الذى أضاءت ورده بندى قرمذى
ووضعت هناك حبة دقيقة من المسك
لتوقع فى الشرك طائر هذا القلب الحبيب

وقد نمر أحياناً فتطلق ضحكة تكسر بها
ياقوتة شفقتها اللتين تحفظان بينهما اللآلى
أو تنهض وكأنها على عجل ، فتقعق خلاخيلها الذهبية ،
وعلى نداءاتها المفاجئة : تأتي
تحت قدميها الفضييتين بالتاج الذهبى ، (٤٠) .

وهو تاج الأمير وريث العرش بلا منازع ، ويستسلم الأمير دون عناء
لهذه المغريات ، ولبعض الوقت ينعم الاثنان — الولد والسيدة فى حب
مشبوب . فيؤنب الملك هذا الشاب على مثل هذا العبث ، ويأمره أن ينجو
بنفسه إلى الحرب والحكيم . ولكن سلمان بدلا من ذلك يهرب مع أبسال
على ظهر جمل ، « وكأنهما لوزتان حلوتان فى قشرة واحدة » ، حتى إذا
وصلا إلى البحر صنعا قارباً وسارا به « شهراً » وأتيا إلى جزيرة مكسوة
بالخضرة ، ملبئة بالأزهار العطرة والطيور المغردة ، والثمار والفاكهة التى
تساقط تحت قدميهما بكثرة . ولكن فى جنة عدن هذه يتحرك ضمير الأمير
فيؤنبه ، ويفكر فى مهام الملك التى أغفلها ، ويحث الأمير محبوبته أبسال
على العودة معه إلى يون ، ويحاول أن يدرب نفسه على الاضطلاع بأعباء
الملك ، ولكنه موزع بين الواجب والجمال ، إلى حد أنه كاد آخر الأمر أن
يجن ، وانضم إلى أبسال فى محاولة للانتحار ، فبنيا محرقة ، وقفزا إليها ،
ويد كل منهما فى يد الآخر ، وأنت النيران على أبسال ، ولكن سلمان يخرج
سالماً ولم يحترق . والآن وقد تطهرت نفسه ، فإنه يرث العرش ويشرفه .
وكل هذا مجاز يفسره جامى بأن الملك هو الله ، وسلمان هو النفس البشرية ،
وأبسال هى نشوة الشهوة ، والجزيرة السعيدة هى جنة الشيطان التى تضل
فيها النفس عن مصيرها الإلهى ، أما المحرقة فهى نار تجربة الحياة ، التى
تتلاشى فيها الرغبات الشهوانية ، أما العرش الذى ترقى إليه النفس المطهرة
فهو عرش الله . ومن العسير أن نعتقد أن شاعراً استطاع أن يصور مفاتن

المرأة بهذا الشكل الحساس ، يمكن أن يطلب إلينا اجتنابها اللهم إلا بين
الفينة والفينة .

وفي جرأة عرض عنها ما تخضت عنه تجاسر جامى فعالج ، شعراً ،
من جديد ، الموضوعات الأثيرة لدى اثني عشر من الشعراء قبله :
يوسف وزليخة ، ليلى والمجنون . وفي تصدير فصيح يعيد تقرير النظرية
الصوفية : نظرية الجمال الإلهي والجمال الدنيوي :

في « القمر البدائي » ، حيث لم تعط الحياة أية علامة على
وجودها ، ورقد الكون مخبئاً منكراً نفسه ، كان ثمة شيء .
إنه الجمال المطلق يظهر نفسه لنفسه فقط ، وبنوره هو وحده .
مثل أجمل النساء في غرفة زفافها المخفوفة بالأسرار ، كان ثوبها نقياً
لا تشويه أية شائبة ، ولم تعكس أية مرآة وجهها ، ولم يمر
المشط قط بخصلات شعرها ، ولم يحرك النسيم العطر قط شعرة
واحدة منها ، ولم يأو قط أى عندليب على صفحة خدها الوردى ..
ولكن الجمال لا يطيق أن يبقى مجهولاً . انظر إلى زهرة التوليب
فوق قمة الجبل ، وهي تنفذ في الصخر فرعها الغض لأول بسملة
من بسمات الربيع : . . كذلك الجمال الأبدى أتى من الأماكن المقدسة
للأسرار ليشتع في كل الآفاق وفي كل النفوس ، وثمره شعاع واحد
انطلق من هذا الجمال الأبدى ، واخترق الأرض والسموات ، ومن ثم
تكشف وظهر في مرآة المخلوقات ، وأصبحت كل ذرات الكون
بمثابة مرايا تعكس كل منها ناحية من نواحي العظمة الأبدية .
وسقط شيء من تألقها على الوردة والعندليب ، فأصابهما شيء
من جنون الحب البائس واتقدت حماسهما ناراً ، وجاء ألف من
الفراشات لتهلك في اللهب : وهي التي أضفت على قمر كنعان لمعانه
الساطع الذي أصاب زليخة بالمجنون (١١) .

إن بجامى يهبط من علياء سمائه ليصف جمال الأميرة زليخة في تكرار
ولسهاب يتقدان حماسة ، حتى إلى حد وصف « حصن العفة والملمس
الحرام فيها » .

وكان نهداها بمثابة كرتين من نور بالغ النقاوة أو فتاحتين
تقفزان حديثاً من نافورة كافور ، أو رمانتين صغيرتين تنموان
على غصن واحد ، لا يستطيع أى طامع جرىء أن يمسهما
بأصبعه (٤٢) .

إن زليخة ترى يوسف فى المنام ، فتقع فى غرامه لأول ظهوره .
ولكن أباهما يزوجها من وزيره بوتيغار . ثم ترى يوسف بشخصه رأى
الغبين معروضاً للبيع فى سوق الرقيق فتشتريه وتغريه ، ولكنه يرفض صداقتها
والتفاهم معها ، فيصيبها الهزال . ويموت الوزير ، ويحل يوسف محله ،
ويتزوج زليخة ، وسرعان ما ينتاب الهزال الاثنين ، إلى حد الموت آخر
الأمر . إن حب الله فقط هو الحقيقة وهو الحياة ، إنها قصة قديمة ، ولكن
من ذا الذى يستطيع أن يركن إلى هذه المواعظ ؟

٧ — الفن فى آسيا الإسلامية

فى كل البقاع التى وصل إليها الإسلام من غرناطة إلى دلى وسمرقند ،
استخدم الملوك والنبلاء العباقرة والعبيد لبناء المساجد والمقابر ، والرسم على
الآجر وإحراقه ، ونسج الحرائر والسجاجيد وصبغها ، وطرق المعادن .
والحفر على الخشب والعاج ، وزخرفة المخطوطات بالألوان المائية والخط .
واستمسك الخانات والتمهوريون والعثمانيون والمماليك ، وحتى الأسرات
للصغيرة التى حكمت الأجزاء الضعيفة من العالم الإسلامى ، استمسكوا
جميعاً بالتقاليد الشرقى ، وهو تلطيف السلب بالشعر ، وتلطيف القتل بالفن .

وفي قرى الريف وفي قصور المدن أخرجت الثروة جمالا ، ونعمت قلة
محظوظة بتقرب أشياء تغرى اليد بلمسها ، وتغرى العين بالنظر إليها .

وكان المسجد لا يزال مجمع الفن الإسلامي . فالطوب والقرميد أكسبها
المئذنة جمالا شاعريا ، وأبواب الخزف المزخرف جعلت من ضوء الشمس
ألوانا براقة ، وأبرز المنسبر الأشكال المتعرجة المحمورة أو التطعيم المعقد
في الخشب ، ووجهت فخامة المحراب قلوب المصلين إلى مكة . وقدمت
المصعبات والثريات مشبكاتها المعدنية لإجلالا وولاء لله . وجعل السجاد من
الأرض البلاط مكانا ليناً بهياً لركبتي المصلي سجوداً وثيراً . وغلفت
المصاحف المذهبة بالحرير الثمين . وعجب كلا فيجو « من المساجد الجميلة
المزدانة بالآجر الأزرق والذهبي » (٤٣) ، وفي أصفهان أقام أحد وزراء
أولجايتو في مسجد الجمعة محراباً بات فيه الحصص العادي من مقائن الزخرفة
العربية والنقش . وشيد أولجايتو نفسه في « سلطانية » ضريحاً فخماً
(١٣١٣) أراد أن ينقل إليه رفات علي والحسين (كان الخان أولجايتو
شيوعياً) . ولكن خطته أخفقت إخفاقاً محموداً ، فإن عظام الخان ووريت
الترب في هذا الضريح المهيب ، وتسم أطلال المسجد في فارامين (١٣٢٦)
بالضخامة والجلال .

وأولع تيمور بالبناء ، وسرق أفكار العمارية ، كما سرق الفضة والذهب
من ضحايا أسلحته . وآثر الضخامة بوصفه فاتحاً ، وكانما هي ترمز
إلى إمبراطوريته وإلى إرادته ، ومثل محدثي الثراء أغرم باللون وأسرف
في الزخرفة . وافتتن بالآجر الأزرق المطلي في هراة ، فاستقدم خزافين
من فارس إلى سمرقند ليكسوا بالطوب اللامع واجهات المساجد والقصور
في عاصمته ، وسرعان ما أشرقت المدينة وتألقت بالخزف الفخم . ولحظ
في دمشق قبة بصلية الشكل تنبعج فوق القاعدة ثم يستدق طرفها إلى أعلى
حتى يصبح مدبباً ، فأمر مهندسيه أن يأخذوا تصميمها وأبعادها قبل أن

تسقط في الحريق العام ، وتوج سمرقند بمثل هذه القباب ، ونشر هذا الطراز بين الهند وروسيا ، حتى إنك لتراه سائداً من تاج محل إلى الميدان الأحمر . ولما عاد من الهند أحضر معه الفنانين والصناع المهرة : فأقاموا له في ثلاثة أشهر مسجداً ضخماً هو « مسجد الملك » له بوابة ارتفاعها مائة قدم ، وسقف مرفوع على ٤٨٠ عموداً من الحجر . وشيد لأخته « تشوشوك بيكا » ضريحاً لتدفن فيه ، أصبح تحفة العمارة في عصره (٤٤) . وعندما أمر ببناء مسجد تخليداً لذكرى زوجته الأثيرة لديه ، يبني خانن ، أشرف على البناء بنفسه ، وألقى باللحوم إلى العمال في الحفائر ، ونفخ الصناع المهرة المجتهدين بالنفود ، وحثهم أو أجبرهم على العمل ليل نهار ، حتى أقبل الشتاء وتوقف البناء ، وأخذت حماسته .

وأنجز خائفاه فناء أكثر ضخماً . ففي « مشهد » على الطريق بين طهران وسمرقند استخدمت « جوهر شاد » زوجة « شاه رخ » المغامرة ، المهندس المعماري قوام الدين في بناء المسجد الذي يحمل اسمها (١٤١٨) ، وهر أروع نتاج الهندسة الإسلامية الفارسية وأغناه بالألوان (٤٥) . وفيه تحيط المآذن المزودة بالفوانيس الرائعة بالضريح وكأنها تحرسه ، وتؤدي أربعة مداخل فخمة إلى فناء رئيسي ، كسبت واجهة كل منها بآجر من الخزف المزخرف ، « لا مثيل لها من قبل ومن بعد » (٤٦) — تحفة الزمان — تتحدى اللون في مائة شكل من الزخرفة العربية « الأرابسك » والرسوم الهندسية والحركات الزهرية والخط الكوفي الفخم ، وأضفت شمس فارس على هذا مزيداً من البريق والتألق . وفوق الجزء الجنوبي الغربي من الرواق ذي الأعمدة المؤدى إلى حرم المسجد ارتفعت مثذنة من الآجر الأزرق تناطح السماء ، وعلى الباب بحروف بيضاء على أرضية زرقاء نقش إهداء الملكة ، وهو إهداء يفيض فخراً وتقى :

« إن عظمتها العريقة في المجد ، شمس سماء الطهارة والعفة ...

جواهر شاد ، خلد الله عظمته وأدام طهارتها ! من مالها الخاص ،
ولخير آخرتها ، ومن أجل اليوم الذى يحاسب فيه المرء على
ما قدمت يده ، تقرباً إلى الله وشكراً له سبحانه . . . شيدت
هذا المسجد الجامع العظيم ، هذا البيت المقدس ، فى عهد السلطان
المعظم ، سيد الحكام ، والد نائب الملك ، شاه رخ ، أدام الله
ملكه وإمبراطوريته ! وزاد على أهل الأرض صلاحه وعدله
وكرمه ! (١٧) .

ولم يكن مسجد جواهر شاد إلا واحداً من جملة مباني جعلت من مشهد
رومة « المذهب الشيعى » ، وهناك على مدى ثلاثين جيلاً ، شيد أتباع
الإمام الرضا مجموعة كبيرة من العماير تأخذ فخامتها بالألباب ، ذوات مآذن
جميلة وقباب فاخرة ، ومدخل كسيت واجهاتها بالآجر اللامع أو بصفائح
الفضة أو الذهب ، وساحات تعكس فسيفسائها الزرقاء والبيضاء أو خزفها
المزخرف أشعة الشمس . وهنا فى ها المنظر العريض الخلاب بأشكاله
وألوانه ، استخدم الفن الفارسى كل سحره لمجد أحد أولياء الله الصالحين
ويرهب الحاج الزائر حتى يعمر قلبه بالتقوى والإيمان .

ومن أذربيجان إلى أفغانستان ارتفع فى هذا العصر فى أرض الإسلام
ألف مسجد : ذلك أن بيوت العبادة لها من للقيمة الكبيرة لدى الإنسان
ما لفاكهة الأرض ، ولكن عندنا نحن أهل الغرب، المحصورين فى خلایا
المعقل ، لا تعنى هذه الأضرحة إلا أسماء جوفاء ، بل قد يزعمنا أن نحياها
ونكرمها بتلك الانحناءات الجافة المقتضبة . وماذا يعنيننا أن جواهر شاد قد
حصلت لرفاتها الطاهرة على مقبرة جميلة فى هراه ، وأن شيراز جددت
عمارة مسجد ما الجامع فى القرن الرابع عشر ، وأن يزد واصفهان قد أضافتا
محرابين فاخرين إلى مسجدى الجمعة فيهما ؟ الحق أننا بعيدون جداً ، من
حيث الزمان والمكان والتفكير ، إلى حد لا نشعر معه بهذه العظمة والجلال ،

كما أن هؤلاء الذين يقيمون الصلاة في تلك المساجد لا يستهويهم كثيراً اجتراءاتنا القوطية أو الصور الحسية في عصر النهضة ، على أنه جدير بنا مع ذلك أن نتأثر ونحن وقوف على أطلال الجامع الأزرق في تبريز (١٤٣٧ — ١٤٦٧) ونستعيد في الذاكرة الفخامة التي اشتهر بها يوماً خرفته الأزرق المزخرف وزخرفته العربية الذهبية ، كما لا يغيب عن أذهاننا أن محمد الثاني وبايزيد الثاني شيئا في القسطنطينية (١٤٦٣ — ١٤٩٧) مساجد تكاد تنافس عظمة كنيسة أياصوفيا . وقد اقتبس العثمانيون التصميمات البيزنطية والأبواب الفارسية والقباب الأرمينية وأفكار الزخرفة الصينية ، ليشكلوا مساجدهم في بروسه ونيقيا ونيقوميديا وقونية . لقد كان الفن الإسلامي لا يزال في أوجه في هندسة العمارة على الأقل .

وثمة فن واحد فحسب استطاع أن ينهض وبصمد أمام فن العمارة في الإسلام : (كما صمد داود أمام جوليات — التوراة ، صموئيل الأول ، الإصحاح ١٧ : ٤ ، ٤٩) . فربما حظى الخطاطون ورسامو المنعمات الصابرون الذين زخرفوا الكتب بأصغر وأدق زخارف وصور وخطوط رمزية بالفرشاة أو القلم — ربما حظى هؤلاء بنصيب من التكريم والإجلال أكثر مما حظى به بناء المساجد . وقد رسمت الصور الحائطية ، ولكن لم يبق من نتائج هذه الفترة شيء منها . ورسمت صور الأشخاص ، ولم يبق منها إلا القليل . وامتلأ العثمانيون علانية لتعاليم الكتاب المقدس والقرآن في تحريم نحت الصور الشخصية ، ولكن محمد الثاني استقدم جنتيل بليني من البندقية إلى القسطنطينية (١٤٨٠) ليرسم صورته ، وهي المعلقة الآن في المتحف الوطني في لندن . كما توجد نسخ من صورة زعموا أنها لتيمور . على أن المغول الذين اعتنقوا الإسلام ، بصفة عامة ، آثروا تقاليد الفن الصيني على المحظورات التي جاءت بها الشريعة الإسلامية . فأدخلوا من

الصين على الزخرفة الفارسية الثمين والعنقاء وأشكال السحاب وهالات القداسة والوجوه الشبيهة بالأقمار ، وزاوجوا بينها . بطريقة خلاقة ، وبين الأساليب الفارسية في اللون الشفاف والخط الجالس . وكانت الأساليب المختلطة متماثلة إلى حد بعيد ، فلن رسامي المنمنمات الصينيين والفرس ، على حد سواء ، رسموا لطبقة الأرسية قراطين الذين يحتمل أن ذوقهم كان رفيعاً جداً ، والأرجح أنهم حاولوا إرضاء الخيال والجواس أكثر من تمثيل الأشكال الموضوعية .

وكأنت المراكز العظمى للزخرفة الإسلامية في هذا العصر هي تبريز وشيراز ، هراة . ويحتمل أنه قد جاء من تبريز في عهد الأيلخانات ، اللورقات الخمس والخمسون من كتاب « شاه نامه » ، (كتاب الملوك للفردوسي) - وهي من عمل رسامين مختلفين في القرن الرابع عشر . ولكن رسم المنمنمات الفارسية بلغ الذروة في هراة على عهد التيموريين ، وقد استخدم شاه رخ طائفة كبيرة من الفنانين ، وأسس ابنه بيسنقر ميرزا كلية خاصة بالخط والمنمنمات . ومن مدرسة هراة هذه جاءت الشاهنامه (١٤٢٩) وهي معجزة اللون البراق والجمال الدافق ، وهي الآن محفوظة بعناية في مكتبة قصر جلستان في طهران ، وتكاد لا يحسبها أحد إلا إجلالا وتعظيماً . إن رؤيتها لأول مرة أشبه شيء باكتشاف قصائد كيتس (الشاعر الإنجليزي Keats) .

وكان كمال الدين بهزاد ، هو كيتس الزخرفة الحقيقي أو رافائيل الشرق ، لقد عرسته تجارب الحياة ، وويلات الحرب وتقلباتها ، فعكس هذا كله بالفن ، ولد بهزاد في هراة حوالي سنة ١٤٤٠ ، ودرس في تبريز ، ثم عاد إلى هراة ليرسم للسلطان حسين بن بقره ، ووزيره المتعدد الجوانب (شاعر وموسيقي ومصور) مير علي شيرنواي . وعندما أصبحت هراة مركزاً للأوزبك والحملات الصفويين ، قصد بهزاد ثانية إلى تبريز . وكان من بين أوائل المصورين الفرس الذين وقعوا على أعمالهم ، ولكن بقايا منه قليلة فعلا

ومتباعدة . وثمة منمنمتان في دا ، الكتب المصرية بالقاهرة تمثلان « بستان سعدى » وتعرضان حلقة لبعض رجال الدين يتدارسون فيها أسرار . وتحمل المخطوطة تاريخ سنة ١٤٨٩ ، أما العبارة المكتوبة في نهايتها فتقول « رسمها العبد المذنب بهزاد » . ويضم متحف فريز في واشنطن صورة « شاب يرسم » ، وهي نسخة منقولة عن جنتيل بليني وقعها بهزاد ، وفيها تكشف الأنامل الرقيقة عن الفنانين الرسام والمرسوم كليهما ، وليس من المحقق كثيراً أنه هو الذى رسم المنمنمات الموجودة في المتحف البريطاني ، وهي نسخة مخطوطة « المنظومات الخمس » للشاعر نظامي ، وفي نفس الخزانة توجد مخطوطة « ظفر نامة » أى سجل انتصارات تيمور .

ومن العسير أن تفسر هذه البقايا شهرة بهزاد المنقطعة النظير . إنها تنم على إدراك حسي للأشخاص والأشياء ، وعلى حرارة اللون ومداه ، وعلى حيوية في التنفيذ تشملها جميعاً دقة رقيقة في التخطيط . ولكنها لا تكاد توازن بالمنمنمات التي رسمت لدوق برى Berry ، قبل ذلك بقرن من الزمان تقريباً ، ومع ذلك فإن معاصري بهزاد أحسوا بأنه كان قد أحدث انقلاباً في الزخرفة بنماذجه الأصيلة في التأليف ، ومناظره الطبيعية الزاهية وصور شخصه المفصلة بعناية والتي تكاد تقفز إلى الحياة ، وعنه قال المؤرخ الفارسي خواندمير الذى كان يقارب الخمسين من العمر حين مات بهزاد (حوالى ١٥٢٣) ، ربما بدافع التحيز لصداقته له : « إن براعته في التصوير والتصميم قد طمست ذكرى غيره من مصوري العالم . إن أنامله الموهوبة بمزايا خارقة تحت صور سائر الفنانين من بنى آدم » (٤٨) : وجدير بنا أن يهذب من ثقتنا أن نفكر ملياً في أن هذا قد كتب قبل أن يرسم ليوناردو دافنسى « العشاء الأخير » ويرسم ميكالأنجلو « سقف كنيسة سستين » ، وقبل أن يرسم رافائيل « غرف الفاتيكان » . ومن المحتمل أن خواندمير لم يكن قد سمع بأسمائهم قط .

وانحط فن الخزف في هذه الحقبة عما كان عليه في عهد سلاجقة الري وكاشان ، أما مدينة الري فقد تركتها الزلازل وغارات المغول أثراً بعد عين ، وأما كاشان فقد خصصت معظم أفرانها لصناعة الطوب ، على أن مراكز جديدة للخزف قامت في سلطانية ويزد وتبريز وهرارة وأصفهان وشيراز وسمرقند ، وكان الخزف المزخرف الفسيفسائي آنذاك هو الإنتاج المفضل : فصنعت بلاطات صغيرة من الخزف ، رسمت كل منها بلون معدني واحد ، وطايت فأصبحت ذات بريق يتطلب أشد العناية لبقائه . وحين كان حماة الفن في يسر وثناء استخدم البنّاعون الفرس هذا الخزف المزخرف ، لا للمحاريب والزخرفة فحسب ، بل استخدموه كذلك في تغطية سطوح كبيرة من أبواب المساجد أو جدرانها ، وثمة نموذج أخاذ في محراب مسجد بابا قاسم (حوالي ١٣٥٤) في متحف متروبوليتان للفن في نيويورك .

واحتفظ صناع المعادن في الإسلام بمهارتهم ، فصنعوا الأبواب والثريات البرونزية للمساجد من بخاري إلى المغرب (مراكش) ، ولو أن شيئاً منها لم يضارح تماماً « أبواب الجنة » التي صنعها جيبerti (١٤٠١ - ١٤٥٢) في بيت المعمودية بفلورنسه ، وقد صنعوا أحسن أسلحة العصر - الخوذات المخروطية الشكل لكي تجعل الضربات الهاوية تنحرف ، والدروع من الحديد البراق مطعمة بالفضة والذهب والسيوف المرصعة بالنقوش الذهبية أو الأزهار المصنوعة من الذهب . كما صنعوا النقود الجميلة ، كما صنعوا الرسوم النافرة أو الميداليات الكبيرة مثل تلك التي عليها صورة جانبية لمحمد الفاتح البدين القصير ، وشمعدانات برونزية كبيرة حفر عليها الخط الكوفي الفاخر أو الأشكال الزهرية ، كما صبر وزينوا المباخر ومحفظات الكتابة والمرايا وعلب الجواهر والمحجرات والقوارير والأباريق والطشوت والصواني ، بل حتى المقص والفرجار كانوا يزينونها بالنقوش بطريقة فنية . ومثل هذا التفوق مشهود به للفنانين والصنّاء المهرة

المسلمين الذين اشتغلوا بقطع الجواهر أو المعادن النفيسة ، أو الذين اشتغلوا بقطع الجواهر أو المعادن النفيسة : أو الذين حفرُوا العاج أو الخشب أو رصعوه . والنسيج البائى للآن عبارة عن قطع أو أجزاء صغيرة . ولكن المنمنمات تصور لنا تشكيلة واسعة من المنتجات الجميلة من الكتان الرفيع فى القاهرة إلى الخيام الخيرية فى سمرقند . والحق أن الذى أثار بسرعة حسد أوروبا ، هم أولئك المزخرفون الذين صمموا الأنماط والطرز المعقدة ولكنها مع ذلك منطقية : القماش المقصب (البروكار) والقطيفة والحرائر ، للمغول والتموريين ، بل حتى البسط التركية . وفيما يسمونه الفنون الصغرى قاد الإسلام العالم .

٨ — الفكر الإسلامى

أفلت شمس العلم والفلسفة وضاع مجدهما ، لأن الدين كان قد كسب معركته ضدهما ، فى الوقت الذى كان فيه يتراجع ويستسلم فى الغرب المراهق . وكان الذين يحفظون بالشرف الرفيع هم رجال الدين والدراويش والنساک والأولياء ، أما العلماء فتمد قصودوا إلى استيعاب نتائج أبحاث أسلافهم ، أكثر مما قصودوا إلى إدهان النظر فى الطبيعة لمن جديد . وكان آخر تقدم أو محاولة نشيطة فى الفلك الإسلامى فى سمرقند حين صاغ راصد النجوم فى مرصد أولوج بك فى سنة ١٤٣٧ الجداول الفلكية التى حظيت بأعظم التقدير فى أوروبا حتى القرن الثامن عشر . وقاد ملاح عربى مزود بجداول وخريطة عربية ، فاسكودا جاما من أفريقية إلى الهند فى المرحلة التاريخية التى وضعت نهاية لسيطرة الإسلام الاقتصادية^(٤٩) .

وفى الجغرافيا أنجب المسلمون شخصية عظيمة فذة فى هذا العصر . وفى سنة ١٣٠٤ ولد فى طنجة محمد أبو عبد الله بن بطوطة الذى طاف بدار الإسلام — العالم الإسلامى — لمدة أربع وعشرين سنة ثم عاد إلى المغرب

ليقتضى نخبه في فاس . وإن يوميات هذا الرحالة لتوحى بمدى انتشار الإسلام الواسع ، فهو يذهب إلى أنه قطع في رحلته ٧٥٠٠٠ ميل (أكثر من أى إنسان آخر قبل عصر البخار) . كما زعم أنه رأى غرناطة وشمال أفريقيا وتمبكتو ومصر والشرقين الأدنى والأوسط وروسيا والهند وسيلان والصين . وأنه رار كل حاكم مسلم في هذا العصر . وفي كل مدينة كان يقدم احتراماته أولاً إلى العلماء ورجال الدين ثم بعد ذلك إلى الملوك والحكام . وإنا لنرى النزعة الإقليمية عندنا منعكسة عليه حين يعدد « الملوك السبعة العظام في العالم » . وكلهم مسلمون فيما عدا واحداً صينياً (٥٠) . إنه لا يصف الأشخاص والأماكن فحسب ، بل يصف كذلك حيوان كل منطقة ونباتها والمعادن والأطعمة والأشربة والأسعار في مختلف البلاد . وكذلك المناخ ومظاهر الطبيعة والعادات . والأخلاق والطقوس الدينية والمعتقدات ، وهو يتحدث بكل إجلال عن السيد المسيح والسيادة العذراء : ولكنه يشعر ببعض الارتياح والرضا حين يشير إلى أن « كل حاج يزور كنيسة القيامة في القدس يدفع رسوماً للمسلمين » (٥١) . وعندما عاد إلى فارس روى كل تجاربه ومشاهداته ، فأنزلة سامعوه منزلة القصص . ولكن الوزير أمر أحد سكرتيريه بتدوين ما أملاه ابن بطوطه من مذكرات . وضاع الكتاب وكاد أن ينسى . حتى وجد أخيراً أثناء الاحتلال الفرنسي الحديث للجزائر .

وفيما بين سنتي ١٢٥٠ ، ١٣٥٠ كان أعظم الكتاب إنتاجاً في التاريخ الطبيعى من المسلمين . فكتب محمد الدميرى بالقاهرة كتاباً في علم الحيوان يقع في ١٥٠٠ صفحة وكان الطب لا يزال قلعة سامية ، (أى عامياً برز فيه الجنس السامى) . فكانت المستشفيات كثيرة في العالم الإسلامى . وشرح طبيب من دمشق هو علاء الدين بن النفيس الدورة الدموية الرئوية (١٢٦٠) قبل سرفيتس (طبيب أسباني : القرن ١٦) بنحو ٢٧٠ سنة ،

ونسب طبيب من غرناطة هو ابن الخطيب « الموت الأسود » إلى مرض معد ، وأشار بالحجر الصحي للمصابين — معارضاً بذلك قول رجال الدين بأنه انتقام إلهي من خطايا الإنسان وآثامه . واشتمل بحثه « في الطاعون » (حوالي ١٣٦٠ على هرطقة مشهورة : « يجب أن يكون من القواعد المقررة لدينا أن أي برهان مأخوذ من تقاليد « أتباع محمد » يذبح أن يخضع للتعديل إذا تعارض تعارضاً واضحاً صريحاً مع الدليل الذي تأتي به الحواس (٥٣) » .

وكان العلماء والمؤرخون كثيرين مثل الشعراء . وكانوا يكتبون باللغة العربية وهي لغة الاسبرانتو في العالم الإسلامي ، كما جمعوا في كثير من الأحوال بين الدرس والتأليف وبين النشاط السياسي والإداري . ومثال ذلك أبو الفداء الدمشقي ، فقد اشترك في اثنتي عشرة حملة حربية ، وكان وزيراً للملك الناصر في القاهرة ، ثم عاد إلى سوريا حاكماً على حماه ، وجمع مكتبة ضخمة ، وألف مجموعة من الكتب تعتبر قمة ديالاتها في هاتيك الأيام . وفاق بحثه في الجغرافيا « تقويم البلدان » في اتساع مداه ، أي مؤلف أوربي من نوعه في عصره ، وقد قدر فيه أن الماء يغطي ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وأشار إلى أن السائح حول العالم يكسب أو يفقد يوماً في مسيره غرباً أو شرقاً ، وكان كتابه « المختصر في أخبار البشر » هو التاريخ الإسلامي الأساسي المعروف لدى الغرب .

راكن الاسم اللامع في كتابة التاريخ في القرن الرابع عشر هو عبد الرحمن ابن خلدون : فهنا نجد رجلاً ذا وزن وقيمة حتى في أعين أهل الغرب رجلاً عركته التجارب والسياسة وفن الحكم الذي مارسه عملياً ، وهو مع ذلك حسن الاطلاع على الفن والأدب والعلوم والفلسفة في عصره ، يكاد يحيط بالجوانب الإسلامية في هذا كله في « تاريخ العالم » . وإن موالد مثل هذا الرجل في تونس (١٣٣٢) وارتفاع مكانته هناك ، ليوحيان إلينا

بأن ثقافة شمالى أفريقية لم تكن مجرد صدى للإسلام فى آسيا ، بل كان لها طابع وحيوية خاصتان بها ، وتقول سيرة حياة ابن خلدون : « لم أزل منذ نشأت وناهزت مكباً على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته ... » .

وقضى الموت الأسود على أبويه وعلى كثير من المعلمين ، ولكنه تابع دراسته « إلى أن شددت بعض الشيء » (٥٤) ، وهذا ضرب من الوهم يتميز به الشباب . وعين فى العشرين من عمره سكرتيراً لسلطان تونس ، ثم لسلطان فاس فى الرابعة والعشرين ، وفى سن الخامسة والعشرين دخل السجن . ثم انتقل إلى غرناطة وأرسل سفيراً إليها لدى بطرس القاسى فى أشبيلية . وعندما عاد إلى أفريقية أصبح الوزير الأول للأمير أبى عبد الله فى « بجاية » ولكن كان لزمداً عليه أن يفر لينجو بنفسه عندما خاع سيده وقتل . وأرسلته مدينة تلمسان فى سنة ١٣٧٠ مبعوثاً لها إلى غرناطة ، ولكن اعتقاله فى الطريق إليها أحد أمراء المغرب العربى ، وبقي ابن خلدون أربع سنوات فى خدمة هذا الأمير ثم لجأ إلى حصن بالقرب من وهران ، وهناك (١٣٧٧) كتب « مقدمة تاريخه » وهى مقدمة « لتاريخ العمران » . ولما كان فى حاجة إلى كتب أكثر مما استطاعت وهران أن تمدّه بها فإنه عاد إلى تونس ، ولكن هناك تألب عليه أعداء من ذوى النفوذ فيها ، فانتقل إلى القاهرة (١٣٨٤) ، وكانت شهرته كعالم قد طبقت الآفاق ، وازدحم حوله الطلاب حين كان يحاضر فى الجامع الأزهر ، وأجرى عليه السلطان برقوق راتباً « كما كانت عادته مع العلماء » (٥٥) . وعين قاضياً للمالكية ، فطبق القوانين بصرامة شديدة وأغلق الملاهى مما أدى إلى هجوه وعزله من منصبه ، فاعتزل الحياة العامة ثانية . ثم أعيد إلى منصب قاضى القضاة ، وصحب السلطان ناصر الدين فرج فى حملة ضد تيمور ، وهزمت القوات المصرية ، فالتمس ابن خلدون ملجأ له فى دة شسق ، وحاصرها تيمور ،

وكان مؤرخنا آنذاك فى سن الشيخوخة ، فرأس وفداً يلتمس من التترى المنتصر شروطاً لينة رفيقة وأحضر - مثل أى مؤرخ آخر ، مخطوطة تاريخه معه ، وقرأ على تيمور الجزء الخاص به وسأله أن يصحح له معاوماته . وربما كان قد تعتمد مراجعة الصفحات قبل ذلك هذا الغرض نفسه . ونجحت الخطة . وأطاق تيمور سراحه ، وما لبث أن عاد ابن خلدون مرة أخرى قاضياً للقضاة فى القاهرة ، ومات وهو فى هذا المنصب ، فى سن الرابعة والسبعين (١٤٠٦) .

وألف ابن خلدون وسط هذه الحياة القلقة موجزاً عن فلسفة ابن رشد . وأبحاثاً فى المنطق والرياضيات ، ومقدمة ابن خلدون ، وتاريخ البربر ، وشعوب الشرق ، والكتب الثلاثة الأخيرة فقط هى الباقية . وهى تشكل فى مجموعها « تاريخ العالم » (كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السطان الأكبر) . والمقدمة واحدة من الروائع فى الأدب الإسلامى وفى فلسفة التاريخ . فهى إنتاج « حديث » إلى درجة مذهلة لعقلية عاشت فى العصور الوسطى . ويرى ابن خلدون أن التاريخ « فرع هام من الفلسفة » (٥٦) ، وينظر نظرة عريضة واسعة إلى مهمة المؤرخ :

« اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال ، مثل التوحش والتأنس والعصبيات ، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتجها البشر بأعمالهم ومسايعهم من المكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال » (٥٧) . (ص ٣٣ من مقدمة ابن خلدون طبعة كتاب الشعب - القاهرة ١٩٦٩) .

واعتماداً منه بأنه أول من كتب التاريخ بهذه الطريقة ، فإنه يسأل القارىء الصنف عن أية أخطاء لم يكن فى الإمكان تجنبها فيقول :

« وأنا من بعدها موقن بالقصور بين أهل العصور ، معترف بالعجز عن المضاء فى هذا القضاء ، راغب من أهل اليد البيضاء ، والمعارف المتسعة القضاء ، فى النظر بعين الانتقاد ، لا بعين الارتضاء ، والتعمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغضاء . فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة والاعتراف من اللوم منجاة ، والحسنى من الإخوان مرتجاة . والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وهو حسبي ونعم الوكيل » (٥٨) . (المصدر السابق ، ص ١٠) .

ثم هو يأمل فى أن يكون كتابه هذا عوناً على الأيام الخالكة التى تنبأ بها :

« وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله ، وتحول العالم بأسره . وكأنه خلق جديد ونشأه مستأنفة ، وعالم محدث . فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليفة والآفاق وأجيالها ، والعوائد والنحل لأهلها ، ويقفوا مسلك المسعودى لعصره ، ليكون أصلاً يقتدى به من يأتى من المؤرخين من بعده » (٥٩) . (المصدر السابق ، ص ٣١) .

وينحصر ابن خلدون بعض صفحات يملؤها الزهو والفخر ، يشير فيها إلى أخطاء بعض المؤرخين . ويحس بأنهم ضلوا فى مجرد ترتيب الأحداث ترتيباً زمنياً ، وقل أن ارتفعوا إلى مستوى إيضاح الأسباب والنتائج . وتقبلوا الخرافة بمثل الارتياح الذى تقبلوا به الحقيقة تقريباً ، وقدموا إحصاءات مبالغ فيها ، وفسروا أشياء كثيرة جداً بقوى خارقة

للطبيعة ، أما بالنسبة له ، فهو يعتزم أن يعول كلية على العوامل الطبيعية في تفسير الحوادث . ولستوف يحكم على ما يكتبه المؤرخون في ضوء التجارب الراهنة للجنس البشرى ، ويرفض أى حدث مزعوم يعتبر الآن مستحيل ان وقوع . فإن التجربة يجب أن تفصل في صحة التقاليد أو فسادها (٦٠) . وكان منهجه في « المتقدمة » هو أن يعالج أولاً فلسفة التاريخ ، ثم يتناول أشغال الناس ومهنتهم وبراعاتهم ، وأخيراً يعرض لتاريخ العلوم والفنون ، وهو يدون في مجلدات متعاقبة التاريخ السياسى لمختلف الأمم ، الواحدة تلو الأخرى ، متعمداً التوضيحية بوحدة الزمان في سبيل وحدة المكان . ويقول ابن خلدون إن الموضوع الحقيقي للتاريخ هو الحضارة ، كيف تنشأ ، وكيف يحتفظ بها وكيف تنمى الآداب والعلوم والفنون ، ولماذا تبلى (٦١) ، فالإمبراطوريات — مثل الأفراد — لها حياة ولها مسارات خاصة بها . لأنها تنشأ وتنضج وتضمحل (٦٢) فما هى أسباب هذا التعاقب ؟

والأحوال الأساسية في هذا التعاقب هى أحوال جغرافية . ذلك أن للمناخ تأثيراً عاماً ولكنه أساسى . فالشمال البارد ينتج آخر الأمر ، حتى في أناس أصلهم من الجنوب ، جلداً أبيض اللون وشعراً خفيفاً ، وعيوناً زرقاء وميلاً إلى الباردة . أما الأقاليم المدارية فتنتهى بمرور الزمن إلى الجلد الأسمر والشعر الأسود ، « وتغلب الروح الحيوانية » ، ونخفة في العقل والمرح وسرعة التنقل بين المسرات مما يؤدى إلى الغناء والرقص (٦٣) . ويؤثر الطعام في الخلق . فالغذاء الثقيل المكون من اللحوم والتوابل والحبوب بسبب بلادة الجسم والعقل ، والاستسلام السريع للقمحط أو العدوى . أما الغذاء الخفيف ، مثل هذا الذى تتناوله شعوب الصحراء ، فإنه يساعد على رشاقة الأجسام وصحتها ، وعلى سلامة العقول . وعلى مقاومة المرض (٦٤) . وليس ثمة تفاوت فطرى في القدرة الكامنة بين شعوب الأرض : فإن تقدمهم

أو تأخرهم تحدده الأحوال الجغرافية ، ويمكن تغييره بتغيير هذه الأحوال ،
أو بالهجرة إلى مكان آخر (٦٥) .

أما الأحوال الاقتصادية فهي أقل قوة فقط من الجغرافية . ويقسم ابن
خلدون المجتمعات إلى رحل ومقيمة أو مستقرة تبعاً لوسائل الحصول على
القوت ، ويعزو معظم الحروب إلى الرغبة في الحصول على مصادر للغذاء
أكثر وفرة . فالقبائل الرحل لابد أن تغزو إن عاجلاً أو آجلاً ،
الجماعات المستقرة المتوطنة ، لأن هؤلاء الرحل مرغمون بحكم ظروف
حياتهم على التمسك بالصفات الحربية مثل الشجاعة وقوة الاحتمال والجلد
والتمسك . وقد يدمر الرحل حضارة ، ولكنهم لا يستطيعون إقامة حضارة
قط . فإن الشعب المقهور يمتص دماء الرحل وثقافتهم . ولا يستثنى من
ذلك العرب الرحل . والحرب أمر طبيعي طالما أن الشعب غير قانع أبداً
لأمد طويل بما لديه من غذاء . إن الحرب هي التي تنشئ السلطان السياسي
وتجده ، ومن ثم كانت الملكية هي الشكل المألوف للحكومة . وقد
سادت في كل حقبة التاريخ تقريباً (٦٦) . وقد تنشئ السياسة المالية مجتمعاً
أو تهدمه ، فإن فرض الضرائب الباهظة أو دخول الحكومة إلى مجال
الإنتاج والتوزيع ، يمكن أن يخمّد أو يقضى على الحوافز والمغامرة
والمنافسة ، ويقتل البقرة الحلوب التي تدر الدخل (٦٧) . ومن جهة أخرى
فإن الإفراط في تركيز الثروة قد يمزق المجتمع إرباً بإذكاء نار الثورة (٦٨) .

وثمة قوى معنوية في التاريخ : وفي تماسك الناس تدعيم للإمبراطوريات ،
وأفضل وسيلة لتأمين هذا هو غرس عقيدة واحدة وممارستها . ويتفق ابن
خلدون مع البابوات ومحاكم التفتيش والمصالحين الدينيين البروتستانت على
عقيدة واحدة .

وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب . والتغلب إنما يكون

بالعصبية ، واتفاق الأهواء على المطالبة ، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه . قال تعالى : لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم . وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا ، حصل التنافس وفشا الخلاف . وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها ، فذهب التنافس وقل الخلاف ، وحسن التعاون والتعايد ، واتسع نطاق الكلمة لذلك ، فعظمت الدولة ، كما نبين لك بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى وبالله التوفيق ، لا رب سواه (٦٩) . (المصدر السابق ص ١٤٢) .

وليس الدين عوناً في الحرب فحسب ، بل إنه كذلك خير عون على النظام في المجتمع ، وعلى اطمئنان النفس وهدوء البال عند الناس فرادى ، ولا يتأتى هذا إلا بعقيدة دينية تتقرر بلا مساءلة ولا جدال . إن الفلاسفة ليبتدعون مئات الأساليب ، ولكن واحداً منهم لم يقع على بديل للدين ، كمرشد ومصدر إلهام للبشر في حياتهم « وما دام أن الإنسان لا يستطيع فهم الدنيا ، فإن من الخير له أن يتقبل العقيدة التي ينقلها إليه مشرع ملهم تلقى الوحي ، يعرف ما فيه خيرنا ونفعنا أكثر مما نعرف نحن ، ويشرع لنا ما ينبغي علينا أن نؤمن به وما ينبغي علينا أن نفعل » (٧٠) ، وبعد هذه المقدمة الرشيدة ينتقل مؤرخنا الفلاسوف إلى تفسير للتاريخ قائم على المذهب الطبيعي .

إن كل إمبراطورية تمر بأطوار متعاقبة :

١ — تحط قبيلة متنقلة منتصرة رحالها لتنعيم بما أفاء الله به عليها من فتح رقعة من الأرض أو ولاية . « إن أقل الأقوام حضارة أعظمها فتوحاً » (٧١) .

٢ — وكلما ازدادت العلاقات الاجتماعية تعقيداً ، اقتضى الأمر سلطة أكثر تركيزاً بغية المحافظة على النظام ، فيصبح الرئيس القبلى ملكاً .

٣ — وفي هذا النظام المستتب ، تنمو الثروة ، وتتمتع المدن ، ويرتقى التعليم والآداب ، وتجد الفنون من يرعاها ، وتبرز شمس العلوم والفلسفة . ويؤذن التوسع فى سكنى المدن والحياة الناعمة بفضل الثراء ، ببداية الاضمحلال .

٤ — إن المجتمع الذى أثرى يبدأ فى إثثار المسرة والترف والدعة على العمل أو المغامرة أو الحرب ، ويفقد الدين سيطرته على خيال الإنسان وعقيدته ، وتنحط الأخلاق والسلوك ، وينتشر الشذوذ الجنسى ، كما تنحط الفضائل والأعمال الحربية ، ومن ثم يكون الاتجاه إلى استخدام الجنود المرتزقة للدفاع عن المجتمع ، ومثل هؤلاء تعوزهم حماسة الروح للوطنية والعقيدة الدينية ، وكأن الثروة التى لا يحسن الدفاع عنها تغرى بمهاجمتها ملايين الجياع المضطربين فيما وراء الحدود .

٥ — إن الحملات الخارجية أو الدسائس الداخلية ، أو كاتهما معاً ، تسقط الدولة (٧٢) . تلك كانت دورة الزمن بالنسبة لروم ، والمرابطين والموحدين فى أسبانيا ، والإسلام فى مصر وسوريا والعراق وفارس ، وهى تجرى دائماً على هذا المنوال (٧٢) .

تلك هى قلة قليلة من آلاف الأفكار التى جعلت من « مقالة ابن خلدون » أشهر نتاج فلسفى فى القرن الذى عاش فيه . وكان لابن خلدون أفكاره الخاصة به فى كل شىء تقريباً ، فيما عدا الدين الذى يرى أنه ليس من الحكمة أن يكون فيه مبتكراً . وعلى حين أنجز عملاً ضخماً من أمهات الكتب فى الفلسفة يصرح بأن الفلسفة خطيرة ، وينصح قراءه بأن يتركوها وشأنها (٧٤) ، ويحتمل أنه قصد ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) واللاهوت ، أكثر مما قصد

الفلسفة بمعناها الأوسع ، كتحاوله لرؤية أحوال الإنسان من وجهة نظر أكثر شمولاً . إنه يتحدث في بعض الأحيان كما يتحدث أبسط امرأة عجوز في السوق ، فيسلم بالمعجزات والسحر ، و « العين الشريرة » ، والخواص الغامضة لحروف الهجاء ، ونبوءات الأحلام ، والأمعاء ، أو طيران الطيور (٧٥) . وهو مع ذلك يعجب بالعلوم ، ويقر بتفوق اليونان على المسلمين في هذا المضمار ، ويرثي لتدهور الدراسات العلمية في الإسلام (٧٦) . ويستنكر الكيمياء القديمة — ويعترف بشيء من الإيمان بالفلك (٧٧) .

وثمة سقطات معينة أخرى يجدر إيرادها . ذلك أنه على الرغم من ابن خلدون كان رحب الأفق ، قدر رحابة الإسلام ، إلا أنه شاطر الإسلام كثيراً من تحديدهاته ، فلم يجد في مجلدات « مقدمته الثلاثة » إلا سبع صفحات للكلام عن المسيحية . ولم يورد ذكر اليونان والرومان وأوروبا في العصور الوسطى إلا عرضاً . وعندما دون تاريخ شمال أفريقية ومصر الإسلامية والشرق الأدنى والأوسط ، اعتقد بذلك أنه قد روى « تاريخ الشعوب » (٧٨) . وهو في بعض الأحيان جاهل جهلاً معيباً يؤخذ عليه ، فيذهب إلى أن أرسطو كان يعلم من رواق وسقراط من دن (٧٩) . إن كتابته الفعلية في التاريخ تتخلف كثيراً عن مقدمته النظرية ، ومجلداته عن البربر والشرق عبارة عن سجل جاف موحش لأنساب الأسرات وتسلسلها ، ودسائس القصر ، والحروب الصغيرة . ومن الواضح أنه قصد أن تكون هذه المجلدات تاريخاً سياسياً فحسب ، وكتب المقدمة بوصفها تاريخاً للثقافة ، ولو أنها على الأرجح نظرة عامة في الثقافة .

ولكى نستعيد تقديرنا وإجلالنا لابن خلدون ، حري بنا أن نتساءل فقط عن أى عمل مسيحي فلسفي في القرن الرابع عشر يمكن أن يضارع « المقدمة » . وربما كان بعض المؤلفين القدامى قد تناولوا جانباً من هذا الميدان الذي طرقه ابن خلدون . وكان أحد أبناء جلدته ، وهو المسعودي (المتوفى ٩٥٦) قد

عالج في كتاب مفقود الآن ، تأثير الدين والاقتصاد والسلوك والبيئة على شخصية الشعب وقوانينه ، كما تناول أسباب الاضمحلال السياسي (٨٠) . ومهما يكن من أمر فقد أحس ابن خلدون ، وله بعض الحق ، أنه خاق علم الاجتماع . إننا لا نستطيع ، في أى أدب كان قبل القرن الثامن عشر ، العثور على فلسفة للتاريخ ، أو على منهج لعلم الاجتماع ، يمكن أن يبارى في قوته ومداه ودقة تحليله منهج ابن خلدون . إن رائد فلسفة التاريخ في عصرنا قد حكم على مقدمة ابن خلدون بأنها أعظم تأليف من نوعه أنتجه عقل بعد في أى زمان أو مكان (٨١) . وقد يقارن به كتاب هربرت سبنسر « مبادئ علم الاجتماع » ١٨٧٦ - ١٨٩٦ ، ولكن كان لسبنسر معاونون كثيرون . إننا على أية حال قد نتفق مع مؤلف ممتاز مشهور في تاريخ العاوم « على أن أهم مؤلف تاريخي في العصور الوسطى » (٨٢) هو مقدمة ابن خلدون .

الفصل الحادي والثلاثون

سليمان القانوني

١٥٢٠ - ١٥٦٦

١ - الإسلام في أفريقية : ١٢٠٠ - ١٥٦٦

إنه من العسير علينا ، نحن المحصورين في العالم المسيحي ، أن ندرك أنه منذ القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر ، كان الإسلام متفوقاً على أوروبا من النواحي الثقافية والسياسية والعسكرية . وحتى في أيام اضمحلاله في القرن السادس عشر ، ساد من دهمي وما وراءها حتى كازابلانكا ، ومن أدرنه إلى عدن ، ومن تونس إلى تمبوكتو . ويحدثنا ابن بطوطة الذي زار السودان ١٣٥٣ أنه وجد هناك حضارة مشرفة تحت راية الإسلام ، وكتب بعد ذلك مؤرخ من السود هو عبد الرحمن السعدي (١٦٥٠) ، تاريخاً كشفافاً بارعاً ، يصف مكتبات خاصة تضم ١٦٠٠ مجلد في تمبوكتو ، ويصف المساجد الضخمة التي تشهد أطلالها بمجد غابر .

وحققت أسرة الماريني (١١٩٥ - ١٢٧٠) . استقلال لبلاد المغرب ونهضت بفاس ومراكش إلى مصاف المدن الكبرى ، وكان في كل منهما مدخل جليلة ومساجد مهيبة ومكتبات عامرة بذخائر العلم والمعرفة ، ومدارس قائمة وسط أعمدة ظليلة ، وأسواق صاخبة يمكن أن يشتري المرء منها أي شيء بنصف الثمن . وكان يقطن فاس في القرن الثالث عشر نحو ١٢٥٠٠٠ نسمة ، وربما كان هذا أكبر من سكان أية مدينة في أوروبا ، باستثناء القسطنطينية ورومة وباريس . وفي مسجد القيروان وهو مقر أقدم جامعة في المغرب درس الدين والعلوم جنباً إلى جنب ، وقد جذبت هذه الجامعة إليها الطلبة المتعطشين من كل بقاع الإسلام في أفريقية ، والمعلمين

والمحامين ورجال الدين ورجال الحكم ، ليدرسوا مناهج شاقة لمدة .تترواح بين ثلاث سنين واثنتي عشرة سنة . وكان الأمير يعقوب الثاني الذي حكم بين ١٢٦٩ - ١٢٨٦ من فاس أو من مراکش ، من أكثر الأمراء استنارة في قرن تقدمي . وكان حاكماً عادلاً ومحسناً خيراً حكيماً ، لطف الدين بالفلسفة ، ونأى بنفسه عن التعصب الأعمى ، وشجع الاتصال الودي بالأوربيين . واستقبلت هاتان المدينتان كثيراً من اللاجئين من أسبانيا ، وأحضر هؤلاء معهم حوافز جديدة للاستزادة من العلوم والفنون والصناعة . وإن ابن بطوطة الذي كان قد رأى معظم العالم الإسلامي المتراء الأطراف ليسمى مراکش « جنة الدنيا » .

ويدهش السائح الحديث في طريقه من فاس إلى وهران ، عندما يجد في تلمسان بقايا متواضعة لما كان في القرن الثالث عشر مدينة تضم ١٢٥٠٠٠ نسمة . وكان بها ٦٤ مسجداً بقي منها ثلاثة فقط : الجامع الكبير (١١٣٦) ، ومسجد أبي الحسن (١٢٩٨) ومسجد الحلاوي (١٣٥٣) وهي من أجمل المساجد في العالم الإسلامي ، فيها أعمدة الرخام والفسيفساء المعقدة ، والمحاريب الرائعة ، الساحات ذوات العقود والخشب المحفور والمآذن السامقة ، وهي باقية لتكون شاهداً على العظمة الغابرة التي كادت أن تنسى . وهنا احتفظت أسرة عبد الواحد لمدة ثلاثة قرون (١٢٤٨ - ١٣٣٧ ، ١٣٥٩ - ١٥٥٣) بحكم كفل للمسيحيين واليهود الحرية الدينية ، كما رعت الآداب والفنون ، وبعد أن استولى الأتراك على المدينة ، فقدت أهميتها كمركز للتجارة ، واضمحلت وانزوت في ظلال التاريخ .

وإلى الشرق من المغرب ، ازدهرت الجزائر بفضل مزيج من التجارة والقرصنة . وقام ثغر الجزائر بالحمل ، نصف مختبئ في خليج زفاف دائري تحف به الصخور ، المؤلف من طبقات بعضها فوق بعض من شقق

وقصور تمتد من البحر المتوسط إلى كسبه ، نقول هياً هذا الثغر للقرصان ومراكبهم مخبأ آمناً مفضلاً لديهم ، وحتى منذ أيام بومبي كان قرصان هذا الشاطئ يغيرون على المراكب العزل . ومنذ ١٤٩٢ أصبحت الجزائر ملجأ للمغاربة المسلمين الفارين من أسبانيا . وقد التحق كثير منهم بسفن القراصنة ، وانقضوا بسورة الانتقام على أية سفن مسيحية يتربصون لها . وتضاعف عدد القرصان واشتدت جرأتهم ، فكونوا أساطيل قوية في مثل قوة الأساطيل الوطنية وأغاروا على الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط ، فردت أسبانيا على ذلك بحملات وقائية استولت على وهران والجزائر وطرابلس (١٥٠٩ — ١٥١٠) .

ودخل الميدان في ١٥١٦ قرصان جبار نشيط ، أطلق عليه الإيطاليون لقب بربروسه ، بسبب لحيته الحمراء ، واسمه الحقيقي خير الدين خضر . وكان يونانياً من لسبوس حضر مع أخيه هورش Horash لينخرط في سلك القرصان . وعلى حين وصل بنفسه إلى مرتبة القيادة في الأسطول ، قاد هورش جيشاً ضد الجزائر ، وطرد الحامية الأسبانية ونصب نفسه حاكماً على المدينة ، ومات أثناء القتال (١٥١٨) ، فاحتل خير الدين مكان أخيه ، وأدار شؤون الحكم بقوة ومهارة . وقصد خير الدين ، رغبة منه في تثبيت مركزه ، إلى القسطنطينية حيث عرض على السلطان سليم الأول السيادة على طرابلس وتونس والجزائر في مقابل قوة تركية كافية للاحتفاظ بسلطانه بوصفه حاكماً من قبل السلطان على هذه الأقاليم . ووافق سليم ، وأكد سليمان هذه الاتفاقية . وفي ١٥٣٣ أصبح خير الدين بطل الإسلام في الغرب بأن هياً لسبعين ألفاً من المغاربة العبور إلى أفريقية من أسبانيا القاسية غير المضيفة . ولما عين بربروسه أول قائد عام للأسطول التركي برمته ، أغار بأربع وثمانين سفينة تحت إمرته على المدينة تلو المدينة على شواطئ صقلية وإيطاليا ، وأسر آلافاً من المسيحيين بيعوا ببيع الرقيق . ورسا بربروسه قرب نابلي ،

وكاد ينجح في أسر جيوليا جنزوجا. كواونا التي اشتهرت بأنها أجمل سيدة في إيطاليا ، إلا أنها فرت شبه عارية ممتطية جواداً ، وبمعيتهما فارس واحد بوصفه حارساً لها ، فلما وصلت إلى المكان المقصود أمرت بإعدامه لأسباب أغفلت ذكرها ويمكن استنتاجها .

ولكن بربروسه كان يهدف إلى غنيمة أبقى على الأيام من سيدة جميلة ، فأنزل إلى البر جنوده الانكشارية ، وتقدم نحو تونس (١٥٣٤) . وكانت أسرة بنى النفيس قد حكمت تلك المدينة حكماً صالحاً منذ ١٣٢٦ ، وازدهرت الآداب والفنون تحت رعايتهم ، ولكن مولى حسن الذي كان أميراً آنذاك ، كان قد باعد بينه وبين الأهالي بوحشيته وقساوته ، وما أن اقترب بربروسه حتى لاذ الأمير بالفرار فسقطت تونس دون إراقة الدماء . وضمت إلى ملك آل عثمان ، وأصبح بربروسه سيد البحر المتوسط .

ووقع العالم المسيحي في محنة ثانية ، لأن الأسطول التركي كان يستطيع في أية لحظة أن يهيئ للإسلام الدخول إلى جنوب إيطاليا . ومن الغريب حقاً أن فرانسوا الأول (ملك فرنسا) كان متحالفاً إذ ذاك مع تركيا ، كما كان البابا كليمنت السابع حليفاً لفرنسا . ومن حسن الحظ أن كليمنت قضى نحبه (٢٥ سبتمبر ١٥٣٤) فخلفه البابا بول الثالث الذي تعهد لشارل الخامس بالمال اللازم لمهاجمة بربروسه ، وعرض أندريه دوريا تعاون أسطول جنوه تعاوناً كاملاً في هذه الحملة . وفي ربيع ١٥٣٥ جمع شارل الخامس في كاجلياري في سردينيا ٤٠٠ سفينة وقوة قوامها ثلاثون ألف رجل . وعبر البحر المتوسط ، وحاصر لاجولتا ، وهو حصن يسيطر على خليج تونس ، وسقط الحصن بعد قتال دام شهراً ، وتقدم الجيش الإمبراطوري نحو تونس . وحاول بربروسه وقف تقدمه ، ولكنه هزم ولاذ بالفرار . وحطم الأرقاء المسيحيون في تونس أغلالهم وفتحوا الأبواب ، ودخل شارل المدينة دون مقاومة ، وأباح لجنوده السلب

والنهب لمدة يومين ، حتى لا يتمردوا . فقتل آلاف من المسلمين حتفهم . ودمرت حصيلة قرون من الفنون في يوم أو يومين ، وحرر الأرقاء المسيحيون وسط مظاهر الابتهاج ، ووقع برائن العبودية من بقى من السكان المسلمين . وأعاد شارل الأمير مولى حسن كحاكم تابع يؤدي له الجزية ، وأبقى حامية في كل من بونا ولاجولتا ، وعاد هو إلى أوربا .

فر ببروسه إلى القسطنطينية ، وبنى بأموال من سليمان أسطولا جديدا مكرنا من مائتي سفينة . وفي يولية ١٥٣٧ ألفت هذه القوات مراسيها في تارنتو ، وضرب الحصار على العالم المسيحي ثانية . وتشكلت « العصابة المقدسة » من جديد من البندقية والبابوية والإمبراطورية ، وجمعت مائتي سفينة بعيدا عن كورفو، وفي ٢٧ سبتمبر اشتبك الأسطولان المتصارعان في القتال عند مدخل خليج أمبراسيا ، في نفس المياه التي التقى فيها أنطونيوس وكليوباترة مع أكتافيوس في معركة أكتيوم . وكانت الغلبة لبربروسه ، وأصبح مرة أخرى سيد البحار ، وسار شرقاً واستولى في طريقه على ممتلكات البندقية في بحر إيجه واليونان بعضها إثر بعض ، وأرغم البندقية على عقد صلح منفرد .

وحاول شارل أن يكسب ببروسه اللاتحاق بخدمته بما أغدق عليه من هدايا ، وبما عرض عليه من أن يكون ملكاً نابعاً له على شمالي أفريقية ، ولكن خير الدين آثر جانب الإسلام وإغراءه . وفي أكتوبر ١٥٤١ قاد شارل وهوريا حملة ضد الجزائر ، ولكن جيش ببروسه أوقع بها الهزيمة في البر كما هبت عليها عاصفة مدمرة في البحر ، ورد ببروسه على العدوان بالمثل ، بالإغارة على كالابريا والنزول في أوستيا ثغر مدينة رومه ، وارتعدت العاصمة الكبيرة في عقر دارها فرقاً ، ولكن بول الثالث كان آنذاك على علاقات حسنة مع فرانسوا فعوض ببروسه ، ادعاء بمجاملة حليفه عن كل ما أخذه من أوستيا نقداً ، ورحل عنها في سلام^(١) : وأبحر إلى طولون ،

حيث لقي أسطول له ترحيباً ممن كانوا في الواقع فرنسيين ، وطلب أن تكف أجراس الكنيسة عن القرع طالما كانت « سفن الله » في الميناء لأن أصواتها تقض مضجعه ، وكان مطلبه قانوناً . واشترك مع أسطول فرنسي في الاستيلاء على نيس وفيانفرانش من الإمبراطور . وفي سن السابعة والسبعين اعتزل القرصان المنتصر الظافر تحيط به كل مظاهر الإجلال والتكريم ، ليقتضى نحوه في فراشه ١٥٤٦ ، وقد بلغ الثمانين .

وسقطت بونا ولاجولتا ثانية في أيدي المسلمين . ووصلت الإمبراطورية العثمانية من الجزائر إلى بغداد . ولم تجرؤ سوى دولة إسلامية واحدة على تحدى سيطرتها على العالم الإسلامي .

٢ - فارس تحت حكم الصفويين

١٥٠٢ - ١٥٧٦

إن بلاد فارس التي كانت قد نعمت بفترات كثيرة من الحصب الثقافي ، كانت الآن تمر بحتمبة أخرى من الحيوية السياسية والابداع الفني . وعندما أسس الشاه إسماعيل الأول الأسرة الصفوية (١٥٠٢ - ١٧٣٦) كانت فارس تعاني فوضى التمزق بين ماوك ضعاف ، فكان العراق ويزد وسافان وفيروزكه ودياربكر وكاشان وخراسان وقندهار وبلخ وكرمان وأذربيجان ، كلها ولايات مستقلة بعضها عن بعض . وفي حملات جبارة لا ترحم ، غزا إسماعيل أمير أذربيجان معظم هذه الإمارات واستولى على هراة وبغداد ، وجعل ثانية من تبريز عاصمة لمملكة قوية . ورحب الناس بهذه الأمرة من بنى جلدتهم ، تلك الأسرة التي تألق مجدها فيما أسبغت على البلاد من وحدة وقوة ، وعبروا عما يحتاج في نفوسهم ببعث جديد للفن الفارسي .

إن لارتقاء إسماعيل إلى الملك قصة لا تصدق ، ذلك أنه كان في سن الثالثة عندما مات أبوه (١٤٩٠) ، وفي الثالثة عشرة شرع يكسب لنفسه عرشاً ، وفي نفس السن لبس التاج وصار شاه فارس . ويصفه المعاصرون

بأنه « شجاع مثل ديك المصارعة الصغير » ، « نشيط رشيق مثل الساطير »
 (من آلهة الغابات عند الإغريق له ذيل وأذنا فرس) ، قوى عريض
 المتكبين ، ذو شوارب رهيبة ، وشعر أحمر براق : وكان يستخدم بهراة
 سيفاً جباراً بيده اليسرى . وكان فى الرمى بالقوس أوديسيوس آخر ، يصيب
 بقوسه سبع تفاحات من عشر مرصوصة على صف واحد (٢) . ويروى أنه كان
 « أنيساً لطيفاً كالبنات » ، ولكنه قتل أمه (أو زوجة أبيه) ، كما أمر
 بإعدام ٣٠٠ من المومسات فى تبريز ، وذبح الآلاف من الأعداء (٣) . وقال
 سائح هندي إنه كان محبوباً لدى الشعب حتى « نسي اسم الله » فى فارس ولم
 يذكر إلا اسم إسماعيل وحده (٤) .

وكن سر نجاح إسماعيل فى الدين والحرأة . وكان المذهب الشيعى هو
 السائد فى فارس ، أى « أشيع » على ، صهر محمد أو زوج ابنته ، ولم
 يعترف الشيعة بخلفاء شرعيين غير على وخلفائه الاثنى عشر زهم « الأئمة » ،
 ولما كان الدين والحكومة غير منفصلين فى الإسلام ، فإن لمثل هذا الخليفة ،
 طبقاً لهذه النظرية حقاً إلهياً فى الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية . وكما
 اعتقد المسيحيون أن المسيح سوف يعود ليؤسس مملكته على الأرض ، كذلك
 اعتقد الشيعة أن الإمام الثانى عشر — محمد بن الحسن — لم يميت قط ، وأنه
 سوف يظهر من جديد فى يوم من الأيام ليقم حكمه المبارك على الأرض .
 وكما أدان البروتستانت الكاثوليك بأنهم ارتضوا التقاليد جنباً إلى جنب مع
 الكتاب المقدس كدليل أو مرشد إلى العقيدة الصحيحة ، كذلك اتهم الشيعة
 أهل السنة — وهم الغالبية الذين يعتنقون العقيدة الإسلامية الصحيحة ، الذين
 وجدوا أن الطريق المستقيم ليس فى القرآن وحده بل كذلك فى كل ما أتى
 الرسول كما جاء فى تقاليد أصحابه وأتباعه . وكما ترك البروتستانت الصلاة على
 القديسين وأغلقوا الأديرة ، لم يشجع الشيعة التصوف وأغلقوا أروقة
 الدراويش ، التى كانت مثل أديار أوربا فى بدايتها ، مراكز لكرم الضيافة

والبر والإحسان هـ وكما أطلق البروتستانت على مذهبهم اسم « الدين الحق » ، اتخذ الشيعة اسم « المؤمنين »^(٥) (المعتقدون الحقيقيون) . ولا يؤاكل الشيعة المتمسك بمذهبه سنياً أبداً ، وإذا وقع ظل مسيحي على طعام شيعي وجب أن ينبذ الطعام على أنه دنس (*) (٦) .

وادعى إسماعيل أنه من نسل الإمام السابع « صفى الدين » (نقاء العقيدة) ، وباسمه سميت الأسرة الجديدة . وأعلن إسماعيل أن المذهب الشيعي هو المذهب الوطني والرسمي لفارس ، وأنه الراية المقدسة التي حارب في ظاهها ، ومن ثم وحد قومه في إخلاص يتسم بالتقى والورع ضد المسلمين السنيين الذين طوقوا فارس — الأوزبك والأفغان في الشرق ، والعرب والأتراك والمصريين في الغرب . ونجحت خطته . وكان شعبه يعبد على أنه قديس (ولى من أولياء الله الصالحين) ، وكان رعاياه يثقون في قوته الإلهية لحمايتهم ، إلى حد أن بعضهم رفض أن يلبس الدرع في المعركة (٧) .

وما أن فاز إسماعيل بهذا السند المتهب حماسة — وهو الشعب — حتى أحس أنه من القوة بحيث يستطيع أن يتحدى جيرانه . وكان الأوزبك الذين حكموا بلاد ما وراء النهر ، قد بسطوا سلطانهم حتى خراسان ، فانزع منهم هراة وطردهم من فارس ، ولما اطمأن إلى سلامته في الشرق ولى وجهه شطر الغرب ضد العثمانيين . واضطهد كل من الطرفين الآخر آنذاك بقوة مقدسة . وقيل في رواية غير موثوقة إن السلطان سليماً قتل أو سجن ، قبل الذهاب إلى القتال (١٥١٤) ، أربعين ألفاً من الشيعة في نطاق مملكته ، وإن إسماعيل شنق بعض السنيين الذين كانوا يشكلون الغالبية في تبريز ، وأمر الباقين بأن يرتلوا يومياً أدعية يلعنون فيها الخلفاء الثلاثة الأولين على

(*) تلك مبالغات من المراف ، أثبتناها بمجرد الأمانة في النقل ، ولعل القارىء لا يميزها

التفاتها . (المترجم)

اعتبار أنهم اغتصبوا حق علي في الخلافة . ومهما يكن من أمر ، فإن
الفرس وجدوا الشيعة في معركة جالديران عاجزين أمام مدفعية سليم
العبوس وجنده الانكشارية . واستولى سلطان العثمانيين على تبريز ، وأنضغ
شمالى أرض الجزيرة (١٥١٦) ، ولكن جيوشه تمردت ، فتهقر وعاد
إسماعيل إلى عاصمة ملكه تحف به كل عظمة ومجد يمكن أن يحاط بهما ملك
عسكرى . وانحط الأدب أثناء حكمه المضطرب القاق ، ولكن الفن ازدهر
تحت رعايته ، فقد كان يرعى المصور بهزاد ، وقدر أنه يساوى نصف
فارس (٨) . ومات إسماعيل في سن الثامنة والثلاثين ، بعد أن قضى في الحكم ٢٤
عاماً . وخلف عرشه لابنه البالغ من العمر عشر سنوات ١٥٢٤ .

وكان الشاه طهماسب الأول ضعيف الإيمان جباناً ، سوداوى المزاج
كثيراً مترفاً منغمساً في اللذات ، وقاضياً خشنا ، يرعى الفنون ويمارسها ،
شيعياً تقياً ، كما كان معبود شعبه ، وربما تحلى ببعض فضائل أخفهاها عن
عيون التاريخ . إن التوكيد المستمر على الدين أرباك الحكومة كما قواها ،
وذلك أنه من أجل الدين شنت الحرب اثنى عشرة مرة ، وظل العالم
الإسلامى في الشرقين الأدنى والأوسط ممزقا متنازلاً من ١٥٠٨ إلى ١٦٣٨ ،
وأفاد العالم المسيحى من هذه الفرقة ، حيث انقطع سليمان القانونى عن شن
هجماته على الغرب ، ووجه حملاته نحو فارس . وفى ذلك كتب سفير
فرديناند فى القسطنطينية يقول : « إن فارس هى التى تقف حائلاً بيننا
وبين الدمار » (٩) . وفى ١٥٣٣ قاد الوزير الأكبر إبراهيم باشا جيشاً
تركياً نحو أذربيجان ، واستولى فى طريقه على الحصون الواحد تلو الآخر ،
بتقديم الرشوة إلى القواد الفرس ، وأخيراً استولى على تبريز وبغداد دون
أن يضرب ضربة واحدة (١٥٣٤) . وبعد أربع عشرة سنة ، وفى أثناء
هدنة مع فرديناند ، قاد سليمان جيشاً آخر ضد « الرءوس الحمراء
الوضيعة » (وهو الاسم الذى أطلقه الاتراك على الفرس) ، وانتزع

إحدى وثلاثين مدينة ، ثم استأنف هجماته على العالم المسيحي . وفيما بين عامي ١٥٢٥ ، ١٥٤٥ ، عاود شارل المفاوضة مع فارس البرة بعد المرة ، بافراض التنسيق بين المسيحيين والفرس للوقوف في وجه سليمان . وابتهج الغرب حين تولت فارس الهجوم وانتزعت أرضروم . ولكن سليمان عاد في ١٥٥٤ واكتسح مساحات كبيرة من فارس ، وأرغم طهماسب على عقد صلح بقيت مقتضاه بغداد والقسم الأدنى من أرض الجزيرة تحت حكم الأتراك .

وثمة شيء أكثر إمتاعاً من هذه الصراعات الكثيثة تلك هي الرحلات البحرية المغامرة التي قام بها أنطوني جنكنسون إلى بلاد ما وراء النهر وفارس ، بحثاً عن طريق برى إلى الهند والصين ، وكان مسلك إيفان الرهيب في هذا الموضوع لطيفاً ودياً ، فقد رحب بجنكنسون في موسكو ، وبعث به سفيراً له لدى حكام الأوزبك في بخاري ، ووافق على السماح بدخول البضائع الإنجليزية إلى روسيا معفاة من الرسوم الجمركية ، ومرورها في نهر الفولجا عبر بحر قزوين . وكتبت للرحالة النجاة من عاصفة هوجاء في هذا البحر ، واصل بعدها الرحلة إلى فارس ووصل إلى قزوين سنة ١٥٦١ . وهناك سلم طهماسب رسائل التحية من ملكة بعيدة ، بدا للفرس أنها سيدة قليلة الشأن تحكم قوما من الهمج ، وكان الفرس ميالين إلى عقد اتفاقية تجارية ، ولكنهم عندما أعلن جنكنسون أنه مسيحي ، أمره بمغادرة البلاد ، قائلين : « ليس بنا من حاجة إلى مصادقة الكفار » . وبعد أن انصرف من حضرة الشاه ، جاء أحد الخدم فغطى بالرطل المطهر آثار أقدام المسيحي التي دنست قصر الشيعة (١٠) .

وبموت طهماسب (١٥٧٦) انقضت أطول فترة حكم لأي من الحكام المسلمين عدا واحدا . ولكنها فترة من أشد الفترات امعلاء بالنكبات . ولم يتميز هذا العهد بأية آداب يعتز بها الفرس في ذاكرتهم ، إذا لم تستثن

مذكرات بابر Babur الذى أبعد عن بلده . ولكن الفن على عهد الصفويين ، ولو أنه سيبلغ ذروته متأخرا عنهم ، بدأ فى هذين العهدين (عهد إسماعيل وابنه) ينتج أعمالا تتسم بالعظمة والتألق والنقاوة التى تميزت بها منتجات فارس الغنية لمدة اثنين وعشرين قرنا . وقد أبرزت مقبرة « هارون الولاية » فى اصفهان كل ما أودع فى الرسم الكلاسيكى الفارسى من دقة ورقة ، وأزهى الألوان ، ونقطيع الفسيفساء الخزفية المزخرفة . كما توج بوابة مسجد الجمعة الكبير نصف قبة معقدة . وأسس كذلك فى هذا العصر فى شيراز « مسجد جامع » آخر ، ولكن الزمن لم يبق على شىء منه .

وثمة أمثلة كثيرة دلت على أن أشغال التذهيب الدقيقة والخط صمدت على تعاقب الزمن أكثر مما صمدت آثار العمارة ، وبرزت العناية التى بذلها المسلمون فى إخراج الكتاب (المخطوطات) حتى كادت تجعل منه معبوداً يحوطه الإجلال والحب . إن العرب الذين كانوا فخوريين بكل شىء افتتنوا افتتانا مستساغاً مغفوراً لهم بحروف الهجاء عندهم ، تلك التى وهبت لهم من نفسها سطوراً من جمال حسى ، فالفرس ، فوق كل شىء جعلوا من الخط فناً لتزيين محاريب مساجدهم وأبوابهم ، والمعادن التى يصنعون منها أسلحتهم ، والنمخار الذين يصنعون منه أعمال الخزف ، ونسج سجاجيدهم ، ثم المصاحف ودواوين الشعراء ، وكل أولئك تعزز به الأجيال على أنه متعة للعين وبهجة للنفوس . أما خط « النستعليق » (* Nastaliq :

(*) للخط العربى أسلوبان رئيسيان هما الكوفى والنسخ . عرفهما المسلمون فى القرن السابع الميلادى وهو مبدأ التاريخ الإسلامى . وأدخل على هذين النوعين بعض التعديل على مر العصور فى بعض أنحاء العالم الإسلامى ، وظهر فى القرن الثالث عشر الميلادى فى إيران نوع من الخط يعرف بالنستعليق ومن تميزاته ميل حروفه من اليمين إلى اليسار فى اتجاهها من أعلى إلى =

(أو الخط المائل) الذي كان قد ازدهر في عهد التيموريين في تبريز وهرارة وسمرقند ، فقد عاد إلى تبريز على عهد الصفويين ، وذهب معهم إلى اصفهان . وكما ضم المسجد عديداً من الفنون بعضها إلى بعض ، كذلك جمع الكتاب بين الشاعر والخطاط ورسام المنمنمات والمجلد (الذي يقوم بالتجليد) في تعاون يتسم بالتفاني والإخلاص والورع .

وظل فن التذهيب مزدهراً في بخارى وهرارة وشيراز وتبريز . ويضم متحف الفنون الجميلة في بوسطن مخطوطة رائعة لشاهنامة الفردوسي ، بإمضاء عراجي محمد القوام الشيرازي (١٥٥٢) ، وفي متحف كليفلاند نسخة أخرى من عمل مشهدي الكاتب (١٥٣٨) ، ويضم متحف المتروبوليتان للفن في نيويورك نموذجاً من أروع نماذج التذهيب والخط في تبريز ، وهي صحيفة العنوان في مخطوطة «المنظومات الخمس» لنظامي (١٥٢٥) . وانتقل مركز التذهيب الإسلامي إلى تبريز حين اختارها بهزاد مقرأً له (١٥١٠) . وفي أثناء معركة جالديران خبأ الشاه إسماعيل الصفوي المصور بهزاد والخطاط محمود النيسابوري في كهف ، بوصفهما أئمن ما يمكن أن يقتنى (١) . ورسم أقاميرك ، تلميذ بهزاد ، في تبريز واحدة من أروع المنمنمات في هذا العصر ، وهي صورة «تتويج خسرو وشيرين» (١٥٣٩) وهي محفوظة الآن في المتحف البريطاني . وعلم ميرك بدوره الفن لتميذه «سلطان محمد نور الذي ولد في أسرة غنية ، ولكنه تجاهل حقيقة أن لديه من الوسائل ما يستطيع معها أن يكون لاهياً تافهاً ، فأصبح

= أسفل . وابتكر الخطاط مير علي التبريزي في القرن الخامس عشر «الستعليق» يحتفظ بمميزات الفسخ والتعليق معاً . وهو نوع أكثر رشاقة من غيره من الخطوط «من كتاب الفنون الإسلامية لمؤلفه م . س ديماند ، ترجمة أحمد عيسى ص ٧٦ - ٨٦ ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٤» . (المترجم)

« اللؤلؤة التي لا تقدر بثمن » في بلاط شاه طهماسب لأنه فاق كل أهل زمانه في الخط والتذهيب ، وفي تصميم أغلفة الكتب والسجاجيد ، وفيما بين عامي ١٥٣٩ و ١٥٤٣ نسخ مخطوطة المنظومات الخمس لنظامي ووضحها بالرسوم ، وثمة صفحة رائعة في المتحف البريطاني تمثل الملك خسرو ممتطياً صهوة جواد قرنفل اللون ، وهو ينعم النظر وسط نقوش النباتات والزهور ذوات اللون الأخضر والأسمر والذهب ، إلى شيرين وهي نصف عارية تستحم في بركة فضية . وثمة صورة أروع وأزهى ألواناً ، للرسول وقد أسرى به في السموات السبع على حصانه المجنح « البراق » (ليزور الجنة والنار ! هكذا في النص الإنجليزي !) والأشكال عبارة عن جمال مجسم ، ولكن المصور تعتمد لأسباب دينية ، ألا يكون بها تقاطيع مميزة فردية ، فقد كان الفنان مهتماً بالزخرفة أكثر منه بالتشخيص ، وبالجمال الذي يكون موضع التقدير والاحترام ، وهو جمال يمكن الوصول إليه أحياناً إذا كان ذاتياً أو شخصياً ، أيسر من الوصول إلى الحقيقة التي تفلت دائماً إذا كانت موضوعية . وقد بلغ التذهيب ذروته في هذه المنمنمات .

وحظيت المنسوجات والسجاجيد بمثل هذه العناية المحببة إلى النفس . ولم يبق شيء من منسوجات هذه العهود ، ولكن المنمنمات تصورهما . وتفوق مصمموا السجاد وعماله المهرة في عهد الصفويين . وبدأ أن السجاد عنصر أساسي في حضارة الإسلام . ولم يجلس المسلمون أو يأكلوا على الكراسي ، ولكن على الأرض المفروشة بالسجاد . وهناك سجادة خاصة للصلاة عليها في العادة رموز دينية وآيات قرآنية ، يسجد عليها المسلمون في صلواتهم . وكانت السجاجيد مفضلة كهدايا للأصدقاء أو الملوك أو المساجد ، ولذلك أهدى شاه طهماسب عشرين سجادة كبيرة وكثيراً من السجاجيد الصغيرة من الحرير والذهب إلى السلطان سليم الثاني عند ارتقائه عرش آل عثمان ١٥٦٦ . وثمة معالم مميزة من التصميم حددت سجادة هذا

العصر ، وكأنها بستان ، ففيها رسوم النباتات والأزهار ، ومناظر الصيد والزهریات والرسوم المضلعة والمشجرة أو الرسوم النافرة أو البارزة ، وحول هذه الأشكال الأساسية توجد الزخرفة العربية المتعرجة ، مع أشرطة السحب المستمدة من الفن الصيني ، ورموز ذات معان سرية لدى مبتكرها ، وحيوانات تمثل نمط الحياة ، ونباتات وزهور تعطي أريجاً ممثلاً في خيوط ، وطابعاً بهيجاً ، وسرى في هذا الكل المعقد منطق فني ، أو تناغم طباقى في الخيوط أدق من موسيقى بالسترينا (ملحن موسيقى دينية في إيطاليا في القرن السادس عشر) وأجمل من شعر جوديفا(*) .

ويعود تاريخ بعض القطع المشهورة الباقية حتى الآن من السجاد الإيراني إلى هذا النصف الأول من القرن السادس عشر . وإحداها ذات رسوم بارزة ، ويحيط بها ثلاثون مليون عقيدة من المصوف على سداة من الحرير (٣٨٠ عقيدة في البوصة المربعة) ، ظلت مفروشة لعدة قرون في أحد مساجد أردبيل ، وهى الآن موزعة بين متحف فيكتوريا وألبرت في لندن ومتحف لوس أنجلوس . وفي أحد أطرافها خرطوشة كتب عليها بيت من شعر حافظ ، وتحت عبارة الفخر : « من صنع العبد . . . مقصود الكاشانى في سنة ٩٤٦ هجرية » ، أى ١٥٣٩ م (١٢) . كذلك يوجد في متحف لوس أنجلوس « بساط التتويج » الهائل الذى استخدم في تتويج إدوارد السابع ١٩٠١ . وكان من بين أعظم النفائس في متحف بوالدى بتزوللى في ميلان ، قبل تدميره في الحرب العالمية الثانية ، سجادة بها مناظر صيد من صنع غياث الدين جامى من مدينة يزد ، وهو الذى يحتل في رسوم السجاد مكانة بهزاد في المنمنمات .

(*) تقول أسطورة إنجليزية إن Godiva طلبت من زوجها لورد كوفنترى فع الضرائب الباذخة التي يشكو منها الأهالى . فاشتراط لتحقيق مطلبها أن تمشى جواداً وتسير به في سوق البلدة وحى عارية ، لا يغطى جسدها إلا شعرها . (دائرة المعارف البريطانية) (المترجم)

أما سجادة « دوق أنهالت » في مجموعة دوفين فقد حظيت بشهرة عالمية بأرضيتها الذهبية الصفراء : مع زخرفة عربية رائعة ذات الألوان القرمزية والوردى والأزرق الفيروزي . إن السجاد والكتاب من أعظم المميزات التي تميزت بها فارس على عهد الصفويين وهي مميزات لا يستطيع أن يتحداها أو يمارى فيها أحد ، وهي تحتل في ذاكرة الجنس البشرى مكانة رقيقة .

٣ - سليمان القانوني والغرب

خلف سليمان القانوني أباه سليم الأول في ١٥٢٠ ، وهو إذ ذاك في سن السادسة والعشرين . وقد كسب لنفسه شهرة لشجاعته في القتال وكرمه في صداقته ، وقدرته في إدارة الولايات التركية . وهيات له تقاطيعه المليحة وسلوكه المذهب أن يقابل بالترحيب في القسطنطينية التي شقيت بسليم العيوس ، ووصفه إيطالي رآه عقب توليه العرش مباشرة بأنه طويل نحيل قوى ، ذو عنق طويل جداً ، وأنف متقوس جداً ولحية وشوارب خفيفة ، وبشرة شاحبة رقيقة ، ووجه صارم هادئ ، وبدا وكأنه طالب أكثر منه سلطان (١٣) . ووصفه إيطالي آخر بعد ثمانى سنوات بأنه « شاحب إلى حد رهيب مكتئب ، زير نساء عجول ، ومع ذلك فهو في بعض الأحيان وديع مذهب » . أما غسليين دي بوسبك Ghislain de Busbeq سفير آل هابسبرج لدى الباب العالي ، فقد وصف بطريقة تكاد تكون ودية رقيقة أعداء آل هابسبرج فقال :

« لقد كان له دائماً طابع الرجل الحذر اليقظ المعتدل . وحتى في بواكير أيامه ، حين كانت قواعد الحكم في تركيا تميز الصنف عن الخطايا ، لم يكن

في حياته ما يعاب عليه ، لأنه حتى في أيام شبابه لم يدمن على الخمر ، ولم يقترب أياً من الجرائم غير الطبيعية التي كانت شائعة بين الأتراك ، ولم يستطيع أولئك الذين جنحوا إلى تشويه أعماله وتصرفاته أن يلدسوا ضده شيئاً أسوأ من إفراطه في حب زوجته ومن الحقائق المعروفة جيداً أنه منذ اتخذ منها حليمة شرعية ، كان مخلصاً لها كل الإخلاص ، برغم أنه لا يوجد في القوانين ما يمنع من اتخاذ خليات كذلك (١٤) .

إنه وصف جدير بالملاحظة ، ولكنه يقسم بالملق الشديد . ولا ريب في أن سليمان كان أعظم وأنبل سلاطين آل عثمان ، وأنه كان يضارع أى حاكم في عصره من حيث الكفاية والحكمة والخلق ، ولكننا سوف نراه بين الحين والحين موصوماً بالقسوة والحقد والانتقام . ومهما يكن من أمر ، فلنبداً على سبيل التجربة ، بالنظر إلى صراعه مع العالم المسيحي .

طال أمد الصراع العسكري بين المسيحية والإسلام آنذاك نحو ٩٠٠ سنة . فقد بدأ حين انتزع العرب المسلمون سوريا من الإمبراطورية البيزنطية (٦٣٤) . واستمر سنة بعد سنة : غزا فيها العرب المسلمون هذه الإمبراطورية ، كما غزا فيها المغاربة المسلمون ألبانيا . وثأر العالم المسيحي لهذا الغزو ، وفي الحروب الصليبية التي غطى فيها الطرفان أطماعهما الاقتصادية وجرائمهما السياسية بسمار من شعارات دينية وحماس ديني ، انتقم المسلمون بالاستيلاء على القسطنطينية والبلقان وطردت ألبانيا المغاربة . ودعا البابوات الواحد تلو الآخر إلى شن حملات صليبية جديدة ضد الأتراك ، كما أقسم سليم الأول أن يشيد مسجداً في قلب رومه . واقترح فرانسوا الأول على الدول

الغربية أن تقضى على دولة الأتراك قضاء مبرماً ، وتقتسم ممتلكاتها فيما بينها ، باعتبارها غنائم من الكفار (١٥) . وأدبظ هذه الخطة انقسام ألمانيا في الحروب الدينية ، وثررة الكوميونات (الوحدات الإدارية) الأسباب ضد شارل الخامس ، ونكوص فرانسوا الأول نفسه عن اقتراحه وتفكيره من جديد في التماس العون من سليمان ضد شارل . وربما كان لوثر قد أنقذ سليمان ، كما كانت اللوثرية مدينة له بفضل كبير .

إن كل حكومة تكافح لتوسيع رقعتها ، لتزيد من مواردها ودخولها من جهة ، وإيجاد أرض حاجزة حامية بين حدودها وعاصمتها من جهة أخرى . وارتأى سليمان أن أحسن وسيلة الدفاع هي الهجوم ، فاستولى على معقل المجر في ساباكس وبلغراد ، ولما شعر بالاطمئنان والأمن في الغرب ، وجه قواته ضد رودس حيث احتفظ المسيحيون هناك تحت حكم فرسان القديس يوحنا ، بقاعة منيعة تقع مباشرة على الطرق المؤدية من القسطنطينية إلى الإسكندرية وسوريا ، وبدا لسليمان أن هذا معقل خطير أجنبي في بحر هو بسون هذا المعقل بحر تركي ، وألحق أن سفن القرصنة عند الفرسان انقضت على تجارة المسلمين في أحد طرفي البحر المتوسط (١٦) ، كما انقضت قرصنة المسلمين على تجارة المسيحيين في الطرف الآخر . وكان مصير المسلمين الذبح إذا أسره الفرسان في محلاتهم (١٧) . كما اعترض الفرسان طريق السفن التي تنقل الحجاج إلى مكة ، إذا ساورهم الشك في أن لها أغراضاً عدائية . ويقول مؤرخ مسيحي : « على أي الأحوال لم يكن سليمان بحاجة إلى ما يبرر الهجوم على رودس » (١٨) . ويضيف مؤرخ إنجليزي مشهور إلى هذا قوله : « كان من مصلحة النظام العام أن تضم الجزيرة إلى مملكة الأتراك » (١٩) .

وشن سليمان هجومه ومعه ثلثمائة سفينة وثلثمائة ألف رجل . واستمر المدافعون عن الجزيرة بقيادة رئيسهم الأكبر العمجوز فيليب دي فيليرز دي ليل — آدم (Phiippe de Villiers de L'ile-Adam) ، يقاتلون محاصريهم

لمدة ١٤٥ يوماً ، وأخيراً استسلموا بشروط مشرفة ، منها أن يغادر الفرسان وجنودهم الجزيرة في أمان ، كما يكون ، في مدى عشرة أيام ، للسكان الباقين الحرية الدينية الكاملة ، مع إعفائهم من الجزية لمدة خمس سنوات ، وفي يوم عيد الميلاد طلب سليمان أن يرى فيليب ، فواساه وامتدح دفاعه الباسل ونفحه هدايا ثمينة ، كما أبدى السلطان لوزيره إبراهيم : « أنه أسف أشد الأسف لاضطراره إلى إرغام هذا المسيحي على أن يغادر في شيخوخته وطنه وممتلكاته (٢٠) . وفي أول يناير ١٥٢٣ أبحر فرسان القديس يوحنا إلى جزيرة كريت ، ثم غادروها بعد ثمانى سنين إلى وطن أكثر دواماً في مالطه . ولطخ سليمان انتصاره بإعدام ابن الأمير جم وحفدته الأطفال لأنهم اعتنقوا المسيحية ، وقد يستخدمون ، كما استخدم جم ، في المطالبة بالعرش العثماني .

وفي أوائل سنة ١٥٢٥ ، تلقى السلطان سليمان كتاباً من فرنسوا الأول ، كما استقبل أسيراً من لدن شارل الخامس ، يطلبان منه مهاجمة المجر ، والإسراع إلى نجدة ملك فرنسا . فأجاب السلطان : « إن جوادنا مسرج ، وسيفنا معاق به » (٢١) . إنه على أية حال كان عازماً على غزو المجر منذ زمن طويل . فسار في أبريل ١٥٢٦ بجيش قوامه مائة ألف رجل وثلاثمائة مدفع : وحث البابا كليمنت السابع الحكام المسيحيين ليهبوا لمساعدة الدولة المهددة ، على حين نصح لوثر الأمراء البروتستانت أن يلزموا أوطانهم ؛ لأن من الواضح أن الأتراك زوار من عند الله ، ومقاومتهم هي بمثابة مقاومة الله (٢٢) . وبقي شارل الخامس في أسبانيا . وكان من نتيجة ذلك هزيمة المجر في معركة موهاكز ، وكانت للعالم المسيحي هزيمة أدبية ومادية في وقت معاً ، وكان من الممكن استرداد المجر لو تعاون الكاثوليك والبروتستانت ، والإمبراطور والبابا في العمل معاً . ولكن الزعماء اللوثرين ابتهجوا بفوز الأتراك . ونهب جيش الإمبراطور رومة :

وفي ١٥٢٩ عاد سليمان فحاصر فيينا بمائتي ألف رجل . ومن برج

سانت ستيفن استطاع كونت نيقولا فون سالم الذى عهد إليه فرديناند بالدفاع عن المدينة — أن يرى السهول والتلال المحيطة بها مغطاة بخيام العثمانيين وجندهم وأسلحتهم . وفي هذه المرة دعا لوثر أتباعه ليشاركوا في المقاومة ، لأن من الواضح أنه إذا سقطت فيينا ، ستكون ألمانيا هي الهدف الثاني لهجوم العثمانيين . وذاعت الأنباء في كل أنحاء أوروبا أن سليمان أقسم أن يخضع كل أوروبا للعقيدة الوحيدة الصحيحة وهي الإسلام . وشق مهندسو الألغام الأتراك الخنادق ، الواحد بعد الآخر ، على أمل نسف الأسوار أو إحداث الانفجارات داخل المدينة ، ولكن المدافعين وضعوا أوعية من الماء في مواطن الخطر (٢٣) ، وراقبوا الحركات التي قد تدل على العمليات الخفية تحت الأرض . وأقبل الشتاء وعجز خط مواصلات الأتراك الطويل عن توفير المؤن . وفي ١٤ أكتوبر أهاب السلطان برجاله أن يبذلوا محاولة أخيرة حاسمة . ووعده بجوائز ومكافآت سخية ، ولكن الأرواح والأجسام معاً كانت كارهة غير راغبة ، وصدد الهجوم مع خسائر فادحة ، وأمر سليمان بالتقهقر ، وقد ملأه الحزن . وكانت أول هزيمة يلقاها ، ولو أنه احتفظ بنصف الخبز ، وحمل معه إلى القسطنطينية تاج سانت ستيفن ، وفسر سليمان لشعبه أنه عاد دون أن ينتصر لأن فرديناند (الذى قبع طيلة الحصار آمناً في براج) كان قد رفض أن يحارب ، ووعده السلطان بأنه قريباً جداً سوف يصيد شارل ذاته ، الذى تجاسر على أن يسمى نفسه إمبراطوراً ، وينزع منه بالقوة السيادة على الغرب .

ونظر الغرب إلى السلطان ووعيده بعين الجدد ، وساد الذعر رومه . وفرض البابا كليمنت السابع ، الذى كان وطيد العزم لأول مرة ، الضرائب حتى على الكرادلة ، لتوفير المال اللازم لتحصين أنكونا وسائر الثغور التي يمكن أن يدخل منها العثمانيون إلى إيطاليا .

وفي أول أبريل ١٥٣٢ تقدم سليمان نحو الغرب مرة أخرى . وكانت

مغادرته العاصمة مشهداً أحسن إخراجاً ، فكان يتقدم المسيرة ١٢٠ مدفعاً ، يتبعها ٨٠٠٠ من الانكشارية وهم خيرة جنود المملكة ، وسار بعد ذلك ألف رجل تحمل المؤن ، وألفان من صفوف الحياالة لحراسة الراية المقدسة — نسر الرسول — يتبعهم آلاف من أبناء الأسرى المسيحيين يرتدون ملابس من ذهب ، وقبعات حمراء مزودة بالريش ، يلوحون مزهوين بالحرايب في شجاعة بريئة ، أما حاشية الملك وحرسه فكانوا رجالاً أشداء ذوي طلعة جبهة ، وامتطى السلطان بينهم جواداً كستنائى اللون مردياً القטיפمة القرمزية الموشاة بالذهب تحت عمامة بيضاء مرصعة بالأحجار الكريمة . وسار وراءه الجيش الذى يبلغ فى جماعته نحو مائة ألف رجل . ومن ذا الذى يستطيع مقاومة مثل هذه الأبهة والقوة ؟ ليس إلا العناصر والزمن !

ولكى يقابل شارل هذا التيار الجارف ، تاتى . بعد توسلات كثيرة ، منحة من مجلس الديت الإمبراطورى ليجند أربعين ألف رجل ويعد ثمانية آلاف جواد ، وقدم هو وفرديناند بالإضافة إلى ذلك ، ثلاثين ألف رجل على حسابهما الخاص . وبهذه القوة التى تجمعت فى فيينا وعدتها ٧٨٠٠٠ رجل . انتظروا الحصار . ولكن السلطان عوق فى جونز Güns ، وهى مدينة صغيرة محصنة تحصيناً شديداً . ولكن حاميتها لم تزد على ٧٠٠ رجل أحبطوا لمدة ثلاثة أسابيع كل محاولة باندط الأتراك لاختراق الأسوار التى قبوها إحدى عشرة مرة ، وفى كل مرة كانت الحامية المدافعة تسدد بثغرات بالمعادن والجنت والاستماتة فى الدفاع . وأخيراً أرسل سليمان جواز مرور وبعض الرهائن إلى القائد — نيقولا جوريشتز Jurischitz — يدعوهم إلى عقد مؤتمر ، فحضر واستقبله الوزير الأكبر بمظاهر الحفاوة والتكريم ، وقد امتدحوا شجاعته وقيادته ، مع شىء من الحزن والأسى ، وأهداه سلطان رداء الشرف ، وضمن له عدم القيام بأى هجوم آخر : وأعادوه إلى قلعته برفقة حرس رائع من الضباط الأتراك ، وسار إلى فيينا هذا

« السيل الجارف » من الجيش الذي لا يقهر ، والذي أوقع به الهزيمة سبعة
جل فحسب .

وهناك أيضاً لم يحظ سليمان بفريسته ، فإن شارل لم يكن ليخرج
للقتال ، فقد كان من الحمق والغباء أن يضيع مزايا دفاعاته ليقامر بالقتال
في ميدان مكشوف . وقدر سليمان أنه لو كان قد أخفق في الاستيلاء على فينا
التي كان يسيطر عليها عشرون ألف جندي ليس لهم إمبراطور أو ملك ظاهر
في الميدان ، فإنه لا يكاد يحسن صنعاً أمام ٧٨٠٠٠ ينفخ فيهم روح
الحماسة والحياة ملك كان قد أعلن صراحة وعلى رموس الأشهاد أنه
يرحب بالموت ويستعذبه في هذا الصراع كخاتمة شريفة نبيلة لهذه الحياة
الدنيا ، وهي خاتمة يصبو إليها كل مسيحي . وانصرف السلطان ،
ونحرب ونهب في طريقه ستيريا والقسم الأدنى من النمسا ، وأخذ كثيراً
من الأسرى ليصرف بهم تقهقره . وربما كان من المزعج له أن يسمع
أنه ستين كان يتسكع جيئة وذهوباً دون جلدوى عبر أراضي المجر ، كان
أندريا دوريا قد طارد الأسطول التركي حتى اختفى ، واستولى على
بتراس وكورون على شاطئ البلوبونيز .

ولما أرسل فرديناند إلى القسطنطينية مبعوثاً يطلب الصلح رحب به سليمان
« ل إنه سوف يعقد الصلح » لا لمدة سبع سنوات ، ولا لخمس وعشرين سنة ،
ولا لمائة سنة ، ولا لقرنين من الزمان ، أو ثلاثة قرون ، ولكن في الحق إلى الأبد ،
إذا لم ينقضه فرديناند نفسه » ، وإنه سوف يعامل فرديناند كابن له (٢٤) .
على أنه طلب ثمناً فادحاً ، وهو أنه ينبغي على فرديناند أن يرسل إليه مفاتيح مدينة
جرو Grau ، رمزاً للخضوع والولاء ، وكان فرديناند وشارل كلاهما
متألفين على تحرير أسلحتهما ضد المسيحيين ، إلى حد أنهما كانا
مستعدين لتقديم بعض التنازلات للأتراك . وأرسل فرديناند مفاتيح المدينة

وأطلق على نفسه « ابن سليمان » ، واعترف بسيادة سليمان على معظم أراضي المجر (٢٢ يونية ١٥٣٣) ، ولم يعقد الصلح مع شارل ، واسترد السلطان بتراس وكورون ، وراوده حلم بسط سلطانه على فيينا وتبريز .

وفي ١٥٣٦ استولى على تبريز ، ثم عاد إلى الغرب . وطرح الدين جانباً ، وارتضى أن يتعاون مع فرانسوا الأول في حملة أخرى ضد شارل . وعرض على الملك أحسن الشروط وهي أنه لا صلح مع شارل إلا عند تسليم جنوه وميلان وفلاندرز إلى فرنسا ، ثم السماح للتجار الفرنسيين بالإبحار والبيع والشراء داخل نطاق الإمبراطورية العثمانية ، على أن يعامل الأتراك بالمثل ، ومنح قناصل فرنسا في الإمبراطورية الولاية القضائية المدنية والجنائية على الرعايا الفرنسيين فيها ، كما يتمتع هؤلاء الرعايا بالحرية الدينية الكاملة^(٢٥) . وهكذا أصبحت « الامتيازات الأجنبية » كما وقعت في هذه الاتفاقية ، نموذجاً يحتذى فيما جاء بعد ذلك من معاهدات بين الدول المسيحية ودول الشرق .

ورد شارل على ذلك بتشكوين حلف يضم الإمبراطورية والبندقية والبابا . وانضم إليه فرديناند وهكذا أصبح قصير الأمد جداً ما كان مقدراً أن يكون أبدياً . وسانت البندقية وطأة الهجوم التركي وفقدت ممتلكاتها في بحر إيجه وشاطئ دلماشيا ، ووقعت صلحاً منفرداً (١٥٤٠) . وبعد سنة واحدة توفي دمية سليمان أو تابعه الحاكم في بودا ، وجعل سليمان من المجر ولاية عثمانية ، وأرسل فرديناند بعثة إلى تركيا تطلب الصلح ، وأخرى إلى فارس تحرض الشاه على مهاجمة الأتراك . فتقدم سليمان نحو الغرب (١٥٤٣) واستولى على جرو وستولوزنبرج ، وضم مزيداً من أراضي المجر إلى الباشا (الحاكم التركي) في بودا . وفي ١٥٤٧ ، حين كان مشغولاً بالفرس ، منح الغرب هدنة لمدة خمس سنوات ، ولكن الطرفين نقضاها . حيث توسل البابا بول الرابع إلى الأتراك أن يشنوا الهجوم على فيليب الثاني الذي

كان بابوياً أكثر من البابوات (٢٦) . وأطلق موت فوانسوا وشارل يدي
فرديناند في الوصول إلى الصلح . وفي صلح براج ١٥٦٢ ، اعترف
فرديناند بحكم سليمان في المجر وملدافيا ، وتعهد بدفع جزية سنوية قدرها
ثلاثون ألف دوكات ، ووافق على دفع تسعين ألفاً كتأخرات .

وبعد عامين آخرين لحق بأخيه . وهكذا بقي سليمان على قيد الحياة بعد
موت ألد أعدائه ، وكم من البابوات لم يعمر هو بمسدهم ؟ لقد بسط
سلطانته على مصر وشمال أفريقية ، وآسيا الصغرى وفلسطين وسوريا ،
والبلقان والمجر . وسيطرت البحرية التركية على البحر والمتوسط . وأثبتت
الجيش التركي شجاعته الفائقة شرقاً وغرباً وأثبتت الحكومة التركية جدارتها
وقدرتها في فن الحكم والدبلوماسية ، قدر ما كان لمنافسيها . وفقد
المسيحيون رودس وبحر إيجه والمجر ، وعقدوا صلحاً ذليلاً مهيناً . وبات
العثمانيون آنذاك أكبر دولة في أوربا وأفريقية ، إن لم يكن في العالم كله .

٤ - الحضارة العثمانية

أولاً - الحكومة :

هل كان العثمانيون منحصرين ؟ الحق أن الانطباع بأن العثمانيين كانوا
متبربرين همجيين إذا قورنوا بالمسيحيين ليس إلا وهمماً قصد به تقربة الذات .
فإن أساليبهم في الزراعة وعلومهم كانت على الأقل تضارع ما كان منها
لدى الغرب . فالأرض كان يفاطمها مستأجرون من الرؤساء الإقطاعيين ،
الذين كان عليهم في كل جيل أن يستحوذوا على أراضيهم بخدمة السلطان
بطريقة مرضية ، في الإدارة وفي الحرب . وباستثناء النسيج والحرف .
وربما الأساحة والدروع ، لم تكن الصناعة قد أقامت بعد نظام المصانع ،
كما كان الحال في فلورنسه وفي فلاندرز ، ولكن الحرفيين الأتراك كانوا
مشهورين بمنتجاتهم الممتازة . ولم يشعر الأغنياء أو الفقراء بالأسى والحزن

لانعدام النظام الرأسمالى . ولم يبلغ التجار المسلمون فى القرن السادس عشر من النفوذ السياسى أو المركز الاجتماعى ، ما بلغه نظرائهم فى أوروبا الغربية . وتميزت التجارة بين الأتراك بعضهم البعض بالأمانة النسبية ، ولكن بين الأتراك والمسيحيين كان المال مستباحاً : وتركت التجارة الأجنبية فى معظمها للأجانب . وسارت قوافل المسلمين ، فى صبر وجاد ، على الطرق البرية التى كانت معروفة فى العصور القديمة والوسطى ، إلى آسيا وأفريقية ، حتى عبر الصحراء ، وكانت الأنزال الصحراوية ، ومعظمها أسسه سليمان ، تقدم للتاجر أو السائح أماكن للاستراحة على الطريق . وسيطرت سفن المسلمين حتى سنة ١٥٠٠ على الطرق البحرية من القسطنطينية والإسكندرية ، عبر البحر الأحمر إلى الهند وجزر الهند الشرقية ، حيث كان التبادل يتم مع البضائع التى حملتها السفن الشراعية الصينية . وبعد أن فتحت رحلة فاسكودا جاما وانتصارات البوكرك البحرية — فتحت الهند أمام التجار البرتغاليين ، فقد المسلمون سيادتهم على المحيط الهندى ، ودخات مصر وسوريا وفارس والبندقية طور اضمحلال تجارى عام .

وكان التركى رجل بر وبحر معاً . وكان اهتمامه بالدين أقل من اهتمام معظم سائر المسلمين ، ولكنه كذلك نظر بعين الإجلال والإكبار إلى الصوفية والدرأويش والأولياء ، واستمد شريعته من القرآن ، وتلقى تعليمه فى المسجد ، ونبت فى عبادته ، مثل اليهود ، الصور المنحوتة ونظر إلى المسيحيين على أنهم مشركون وثنيون . وكان الدين والدولة شيئاً واحداً ، وكان القرآن والسنة هما القانون الأساسى . وكان العلماء الذين فسرُوا القرآن هم أنفسهم أيضاً المعلمين والمحامين والقضاة ورجال القانون فى المملكة . وأمثال هؤلاء العلماء هم الذين جمعوا فى عهد محمد الثانى وسليمان الأول مجوعات القوانين العثمانية النهائية .

وكان المفتى ، أو شيخ الإسلام ، على رأس جماعة العلماء ، وكان أعلى

قاض في البلاد بعد السلطان والوزير الأكبر . ولما كان الموت حتماً مقضياً على السلاطين ، وكانت جماعة العلماء قائمة دوماً ، فإن هؤلاء المشرعين الدينيين هم الذين حكموا الحياة اليومية في الإسلام . ولما كانوا يفسرون الحاضر على أساس من شرائع الماضي ، فقد تشبعوا بروح المحافظة وأسهموا في ركود الحضارة الإسلامية بعد وفاة سليمان . وعزز الإيمان بالقضاء والقدر — أو كما يقول الأتراك قسمة الإنسان أو نصيبه — روح المحافظة هذه : أى أننا حيث أن الله قدر لكل نفس حظها ، فإن ضجر الإنسان بما قسم له ضرب من البعد عن الدين والتعمق فيه ، فكل شئ في هذه الدنيا ، والموت خاصة ، هو من أمر الله ويجب الرضا به دون تدمير أو شكوى . وقام بين الحين والحين من ذوى التفكير الحر من يتحدث بصراحة بالغة ، ولكن نادراً ما كان يحكم عليه بالإعدام . ومهما يكن من أمر ، فإن العلماء عادة أجازوا قدراً كبيراً من حرية الفكر ، ولم يكن في تركيب الإسلامية محاكم تفتيش .

وتمتع المسيحيون واليهود في ظل العثمانيين بقدر كبير من الحرية الدينية ، وسمح لهم بتطبيق شرائعهم في الأمور التي لا يكون المسلمون طرفاً فيها (٢٧) . واحتضن محمد الثانى الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية عمداً ، لأن انعدام الثقة المتبادل بين اليونان والروم الكاثوليك أفاد الأتراك في مقاومة الصليبيين . وعلى الرغم من أن المسيحيين انتعشوا تحت حكم السلاطين ، فإنهم عانوا ضعفاً شديداً . فقد كانوا في حقيقة الأمر عبيداً أرقاء ، ولكن كان في مقدورهم إنهاء هذا الوضع بالدخول في الإسلام ، وفعل الملايين منهم ذلك . أما الذين رفضوا فكانوا مبعدين عن الجيش ، لأن الحروب الإسلامية كانت في ظاهرها مقدسة من أجل تحويل الكفار إلى الإسلام . ونخضع مثل هؤلاء المسيحيين لضريبة خاصة بدلا من الخدمة العسكرية . وكانوا عادة فلاحين مستأجرين يدفعون عشر إنتاجهم إلى مالك الأرض ، وكان

لزاماً عليهم أن يقدموا واحداً من كل عشرة أبناء لهم ، حتى ينشأ تنشئة إسلامية في خدمة السلطان .

وكان السلطان والجيش والعلماء هم الدولة . وإذا وجه السلطان النداء ، جاء كل رئيس إقطاعي ومعه قواته المجندة ليشاركوا فوق الحياالة الذين بلغ عددهم في عهد سليمان ١٣٠٠٠ رجل . وكان سفير فرديناند ينظر بعين الحسد إلى أبهة تجهيزاتهم : ملابسهم المصنوعة من البروكار (الحرير المتصب) أو الحرير ذي اللون القرمزي أو الأصفر الفاتح أو الأزرق القاتم ، وأطقم الخيل التي تتألق بالذهب والفضة والجواهر ، فوق أحسن جياذ رأتها عينا بوسبك Busbek وتكونت صفوة المشاة من أبناء الأسرى ودافعي الجزية المسيحيين الذين كانوا ينشأون على خدمة السلطان في قصره ، أو إدارة البلاد ، وفوق كل شيء في الجيش ، حيث كانوا يسمون الانكشارية أو العسكر الجديد : وكان مراد الأول قد أنشأ هذه الفرقة الفذة (١٣٦٠) ، كوسيلة لتجريد رعاياه المسيحيين من الشباب الذي يحتمل أن يكون مصدر خطر . ولم يكن عددهم كبيراً - نحو عشرين ألفاً في عهد سليمان . وكانوا يتلقون تدريباً عالياً على كل المهارات الحربية ، وكان محرمات عليهم الزواج أو الاشتغال بالأعمال الاقتصادية ، ويلقبون الروح العسكرية والمجد الحرب والعقيدة الإسلامية ، وكانوا شجعاناً في الحرب ، قدر ما كانوا ساخطين قلقين وقت السلم ، وجاء بعد هؤلاء الجنود المتفوقين ، الميلشيا (جند الطوارئ) ، وكانوا نحو مائة ألف ، أشرف السباهي والانكشارية على تدريبهم وتغذيتهم بالروح العسكرية . وكانت الأسلحة المفضاة لا تزال هي القوس والنشاب والرماح ، وكانت الأسلحة النارية في بداية استعمالها ، وفي الاشتباكات عن قرب كانت القضبان الشائكة والسيوف القصيرة هي المفضلة . وكان الجيش والعلوم العسكرية على عهد سليمان أفضل ما في العالم من نوعهما في ذلك

العصر ، ولم يضارع أى جيش آخر جيش سليمان فى سلاح المدفعية أو فى حفر الخنادق والهندسة العسكرية أو فى النظام والروح المعنوية ، أو فى العناية بصحة الجنود ؛ أو فى تموين الأعداد الهائلة من الجنود على مسافات بعيدة . وهما يكن مق أمر فإن الوسيلة كانت ممتازة لمجرد خدمة غاية معينة ، وأصبح الجيش غاية فى حد ذاته ، حيث كان لازماً ، للحفاظ على نظامه وكبح جماحه ، أن يخوض الحروب . وبعد سليمان أصبح الجيش ، والانكشارية فوق كل شىء — سادة على السلاطين .

وكان المجنون الذين تحولوا إلى الإسلام من أبناء المسيحيين يشكون غالبية الهيئة الإدارية فى الحكومة التركية المركزية . وكان حقاً علينا أن نتوقع أن يخشى السلطان المسلم أحاطته برجال يحنون « الزعيم الوطنى الألبانى » اسكندر برج ، ويحنون إلى دين آبائهم ، والأمر على التقيض من ذلك ، فإن سليمان أثر هؤلاء التحولين عن دينهم ، لأن فى الإمكان تدريبهم منذ نعومة أظفارهم على مهام محددة فى الإدارة . والأرجح أن بيروقراطية الدولة العثمانية كانت أقدر ما وجد من نوعها فى النصف الأول من القرن السادس عشر (٢٨) ، ولو كانت عرضة للرشوة بشكل يسىء إلى سمعتها ، وضم الديوان — وهو بمثابة الوزارة فى الحكومات الغربية — كبار رجال الإدارة تحت رئاسة الوزير الأكبر عادة . وكان لهذا الديوان سلطات استشارية أكثر منها تشريعية . وكانت توصياته تصبح عادة قانوناً بمقتضى قانون أو مرسوم من السلطان ، وكانت السلطة القضائية يتولاها القضاة والأئمة (كبار القضاة) من العلماء . ولحظ أحد المراقبين الفرنسيين نشاط المحاكم وسرعة البت فى المحاكمات وصدور الأحكام (٢٩) ؛ كما اعتقد مؤرخ إنجليزى كبير أن « سير القضاء فى عهد الحكام العثمانيين الأولين كان فى تركيا أفضل منه فى أية بقعة فى أوروبا ، وأن رعايا السلطان المسلمين كانوا أدق نظاماً من معظم

الجاليات المسيحية ، وأن الجرائم كانت أنذر» (٣٠) . وكان الانكشارية يقومون بوظيفة الشرطة في شوارع القسطنطينية التي يحتمل خلوها من حوادث القتل أكثر من أية عاصمة أوربية أخرى (٣١) . وفضلت الأقاليم التي وقعت تحت الحكم الإسلامي - رودس ، اليونان ، البلقان - فضلت هذا الحكم على أحوالها السابقة في ظل حكم الفرسان أو البيزنطيين أو البنادقة ، حتى بلاد الشجر نفسها ارتأت أن الأحوال فيها صارت تحت حكم سليمان إلى أحسن مما كانت عليه أيام آل هبسبرج (٣٢) .

وكانت معظم مكاتب الإدارة في الحكومة المركزية مستقرة في « السراي » أي المساكن الإمبراطورية - وهي ليست قصرأ ، ولكن مجموعة مبان وحدائق وساحات ، تضم السلطان وحریمه وخدمه ومعاونيه وثمانين ألفاً من البيروقراطية . وكان لهذا النطاق الذي يبلغ محيطه ثلاثة أميال ، باب واحد ذو زخرفة رائعة ، أطلق عليه الفرنسيون « الباب العالی » ، وهو اصطلاح حدث في شيء من لغو الحديث ، أن قصد به الحكومة التركية نفسها . وجاء في المقام الثاني بعد السلطان في هذا التنظيم المركزي الوزير الأكبر . وأصل الكلمة عربية ومعناها حامل الأثقال ، والحق أن الوزير نهض بأعباء ثقيلة ، فكان على رأس الديوان ، والبيروقراطية ، والقضاء ، والسلك الدبلوماسي ، كما أشرف على العلاقات الخارجية ، وأجرى التعيينات الكبرى ، كما قام بأدق المهام الرسمية في أكثر الحكومات الأوربية ولعاً بالرسميات . وأما أشق التزامات الوزير فهي إرضاء السلطان في كل هذه الأمور : حيث كان الوزير عادة مسيحياً ثم أسلم . وبعبارة أدق ، هو عبد ، ويمكن أن يلقى حتفه دون محاكمة بكامة من سيده ، وأثبت سليمان نفاذ بصبرته وسداد رأيه باختيار وزرائه الذين أسهموا إسهاماً كبيراً في نجاحه . وكان إبراهيم باشا (إبراهيم الحاكم) يونانياً أسرته قراصنة المسلمين وأحضروه إلى سليمان باعتباره عبداً يبشر بحسن المستقبل .

ووجد سليمان أنه متعدد القدرات إلى حد أنه وكل إليه الأكثر فالأكثر من الإصلاحات والمهام ، وأجرى عليه راتباً سنوياً قدره ٦٠ ألف دوكات (١٠٠.٥٠٠ دولار؟) وزوجه من أخت له ، وآكله بانتظام ، واستمتع بحديثه ومعزوفاته الموسيقية وبمعرفته باللغات ، والآداب ، وحسن اطلاعه على أمور الدنيا . وعلى الطريقة الشرقية الأنيقة أعلن السلطان سليمان أن « كل ما يقوله إبراهيم ينبغي أن يعتبر كأنه صادر من ذات فيه الذي ينثر اللآلئ » (٢٢) . تلك كانت واحدة من أعظم صداقات التاريخ ، حتى في أساطير اليونان القديمة .

وثمة حكمة واحدة كانت تعوز إبراهيم - تلك هي أن يخفى زهوه للداخل بتواضع خارجي أو ظاهري . لقد كان لديه كثير من الأسباب التي تجعله يزهو بنفسه ، فهو الذي سما بالحكومة إلى أعلى درجات المقدرة والكفاية ، وبفضل دبلوماسيته هو استطاع أن يشيع الفرقة والانقسام بين دول الغرب بتدبير التحالف مع فرنسا ، وهو الذي أعاد الهدوء إلى آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، حين سار سليمان بجيشه إلى المجر ، بإصلاح المساوي ومعاملة الجميع بالعدل والمكياسة . وكذلك كان له العذر في أن يكون حذراً متوجساً ، فإنه لم يزل عبداً ، وكلما ارتفع رأسه ، ازداد رقة ودقة ذلك الخيط المعلق منه سيف السلطان المصمت على رقبتة : وقد أغضب الجيش حين حرم عليه سلب تبريز وبغداد ، وحاول منعه من سلب بودا . واستطاع في هذا السلب أن ينقذ جزءاً من مكتبة ماتياس كورفينوس ، وثلاثة تماثيل من البرونز لهرمز وأبوللو وأرتميز ، ووضعها أمام قصره في القسطنطينية ، وحتى سيده المتحرر اضطرب لهذه الإساءة الموجهة إلى الوصية السامية بتحريم النحت ، واتهمته ثروة الناس بامتهان القرآن . وأقام في بعض الأحيان حفلات تفوق في نفقتها وبهائها حفلات السلطان ، واتهمه أعضاء الديوان بأنه يتحدث وكأنه كان يقود السلطان كأسد أليف

موثق بالقيود . واغتازت روكسيلانا محظية الحريم من نفوذ إبراهيم ،
ويوماً بعد يوم ، وبفضل إصرار النساء ، ملأت أذن الإمبراطور بالشبهات
والشكاوى ، حتى اقتنع السلطان أخيراً ، وفي ٣١ مارس ١٥٣٦ ،
وجد إبراهيم مخنوقاً على فراشه ، ويحتمل أن يكون ذلك بأمر ملكي
وهذا عمل ينافس في وحشيته إحراق سرفيتس أو بركوين .

وأكثر وحشية من هذا بكثير ، قانون قتل الأخوة الإمبراطورين .
وقد عبر عنه محمد الثاني صراحة في سجل القوانين : « إن غالبية المشرعين
أعلنوا أن اللامعين من أبنائى الذين يتولون العرش ، يكون لهم الحق
إعدام إخوتهم تأميناً للسلام في الدنيا ، وعليهم أن يعملوا طبقاً لهذا » (٢٤) .
وبهذا حكم محمد الفاتح ، في هدوء ، بالإعدام على السلالة الملكية ما عدا
الكبار منهم . وثمة سيئة أخرى من سيئات النظام العثماني ، وهي أن تؤول
ممتلكات المحكوم عليه بالإعدام ، إلى السلطان الذي كان لذلك دائماً ،
تحت تأثير الإغراء بتحسين موارده المالية ، يصم أذنيه دون أى نداء أو رجاء
ولا بد من أن نضيف أن سليمان قاوم هذا الإغراء . وعلى النقيض من مثل
هذه المساوئ في الحكم الفردي المطلق ، يمكن أن نعترف بديمقراطية غير
مباشرة في الحكومة العثمانية ، تلك هي أن الطريق إلى الرفع والمكانة العالية ،
فيما عدا السلطنة ، كان مفتوحاً أمام جميع المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام
ومهما يكن من شيء ، فربما برهن نجاح السلاطين الأوائل على أن قدرة
الأرستقراطية وراثية بحيث لم يكن هناك أية حكومة معاصرة احتفظت بمثل
هذا المستوى العالي من القدرة والكفاية لأمد طويل ، كما كان الحال في العرش
العثماني .

يأ - الأخلاق :

إن قباين الطرق والأساليب عند العثمانيين والمسيحيين أوضح بشكل صارخ التنوع الجغرافي والزمني في القوانين الأخلاقية ، فقد ساد تعدد الزوجات بهدوء حينما كانت المسيحية البيزنطية حديثاً جداً قد اقتضت رسمياً أحادية الزواج ، واختبأت المرأة في أروقة الحريم أو وراء برقعها أو خمارها ، حينما كانت يوماً قد اعتلت عرش القياصرة . ولبي سليمان في إخلاص وتفان كل حاجيات حريمه دون شيء من وخزات الضمير التي ربما شوشت أو عززت المغامرات الجنسية الطائشة التي كان يقوم بها فرانسوا الأول أو شارل الخامس أو هنري الثامن أو الإسكندر السادس . إن المدنية التركية : مثل المدنية اليونانية ، احتفظت بالمرأة بعيداً عن الأنظار والأضواء ، وأجازت قدراً كبيراً من حرية الانحراف الجنسي . إن المواطن عند العثمانيين ازدهر حينما كانت « الصداقة عند اليونان » قد كسبت يوماً المعارك وألهمت الفلاسفة .

أحل القرآن للأثراك الزواج من أربع بالإضافة إلى عدد من الجوارى (في النص الإنجليزي خليات) ، ولكن قلة من الناس تحتمل مثل هذا البدخ والتبذير . وكثيراً ما ابتعد العثمانيون المحاربون عن زوجاتهم اللاتي ألفوا معاشرتهم ، واتخذوا زوجات أو خليات من أرامل وبنات المسيحيين الذين قهروهم أو غزوا بلادهم ، ولم تتدخل في سبيل ذلك أية حزازات عنصرية ، فكم لقي أحر الترحاب بأذرع مفتوحة نساء يونانيات أو صربيات أو ألبانيات أو مجريات أو ألمانيات أو إيطاليات أو روسيات أو مغوليات أو فارسيات أو عربيات ، وأصبحن أمهات لأطفال كانوا على قدم المساواة يعتبرون أبناء شرعيين عثمانيين ، وكاد الزنى أن يكون غير ضروري في مثل هذه الظروف ، وإذا حدث كانت عقوبته صارمة ،

فكانت المرأة الزانية تلزم بشراء حمار تركبه وتطوف به المدينة ، وكان الزانى يجلد مائة جلدة ، ثم يقبل جلاده ويكافئه . وكان الرجل يستطيع أن يطلق زوجته بمجرد الإعلان أو الإفصاح عن قصده (أو أن يقسم يمين الطلاق) ، أما الزوجة فلم تكن تستطيع أن تخص نفسها إلا برفع دعوى معقدة معوقة .

وظل سليمان اعزب حتى سن الأربعين . فمئذ أسر تيمور زوجة بايزيد الأول — والمزعوم أنه هو وبني عشيرته من التتار آذوها وأساءوا معاملتها — فإن سلاطين آل عثمان ، لتفادى أية مهانة أخرى مثل هذه ، استنوا قاعدة ألا يتزوجوا ، وألا يشاركهم فراشهم إلا الجوارى^(٣٥) . وضم حريم سليمان نحو ٣٠٠ جارية كلهن مشتريات في السوق أو أسيرات في الحرب وكلهن تقريباً من أصل مسيحي . وإذا توقع النسوة زيارة السلطان ارتدين أجمل ثيابهن ووقفن صفوفاً لتحيته ، وكان هو يسلم على أكبر عدد منهن ، قدر ما يسمح به وقته ، ويضع منديله على كتف من نالت إعجابه منهن بصفة خاصة . حتى إذا قضى وطره وانسحب في ذاك المساء ، طلب إلى من تلقت المنديل أن تعيده إليه ، وفي صباح اليوم التالى كان يهدى إليها ثوب من قماش من ذهب ، وتزداد مخصصاتها . وقد يبقى السلطان في الحريم ليلتين أو ثلاثاً ينثر هباته السخية ، ثم يعود إلى قصره ليقضى ليله ونهاره بين الرجال . وقام ظهر النساء في قصره أو اشتركن في الولائم أو الحفلات الرسمية . ومع ذلك اعتبر الانضمام إلى الحريم شرفاً عظيماً . وإذا بلغت أى من نزيلات الحريم الخامسة والعشرين من عمرها دون أن تحظى يوماً بالمنديل ، أعتبت . وكانت في العادة تجد زوجاً ذا مكانة عالية . ولم يؤد هذا النظام في حالة سليمان إلى انحلال جثمانى ، لأنه كان يتميز في معظم الأمور باعتدال رائع .

ولم يكن اختلاط الجنسين سائداً في الحياة الاجتماعية لدى العثمانيين .

ومن ثم كانت تعوزها ما تشيعه فيها فتنة النساء والثروة الضاحكة من بهجة .
ومع ذلك كان السلوك مهذباً قدر ما كان في المسيحية . وربما كان أكثر
تهذيباً من أية بقعة أخرى باستثناء الصين والهند وإيطاليا وفرنسا .
وكان عدد الأرقاء المحليين كبيراً ، ولكنهم كانوا يعاملون معاملة إنسانية ، وكانت
ثمة قوانين كثيرة لحمايتهم . وكان إعتاقهم أمراً ميسوراً (٣٦) . وعلى الرغم
من أن العناية بالصحة العامة كانت قليلة ، فإن النظافة الشخصية كانت
شائعة . وانتقل إلى تركيا نظام الحمامات العامة الذي يبدو أن الفرس أخذوه
عن سوريا الهلينستية . وكانت هذه الحمامات في القسطنطينية وغيرها من
المدن الكبرى في الإمبراطورية العثمانية تبنى من الرخام وتزين بزخارف
أخاذاة . وكان بعض القديسين المسيحيين يفخرون بأنهم تجنبوا استعمال الماء ،
على حين فرض على المسلمين الوضوء والتطهر قبل الدخول إلى المسجد
أو أداء الصلاة . والحق أن للنظافة في الإسلام كانت لاحقة للتدين
والتقوى . ولم تكن آداب المائدة لديهم أفضل منها في العالم المسيحي ، فكان
الأكل بالأصابع في أطباق خشبية حيث لم يكن ثمة شوك . ولم تتناول الحمر
في المنازل قط ، ولكن الكثير منها كان يحتسى في الخانات ، ولكن الإدمان
عليها كان أقل منه في الغرب (٣٧) . واستعمل المسلمون القهوة في القرن
الرابع عشر ، ولقد سمعنا أول ما سمعنا عنها في الحبشة ، ومنها انتقلت إلى شبه
الجزيرة العربية ، ويقال إن المسلمين استخدموها في الأصل بغية مساعدتهم
على دوام اليقظة والتنبيه أثناء تعبدهم (٣٨) . ولم يرد لها ذكر على لسان أى
كاتب أوروبى قبل سنة ١٥٩٢ (٣٩) .

ومن الناحية الجثمانية كان التركى قوياً متين البنيان ، مشهوراً بالجلد
وقوة الاحتمال . وكم دهش بوسبك عندما شهد بعض الأتراك يتلقون مائة
جلدة على أخص القدم أو على رسغ القدم ، « حتى لتتكسر عليهم أحياناً
جملة عصي من خشب القرانيا دون أن تصدر عنهم أية صرخة » (٤٠) . واحتفظ

التركي دوماً بمظهر الوقار ، تساعد ملابسه على إخفاء سمخافات البدانة الناتجة عن البطنة . وارتدى عامة الشعب الطربوش ، ولف المتأنقون حوله عمامة ، وكان كلا الجنسين يهوى الأزهار . واشتهرت الحداث التركية بتعدد الألوان فيها ، ومن هناك ، فيما يبدو ، انتقل إلى أوروبا الغربية الليلك والتيولب ، والسنت ، والغار وغيرها . وكان ثمة ناحية جمالية عند الأتراك ، كان من العسير أن تكشف عنها حروبهم . ولنا لندھش مما يرويه السياح الأوربيون من أن الأتراك لم يكونوا ، فيما عدا زمن الحرب ، « قساة بالطبيعة » ، ولكن بطيعين ، وديعين مهذبين ، أليفين ، « شفوقين بصفة عامة » (١) . وشكا فرانسييس بيمكون من أنهم بدوا أشد رفقاء بالحيوان منهم بالإنسان (٢) . وما كانت القسوة لتنفجر إلا إذا نهدت سلامة العقيدة ، وهنا لم يكن التركي يكظم غيظه أو يحد من انفعاله ، بل كانت ثور تائرتة .

وكان التشريع التركي صارماً في الحرب بصفة خاصة . فلم يؤخذ أى عذر بأية رحمة أو هواة ، وكانوا يبقون على حياة النساء والأطفال ، أما الأعداء القادرون الأشداء فقد يذبحون ، ولو لم يكونوا مسلحين أو لم يقاوموا ، وحتى دون أن يقترفوا إثماً (٣) . ومع ذلك فإن كثيراً من المدن التى استولى عليها الأتراك نهضت أكثر مما نهضت المدن التركية التى استولى عليها المسيحيون ، من ذلك أن إبراهيم عندما استولى على تبريز وبغداد ١٥٣٤ ، حرم على جنوده سلب المدينتين أو إبداء سكانهما ، كذلك ، عندما انتزع سليمان تبريز ثانية ١٥٤٨ ، حماها من السلب والنهب أو الذبح ، ولكن عندما استولى شارل الخامس على تونس ١٥٣٥ لم يسقط دفع رواتب جنوده إلا بإباحة السلب والنهب . ومهما يكن من شئ فإن القانون التركي لافس القانون المسيحى فى العقوبات الوحشية ، فقطعت يد السارق حتى تقل قدرته على السرقة (٤) .

وكانت الأخلاق الرسمية بمثل ما كانت عليه في العالم المسيحي . فكان الأتراك يفخرون بوفائهم لكلمتهم وعهودهم ، وحافظوا على بثود الامتيازات التي منحوها لأجدادهم ، ولكن رقيب الآداب التركي ، مثل نظيره — سائت جون كابسترانو مثلاً — كان يرى أنه ليس ثمة وعد أو عهد يلزم المؤمن بشيء يتعارض مع مصلحة أو واجبات دينه ، وأن السلطان يمكنه أن يبطل المعاهدات التي عقدها هو أو أسلافه (٤٥) . وذكر السياح المسيحيون أن التركي العادي يتسم بالآمانه وروح العدل . . . حب الخير والنزاهة والإحسان (٤٦) . ولكن الأتراك أصحاب المناصب كانوا عادة يرتشون بسهولة ، ويضيف مؤرخ مسيحي ، أن معظم الموظفين الأتراك كانوا مسيحيين من قبل (٤٧) ، ولكن يجدر بنا أن نضيف شيئاً آخر ، وهو أنهم ربوا تربية إسلامية . فالباشا التركي في ولايته ، مثل البروقنصل (حاكم الإقليم) ، الروماني ، كان يبادر إلى جمع الثروة ، قبل أن تثور وساوس سيده فيستبدل به شخصاً غيره . إنه كان يتقاضى من رعاياه الثمن الذي كان قد دفعه لتعيينه . وكان يبيع المناصب شائعاً في القسطنطينية أو القاهرة ، قدر شيوعه في باريس أو رومه .

ثالثاً — الآداب والقنون :

كانت تهيئة السبل لتحصيل العلوم والمعارف أو نقلهما هي أضعف حلقة في الحضارة العثمانية . وكان التعليم الشعبي مهملاً بصفة عامة . وضالة العلم والمعرفة أمر خطير . وكان التعليم على الأغلب مقصوراً على الطلاب الذين يقصدون إلى دراسة للتربية أو القانون أو الإدارة ، وكانت مناهجها طويلة قاسية . وقضى محمد الثاني وسليمان وقتاً طويلاً في إعادة تنظيم المدارس وتحسينها . ونافس الوزراء سادتهم السلاطين في إغداق الهبات على هذه الكليات أو المدارس الملحقه بالمساجد . ونعم المدرسون في هذه

المعاهد بمراكز اجتماعية ومالية أعلى من نظرائهم في العالم المسيحي اللاتيني . وكانت محاضراتهم تنصب رسمياً على دراسة القرآن ، ولكنهم سعوا كذلك إلى دراسة الآداب والرياضيات والفلسفة ، ولكن خريجيهم ، ولو أنهم كانوا أكثر تحصيلاً في فروع الدين منهم في العلوم ، ساروا جنباً إلى جنب مع الغرب في الهندسة وفن الحكم .

وكانت قلة ضئيلة من السكان فقط تعرف القراءة ، ولكن كل هؤلاء تقريباً كانوا ينظمون الشعر ، ولا يستثنى من ذلك السلطان سليمان نفسه ، وكان الأتراك - مثل اليابانيين - يعقدون مسابقات عامة يتلو فيها الشعراء ما جادت به قرائحهم ، وكان السلطان سليمان يطيب له ، مجاملة وكياسة منه - أن يرأس مثل هذه المباريات الشعرية . ولقد كرم الأتراك مائة شاعر في هذا العصر ، ولكن انغمارنا في عظمتنا ومصطلحاتنا نحن ، تركنا جهلة ، لا نعلم شيئاً حتى من أمر شاعرهم الغنائى العظيم محمود عبد الباقي الذى شهد أربعة عهود ، لأنه وإن كان فى سن الأربعين عندما توفى سليمان ، فإنه عمر بعده أربعة وثلاثين عاماً . وقد تخلى عن مهنته القديمة ، وهى السراجة ليعيش على شعره . وكان من المحقق أن تعضه الحاجة بأنيابها لو لم يسعفه سليمان بوظيفة لا عمل فيها ، وجمع سليمان المدح إلى الكسب ، فنظم قصيدة يثنى فيها على تفوق شعر عبد الباقي ، ورد عبد الباقي الدين فكتب مرثية قوية يندب فيها موت سليمان ، وعلى الرغم من أن الترجمة نفقد روائعها بالتماس المحافظة على تعدد القوافى فى الأصل ، فقد يتكشف فيها بعض الانفعال والروعة :

أمير فوارس الحظ ، يا من لفرسه الجرىء المعد للقتال ،
 حثا كر أو فر أو كان مقيداً ، كانت له الأرض كلها ساحة نزال !
 أنت يا من لبريق سيفه أحنى المجرى رأسه !

أنت يا من يعرف الفرنجة حق المعرفة وميض شارته الخيف !
مثل ورقة الورد الغضة وضع وجهه برفق في التراب ،
فتلقت الأرض ، الخازن الأمين ، وأودعته كالجوهرة في حرز .
الحق أنه كان إشعاع المكانة الرفيعة والمجد العظيم ،
الشاه ، الاسكندر وعليه إكليل دولة دارا المسلحة ،
وأمام التراب الذي تحت قدميه أحنى الكون رأسه خفيضاً .
وتمثابة مقام العبادة على الأرض كان باب جناحه الملكي .
لقد جعلت أصغر هباته من أحقر متسول أميراً ،
فاق في الندى والجود ، وفي الرحمة والرأفة أى ملك
لقد لاقى من هذا الكون الحزين المتقلب نصيباً ، فلا تحسبه ،
وهو بجوار ربه قد تخلى عن مكانته وعن مجده .
أى عجب إذا لم تر أعيننا شيئاً من الحياة أو من الدنيا بعد ذلك !
إن جماله البارع ، مثل الشمس والقمر ، قد أفاض على الأرض نوراً . . .
فلتبك الآن سحب الدم قطرة قطرة ، ولتنحن خفيضة !
وبهذا الألم المبرج الحزين فلتمطر عيون النجوم دمعاً سخيفاً مريراً ،
ودخان زفرات القلوب يظهر أن السماء الخالكة السواد تحترق . . .
إن الطائر ، أى روحه ، قد طار عالياً إلى السموات مثل الهامة ،
ولم يخلف وراءه سوى قليل من العظام على الأرض تحته . . .
وليكن خالداً مجد خسرو في السموات العلى !
ولتنزل رحمة الله على نفس الملك وروحه - ووداعاً ! (٤٨) .

وكان الأتراك في شغل شاغل بغزو الدول القوية إلى حد أنهم لم يجدوا
مسحة من الوقت للفنون الدقيقة التي كان الإسلام حتى الآن قد اشتهر وتميز
بها . وقد أنتج الأتراك منمنمات تميزت ببساطة التصميم وسعة التفكير في
الأساليب . أما التصيير التشخيصي أو التمثيلي فقد ترك للمسيحيين المفترين

الذين ظلوا في هذا العصر يزینون جدران كنائسهم وأديارهم باللوحات
الجصية ، فترى مانويل بانسيلينوس — الذى ربما استعار بعض الحوافز من
الصور الخائضية الإيطالية في عصر النهضة — قد زين بالحصص كنيسة بروتاتون
على جبل آثوس (١٥٣٥ — ١٥٣٦) ، برسوم أكثر انطلافاً وجراًة
ورشاقة من رسوم العصور البيزنطية . واستقدم السلاطين فنانون من الغرب
والشرق — جنتيل بلينى من البندقية ، وشاه فالى ، ووالى جان ، وهما
من رسامى المنمنمات فى فارس الهروطوقية . وفى التبريعات المطلية لم يكن
الأثر اك فى حاجة إلى مساعدة خارجية ، فقد استخدموها إلى درجة تبهر
الأبصار ، واشتهرت مدينة ازنيق (بآسيا الصغرى) بصناعة الخرف ،
وتخصصت أشقودرة وبروسة ، وهيريك فى آسيا الصغرى فى المنسوجات ،
فقد ترك البروكار (المقصبات) والقطيفة — بما فيهما من رسوم الأزهار
فى اللونين القرمزى والذهبى — التى أخرجتها هذه المدن ، أثراً شديداً
وانطباعاً قوياً فى رسامى البندقية والفلاندرز . وكان السجاد التركى يعوزه
البريق الشاعرى الذى تميز به السجاد الفارسى ، ولكن طرزه الفخمة وألوانه
الدافئة أثارت الإعجاب فى أوروبا . وقد أغرى كبير مليكه لويس الرابع
عشر بأن يأمر النساجين الفرنسيين بتقليد بعض قطع السجاد فى القصر السلطانى
فى توكيا . ولكن دون جدوى ، لأن تفوق المسلمين فى هذه الصناعة ظل
بعيداً عن متناول المهارة الغربية .

وبلغ الفن التركى ذروته فى مساجد القسطنطينية (لم يطلق على المدينة
سم اسطنبول رسمياً إلا فى سنة ١٩٣٠) ، ففى تاريخ فارس أو التاريخ
الإسلامى ، لم يضارع عظمة عاصمة سليمان ، حتى ولا مدينة مشهد مع فخامة
عمائرها الزردحة ، ولا أصفهان فى عصر الشاه عباس ، ولكن ربما ضارعتها
برسوبوليس على عهد كورش . فإن مساجد الآستانة اقتسمت مع الله
غنائم العثمانيين فى انتصاراتهم ، وهى آثار تعبر ، فى وقت معاً ، عن

المتقوى والزهو وعن تصميم السلاطين على إرهاب شعبهم بالفن قدر إرهابه بالأسلحة . ونافس سليمان جده محمد الفاتح في تشييد سبعة مساجد تتفق مع جلاله وعظمته ، وفاق أحدها ، وهو الذى حمل اسمه (١٥٥٦) كنيسة أيا صوفيا فى جمالها ، حتى فى محاكاته إياها فى مجموعة القباب الصغرى المحيطة بالقبة الرئيسية الوسطى ، على أن المآذن هنا ، تلك التى ارتفعت مقصورات الآذان الثلاث فيها إلى ارتفاع رهيب ، كانت بمثابة إضافة متألفة تتطابق مع القاعدة الضخمة . أما الداخل فكان كنزاً مربكاً من الزخرفة : نقوش ذهبية على الرخام أو الخزف وأعمدة من الحجر السماقى ، وعقود من الرخام الأبيض أو الأسود ، ونوافذ من الزجاج الملون فى إطار من حجر مشجر ، والمنبر المحفور وكأنه وقف على مدى الحياة . وربما كان بذخاً أكثر مما ينبغى لإجلاله ، وتألّقاً أكثر مما ينبغى لمقام الصلاة . إن الذى وضع تصميم هذا المسجد وسبعين مسجداً أخرى ألبانى اسمه سنان ، وقيل إنه عاش إلى سن العاشرة بعد المائة .

٥ - سليمان نفسه

إن الغرب هو الذى أطلق على سليمان لقب « العظيم » ، ولكن شعبه هو الذى سماه « القانونى » أى جامع القوانين ، بسبب مساهمته فى تدوين القانون العثمانى . ولم يكن مهيباً أو عظيماً فى مظهره ، ولكن فى حجم تجهيزات جيوشه ، وفى مدى اتساع حملاته ، وفى زينة عاصمته ، وفى تشييد المساجد والقصور ، والقناطر المائية المشهورة ، عظيماً فى روعة كل ما يحيط به وفى حاشيته ، ثم عظيماً بطبيعة الحال فى قوة حكمه ، وفى كل ما وصل إليه أو حققه . ووصلت إمبراطوريته من بغداد إلى مدى تسعين ميلاً من فيينا ، و ١٢٠ ميلاً من البندقية ملكة الأدریاتيك السابقة . وباستثناء فارس وإيطاليا ،

كانت كل المدن التي زخرت بألوان المعرفة اليهودية والمسيحية أو المعرفة القديمة ، داخلة في نطاق ملكه : قرطاجه ، ممفيس ، صور ، نينوى ، بابل ، تدمر ، الإسكندرية ، بيت المقدس ، أزمير ، دمشق ، أفسوس ، نيقية ، أثينا ، وطيبة المصرية وطيبة اليونانية . ولم يضم الهلال قط يوماً ، مثل هذه البقاع والبحار الكثيرة في منحناه الأجوف .

وهل كان تفوق حكمه يتناسب مع اتساعه ؟ يحتمل أن يكون الجواب سلبياً ، ولكن ينبغي أن نقرر هذا عن أية مماكة مترامية الأطراف ، فيما عدا فارس في عهد الأخمينيين ، ورومة في عصر الأنطونيين . إن الرقعة المحكومة كانت شاسعة إلى حد يتعذر معه إدارتها من مركز واحد قبل ظهور وسائل المواصلات والنقل والطرق الحديثة : لقد دب الانحلال والفساد في الحكومة ، ومع ذلك قال لوثر : « يقال إنه لم يكن ثمة حكومة زمنية أفضل من حكومة الأتراك » (٤٩) . وفي مجال التسامح الديني كان سليمان أجراً أكرم من أئداده المسيحيين الذين ذهبوا إلى أن الانسجام الديني أمر ضروري للقوة الوطنية . ولكن سليمان رخص للمسيحيين واليهود في ممارسة ديانتهم في حرية تامة ، وقال الكاردينال بول « إن الأتراك لا يلزمون الآخرين باعتراف عقيدتهم ، ولهذا الذي لا يهاجم ديانتهم ، أن يفصح عن أية عقيدة يعتنقها ، وهو آمن » (٥٠) . وفي نوفمبر ١٥٦١ حين كانت إسكتلندا وإنجلترا وألمانيا اللوثرية تعتبر الكشاكشة جريمة ، كما كانت إيطاليا وأسبانيا تعتبران البروتستانتية جريمة ، أمر سليمان بالإفراج عن سجين مسيحي ، « غير راغب في تحويل أى فرد عن دينه بالقوة » (٥١) . لقد جعل من إمبراطوريته مأوى آمناً لليهود الفارين من محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال .

لقد اتضحت عيوبه في علاقاته العائلية أكثر منها في حكومته . والجميع متفقون على أنه - برغم حروبه التي بررها بأنها هجوم من أجل الدفاع - كان رجلاً مهذباً ، رحيماً ، كريماً ، إنسانياً ، عادلاً (٥٢) . ولم يعجب به

شعبه فحسب ، بل أحبه كذلك . وكان إذا ذهب إلى المسجد يوم الجمعة ،
لزم الناس الصمت التام عند مروره ، وانحنى هو تحية لهم جميعا — أيا كانوا
يهودا أو مسيحيين أو مسلمين — وكان يقضى في المسجد ساعتين . ولم نسمع
عنه أنه كان يلزم الحريم إلى الحد الذى يضعف من صحته وقوته ، مثل
ما حدث لبعض السلاطين من بعده ، ولكننا نجده شديد الإحساس سريع
التأثر بانفعالات الحب ، حتى إنه لينسى ما تقتضيه مكانه من حكمة وحذر
وعدل ، بل عاطفة الأبوة وحنانها .

وفى أوائل حكمه كانت محظيته الأثيرة لديه جارية شركسية تعرف باسم
« وردة الربيع » اتسمت بهذا الجمال الأسمر المليح التقاطيع ، الذى تميزت به
لعدة قرون نساء الأقاليم الواقعة حول الطرف الشرقى للبحر الأسود . وأنجبت
له هذه المرأة طفلا ، وترعرع الطفل مصطفى حتى أصبح شابا جميلا قادرا
محبوبا . وعهد إليه سليمان بعدة مناصب وتبعات هامة ، ودربه ليكون وريثا
للعرش قدر ما يكون جديراً به . ولكن فى أثناء هذا الحب ، ظهرت فى الأفق
« خوريم » — « أى الضاحكة » — وهى أسيرة روسية أطلق عليها الغرب
« روكسيلانا » كسبت قلب السلطان وانزعته من محظيته الشركسية . وبقى
السلطان ثملا بجمال خوريم ومرحها وإغوائها وخداعها حتى اكتملت فصول
الرواية ووقعت المأساة . وكسر السلطان القاعدة التى استنها الحديثون من
أسلافه ، واتخذها زوجة (١٥٣٤) ، وابتهج أيما ابتهاج بما أنجبت له من
بنين وبنات . ولكن لما كبرت سن السلطان وبات متوقعا أن يعتلى مصطفى
عرش أبيه ، أوجست خوريم خيفة على مصير أبنائها ، الذين يمكن أن يلقوا
حقتهم ، قانونا ، على يد السلطان الجديد ، ونجحت فى تزويج ابنتها من
رستم باشا الذى أصبح الوزير الأكبر فى ١٥٤٤ ، وكان عن طريق زوجته
يشاطر خوريم مخاوفها من سطوة مصطفى فى المستقبل .

وكان مصطفى ، فى نفس الوقت ، قد أرسل لتولى حكم ديار بكر ،

واشتهر ببسالته ولباقة وكرمه ، واستخدمت خوريم كل مواهبها وتأثيرها في تحطيمه ، وألقت في روع سليمان أن مصطفى يحاول أن يكسب شعبية ، تطلعا منه إلى انتزاع العرش ، واتهم رستم باشا الشاب بأنه يتوعد سرّاً إلى الانكشارية ليقفوا إلى جانبه ، وساور الشك السلطان المنهوك الذي كان آنذاك في التاسعة والخمسين من عمره ، وزاد ارتياحه ، ثم تولاه العجب ، وأخيراً آمن بصحة ما زعموا ، فذهب بنفسه إلى إرجلي Eregli ، ودعا مصطفى إلى خيمته ، وما أن ظهر حتى عاجله بضربة أودت بحياته (١٥٥٣) . عند ذلك وجدت خوريم ورستم باشا أن من اليسير إغراء السلطان بقتل ابن مصطفى لئلا يحاول الثأر لأبيه ، وعين سليم ابن خوريم أميراً ووريثاً للعرش ، وماتت خوريم راضية مطمئنة (١٥٥٨) ، ولكن بايزيد ، وهو أخو سليم ، الذي وجد أن مصيره المحتوم هو الذبح ، أعد جيشاً يتحدى به أخاه ، واشتعلت نيران الحرب الأهلية ، وهزم بايزيد وفر إلى فارس (١٥٥٩) . ولكن الشاه طهماسب ، لقاء ثلاثمائة ألف دوكات من سليمان ومائة ألف من سليم ، سلم المناضل من أجل العرش ، وشتق بايزيد (١٥٦١) ، كما أعدم أبنائه الخمسة محافظة على الأمن الاجتماعي . ويروى أن السلطان المتألم توجه إلى الله بالشكر والحمد على موت هذه الذرية المزعجة ، وعلى أنه يستطيع الآن أن يعيش في سلام (٥٢) هـ

ولكن السلطان وجد السلام أمراً لا يحتمل ، وأطال التفكير فيما ترامى إليه من أنباء تقول بأن فرسان القديس يوحنا الذين اقتلعهم من رودس ، عادت إليهم قوتهم في مالطة ، وأنهم كانوا ينافسون قراصنة الجزائر في غاراتهم الضارية . وفكر السلطان ملياً ، وهو آنذاك في سن الحادية والسبعين ، هل في الإمكان أن تصبح مالطة جزيرة إسلامية ، ومن ثم يكون البحر المتوسط حرماً آمناً للمسلمين . وفي أبريل ١٥٦٤ أرسل أسطولاً مكوناً من ١٥٠ سفينة عليها عشرون ألف رجل ليستولوا

على الجزيرة ذات الموقع الاستراتيجى . وقاتل الفرسان ببسالتهم المعهودة تحت قيادة الداهية البارع جان دى لافالت ، واستطاع الأتراك الاستيلاء على حصن سانت إلمو بتضحية ستة آلاف رجل ، ولم يستولوا على شيء بعده ، وأرغمهم وصول الجيش الإسباني على رفع الحصار .

وما كان السلطان المعجوز المهيب ، سليمان القانونى ، ليختم حياته بهذه الخاتمة المرة . وكان مكسيمليان الثانى الذى خلف فرديناند على عرش الإمبراطورية قد منع الجزية التى تعهد الوالد بدفعها للسلطان ، وهاجم المخافر الأمامية التركية فى هنغاريا ، وقرر السلطان القيام بحملة أخرى فقط ، وصمم على أن يقومها بنفسه (١٥٦٦) . وسار بمائة ألف رجل عبر صوفيا ونيش وبيلغراد . وفى ليلة ٥ - ٦ سبتمبر ، وفى أثناء حصار حصن زيجتفار ، أسلم السلطان الروح ، وهو منتصب فى خيمته . وكان مثل فاسبازيان ، مزهواً بنفسه إلى حد لا يرتضى معه أن يموت وهو راقد . وفى ٨ سبتمبر سقط الحصن ، ولكن الحصار كلف الأتراك حياة ٣٠ ألفاً من الرجال . وكان الصيف مديراً ، فنعقدت المدينة ، وعاد الجيش أدراجه حزيناً ، غموراً إلى القسطنطينية لا يحمل معه النصر بل جثمان الإمبراطور .

هل ينبغى لنا أن نصدر على سليمان حكماً ونضعه فى المرتبة التى يستحقها ؟ إننا إذا قارناه بنظرائه فى الغرب لوجدناه فى بعض الأحيان أكثر تمدناً وحضارة ، وفى أحيان أخرى أكثر همجية ووحشية . ومن بين الحكام الأربعة الكبار فى هذا النصف الأول من القرن السادس عشر ، يستوقف نظرنا فرانسوا على أنه أكثرهم تمدناً وحضارة ، على الرغم من غروره المتهور واضطهاداته المترددة ، على أنه مع ذلك نظر إلى سليمان على اعتباره حاميه وحليفه الذى بذونه كان يمكن أن يحطم ، إن سليمان حالفه النصر فى صراعه الذى استمر طوال حياته مع الغرب . فالحق أن الإمبراطور مكسيمليان الثانى استأنف دفع الجزية للباب العالى ١٥٦٨ ، وأن شارل الخامس

كان قد أوقف تقدم السلطان عند فيينا ، ولكن أى جيش مسيحي جرؤ على الاقتراب من القسطنطينية ؟ لقد كان سليمان سيء البحر المتوسط ، وبدأ لبعض الوقت أن رومه ظلت مسيحية لأنه هو وبربروس سمحا بذلك . إن السلطان يحكم إمبراطوريته حكماً صالحاً يتسم بعدم التحيز ، ولكن كان نجاحه أكبر بكثير من شارل المسكين الذى كان يناضل ضد تمزيق ألمانيا بين الأمراء ، وكان سليمان حاكماً مطلقاً مستبداً ، يحكم العرف الذى لا نزاع فيه وهرضا شعبية ، غفيل حظى استبداد هنرى الثامن فى إنجلترا أو شارل فى إسبانيا بمثل هذا السلب والثقة من الشعب ؟ وكان شارل لا يكاد يكون قادراً على إصدار أحكام للإعدام على ابنه لمجرد الارتياح فى خيائنه ، ولكن شارل فى شيخوخته كان يرسل التلميحات مطالباً بدم المراطقة ، واستطاع هنرى أن يبعث بالزوجات والكاثوليك وبالبروتستانت إلى المشنقة أو المحرقة ، دون أن يتخلف وجبة واحدة عن طعامه . أما التسامح الدينى عند سليمان ، ولو كان محدوداً ، فإنه بالمقارنة ، يصم مثل هذا لإعدام بوصمة الهمجية والوحشية .

لقد شن سليمان حروباً كثيرة ، وذبح نصف ذريته ، وأمر بذبح وزير مبدع دون إنذار أو محاكمة ، إنه ارتكب الأخطاء التى تلازم الساطة المطلقة غير المحدودة ، ولكنه كان أعظم وأقدر محكام عصره دون منازع .

الفصل الثاني والثلاثون

اليهود

١٣٠٠ - ١٥٦٤

١ - التائهون

روى روبرت وندوفر R. Wendover في كتابه Flores Historiarum (١٢٢٨) أن أحد رؤساء أسانمة أرمينيا كان يزور دير القديس ألبان في أوائل القرن الثالث عشر ، فسئل عن القصة التي تقول بأن يهودياً كان قد تحدث إلى السيد المسيح ، لا يزال على قيد الحياة في الشرق الأدنى . فأكد رئيس الأساقفة للرهبان أنها صحيحة . وأضاف المرافق أن رئيس الأساقفة كان قد تناول النداء مع هذا الرجل الخالد قبل مئذنته أرمينيا بوقت قصير ، وأن اسم هذا الرجل ، على الطريقة اللاتينية «كارتوفياس» . وأنه لما هم السيد المسيح بمئذنة محكمة بلاطس البنطاي ، ضرب كارتوفياس السيد المسيح على ظهره وقال له : « أسرع » . وأن يسوع قال له : « إني ذاهب ، ولكنك سوف تبقى حتى أحضر » . وكرر أرمينيون آخرون زاروا دير سانت ألبان في سنة ١٢٥٢ نفس القصة ، وزاد عليها القصص الشعبي ، وبدل من اسم التائه ، وروى كيف أنه في كل مائة عام أو نحوها ، يصاب بمرض عضال ، ويروح في سبات عميق يفوق منه شاباً يموت ، رأسه بذكريات لا تزال حية عن محاكمة المسيح ودمته وبقته . وانقطع ورود القصة على الألسنة فترة ، ولكنها ظهرت من جديد في القرن السادس عشر . وادعى أورييون غلب عليهم الأثر ، أنهم رأوا « آشويروش » (*) - وسمى الآن

(*) Ahasuerus . انظر في سفر إستير . (الترجمة)

اليهودى الخالد ، أو اليهودى الثائر — رأوه فى همبرج (١٥٤٧ ، ١٥٦٤)
وفى فيينا (١٥٩٩) ، وفى لوبك (١٦٠١) وفى باريس (١٦١٤) ، وفى
نيوكاسل (١٧٩٠) ، وأخيراً فى ولاية يوتا فى غرب الولايات المتحدة
(١٨٦٨) . وتحت أوروبا ، التى كانت تغند إيمانها ، بالترحاب هذه
الأسطورة على أنها برهان يؤيد من جديد ألوهية المسيح وبعثه ، وضمان
جاءيد لمحبيه ثانية . وعدنا أن الأمة 'ورقة رمز كتيب لشعب فقد وطنه فى السنة
الحادية والسبعين من بداية المسيحية ، وبات يديه فى الأرض فى قارات أربع ،
وعانى الاضطهاد والنعذيب مرة بعد مرة ، قبل أن يسترد موطنه القديم فى
خضم زماننا المتقلب المزعج (١) .

ولاقى يهود « الشتات » هؤلاء أقل العناء والشقاء فى ظل السلاطين الأتراك
والبابوات فى فرنسا وإيطاليا ، وعاشت الأقليات اليهودية آمنة فى القسطنطينية
وسالونيك وآسيا الصغرى وهوريا وفلسطين والجزيرة العربية ومصر وشمال
أفريقية وأسبانيا تحت حكم العرب . وتصادق البربر معهم كارهين ، على أن
سيدهون ديوران ترأس مستعبدات مزدهرة فى الجزائر ، وعاشت الجمالية
اليهودية فى الإسكندرية — كما وصفها ابن أوباديا برتيزرو فى ١٤٨٨ —
حياة طيبة ، وشربوا الخمر بكثرة ، وتربوا على البسط كما فعل المسلمون ،
وخلعوا نعالم عند دخول المناء ، أر بيت أساء الأصداقاء (٢) . وكتب اليهود
الألمان الذين لجأوا إلى تركيا إلى أقربائهم وصفاً خامساً للحياة الطيبة التى
ينعمون بها هناك (٣) . ورخص الباشا (الوالى) العثمانى فى فلسطين لليهود
هناك فى أن يبنوا معبداً على سهل صهيون . وخيخ بعض اليهود الغربيين إلى
فلسطين ، واعتقدوا أن من حسن حظهم أن تفيض أرواحهم فى الأرض
المعدسة ، والأفضل منها فى أورشليم بالذات .

ومهما يكن من أمر ، فإن الذى كان يستأثر بتفكير اليهود ويستهوئ
قوايهم فى هذا العصر تركز فى الغرب الذى لا يغتر ولا يصفح . فقد لاقوا

أقل الأحرار شقاء في إيطاليا المستنيرة : وفي نابلي سعدوا بصداقة روبرت ملك أنجو ، وازدهروا في أنكونا وفيرارا وبادوا والبندقية وفيرونا ومانتوا وفلورنسه وبيزا وغيرها من خلایا النهضة . قال لارزم ١٥١٨ « يوجد في إيطاليا كثير من اليهود ، ولكن لا يكاد يوجد في أسبانيا مسيحيون (٤) » . وكانت إيطاليا تقار التجارة والموارد المالية تقديراً عظيماً ، ومن ثم كان لليهود الذين تولوا هذه المرافق الضرورية فيها شأن كبير ، باعتبارهم دعامة حاضرة المنطقة في الاقتصاد . أما ما كان يطالب من اليهود قديماً من وضع شارة أو ارتداء لباس مميز فقد تجاهله الإيطاليون في شبه الجزيرة بصفة عامة ، وارتدى اليهود الموسرون زي الإيطاليين من مثل طبقتهم ، والتحق الشباب اليهودي بالجامعات ، وتزايد عدد المسيحيين الذين يدرسون اليهودية .

وبين آونة وأخرى كان بعض رجال الدين المسيحي الذين يبغضون اليهود ، مثل القسيس يوحنا أوف كابسترانو ، قد يهيج حفيظة سامعيه ، ليطالبوا بالتطبيق الكامل للقوانين الكنسية المنشأة الجامعة بالتجريد ضد اليهود : ولكن على الرغم من أن كابسترانو كان يلقى تأييداً من البابا يوجينيوس الرابع والبابا نيقولا الخامس ، فإن تأثير بلاغته كان تأثيراً عابراً في إيطاليا . وهاجم راهب آخر من طائفة الفرنسيسكان هو برناردينو أوف فلتر ، اليهود مهاجمة صاخبة عنيفة ، إلى حد أن السلطات المدنية في ميلان وفرارا وفلورنسه أمرته بالتزام الصمت أو الرحيل . ولما عثر على طفل في سن الثالثة ميتاً بالقرب من بيت أحد اليهود في ترنت (شمال إيطاليا) في سنة ١٤٧٥ ، أعلن برناردينو أن اليهود قتلوه ، فألقي الأسقف بكل يهود ترنت في السجن ، واعترف بعضهم تحت وطأة التعذيب بأنهم ذبحوه وشربوا من دمه ، باعتبار أن هذا من طقوس عيد الفصح عندهم . وأحرق كل يهود ترنت حتى الموت ، وحفظ جثمان الطفل « سيمون الصغير » ، وعرض على أنه « بقايا مقدسة » ، وحجج آلاف من المؤمنين إلى المزار الجديد

وانتشرت قصة المفطاعة المزعومة عبر جبال الألب إلى ألمانيا فزادت من حدة
شعر العداء ضد « السامية » هناك . واتهم سناتو البندقية القصة بأنها
كذوبة دينية ، وأمر كل السلطات في نطاق الولاية القضائية للبندقية
بحماية اليهود . وقام من بادوا إلى ترنت اثنان من المحامين لفحص الأدلة ،
ولكن الأهالي هناك مزقوها تقريراً . واستحثوا البابا سكستس الرابع على
ضم سيمون إلى قائمة القديسين ولكنه أبى ، وحرم تمجيد سيمون باعتباره
قديساً^(٥) . ومهما يكن من شيء ، فإن سيمون أعلن قديساً في
سنة ١٥٨٢ .

وفي رومه نعم اليهود لعدة قرون بظروف هوائية في الحياة ، وبالحرية
أكثر مما لافوا في أى مكان آخر في العالم المسيحي ، من جهة لأن البابوات
كانوا مثقفين ، ومن جهة أخرى لأن المدينة كان يحكمها ويتنازعها حزبا
أورسيني وكولانا ، وكاتبا الجماعتين كانت مشغولة بالقتال بينهما ، إلى
حد يتعذر معه التفرغ لعداوة الآخرين ، وربما كان ثمة سبب آخر هو أن
الرومان كانوا أوثق ارتباطاً بالجانب العملي في المسيحية منهم بالتعصب
لديانتهم . ولم يوجد آنذاك حتى نخاص باليهود في رومه ، ولكن
معظمهم عاش في حي العبرانيين على الضفة اليسرى من نهر التيبر . ولم
يكونوا ملازمين بذلك ، فقد قامت قصور الأرسقراطية الرومانية وسط
مساكن اليهود ومعابدهم الثرية من كنائس المسيحيين^(٦) . ولكن ظل بعض
الظلم يقع عليهم ، فكانت بعض الضرائب تفرض عليهم من أجل الإنفاق
على الألعاب الرياضية ، وكانوا يرغمون على إرسال ممثلين عنهم للاشتراك
فيها وهم أنصاف عرايا ، وهذا أمر يتنافى مع أعراف اليهود وأذواقهم .
وظلت العداوة العنصرية باقية ، فمثل اليهود في رسوم كاريكاتورية في
المسرح الروماني ، وفي الروايات الخزلية في الملاحى ، ولكن اليهوديات
كن يقدمن على أنهن مهذبات جميلات . لاحظ التناقض بين باراباس

وأبجيل في رواية مارلو « يهودى مالطة » ، وبين شياوك وجسيكا في رواية شيكسبير « تاجر البندقية » .

وعامل البابوات ، إجمالاً ، اليهود معاملة كريمة [بالقدر الذى ينتظر من رجال مجدوا المسيح على أنه المخلص ، وأنكروا عقيدة اليهود على أنه لم يأت بعد . وعندما أنشئت محاكم التفتيش أعفى البابوات من سلطتها القضائية اليهود الذين لم يتحولوا عن دينهم . وكانت المحكمة تستطيع أن تستدعى أمثال هؤلاء اليهود ، بسبب مهاجمتهم للمسيحية ، أو محاولتهم رد المسيحية إلى اليهودية فحسب . « إن اليهود الذين لم يكفروا قط عن إعلان إيمانهم باليهودية تركوا ، إجمالاً ، دون إزعاج » (٧) . من الكنيسة ، ولكنهم لقوا الإزعاج من الدولة أو من الأهالى . وأصدر عدة بابوات مراسيم بقصد التخفيف عن حدة العداوة الشعبية . وبذل البابا كايمنت السادس جهداً شاقاً فى هذا السبيل ، فجعل مدينة أفنيون البابوية ملجأً رحياً لليهود الفارين من الحكومة الوحشية فى فرنسا (٨) . وفى ١٤١٩ أعان مارتن الخامس إلى العالم الكاثوليكي :

« من حيث أن اليهود خلقوا على صورة الرب ، وأن بقية منهم لا بد يوماً أن تخلص . ومن حيث أنهم توسلوا إلينا لحمايتهم ، فإننا سيراً على نهج أسلافنا ، نأمر ألا يزعمهم أحد فى معابدهم ، وألا يهاجم أحد قوانينهم وحقوقهم وأعرافهم ، وألا يعمدوا قسراً ، وألا يكرهوا على حضور الأعياد المسيحية أو وضع شارات جديدة ، وألا يعترض سبيلهم فى إقامة علاقات العمل بينهم وبين المسيحيين (٩) .

وأصدر يوجينوس الرابع ، ونيقولا ، كما سنرى ، تشريعاً مقيداً لليهود ، ولكن بالنسبة لسائر البابوات كما يقول جرايترز « من بين سادة إيطاليا كان البابوات أكثرهم وداً وصداقة لليهود » (١٠) . وكثير منهم : الإسكندر السادس ، يوليوس الثاني ، ليو العاشر - تجاهلوا المراسيم القديمة ، وعهدوا بحياتهم إلى أطباء يهود . وشاد كتاب يهود معاصرون ، شاكرين ، بالأمن الذى تمتع به قومهم فى ظل بابوات أسرة مديتشى (١١) . وكان أحدهم وهو كليمنت السابع ، « صديقاً كريماً لإسرائيل » (١٢) :

ويقول مؤرخ إسرائيلى عالم :

إن هذا كان ذروة عصر النهضة . واعتبر جماعة متعاقبة من البابوات المثقفين المهادنين المترفين المشهود لهم بالحكمة فى رومه أن تقدم الثقافة جزء هام من عملهم فى تعزيز المصالح الدينية للكنيسة الكاثوليكية . « ولذلك اتجهوا من أواسط القرن الخامس عشر ، فما بعده ، إلى التغاضى عن التفاصيل المزعجة فى القانون الكنسى . . . وإلى إظهار التسامح الكبير مع غير الكاثوليك . وكان رجال المصارف المقرضون لليهود يشكلون جزءاً لا يتجزأ من الحركة الاقتصادية فى ممتلكاتهم ، على حين أن البابوات وهم رجال دنيا واسعو الآفاق : قدروا كل التقدير مناقشتهم مع الأطباء اليهود وغيرهم ممن اتصلوا بهم . ومن ثم فإن هؤلاء البابوات أهملوا إهمالاً يكاد يكون تاماً كل التعاليم والقواعد التى كان آباء الكنيسة قد أصدروها ، وصنفوها فى عداد القوانين مجلساً لاتيران الثالث والرابع . ولما رأى سائر أمراء إيطاليا هذا المثل

الرائع أمام أعينهم — أمراء مدينتي في فلورنسه ،
استنسى في فبراير ، جنزاجو في منتوا ، حذوا إلى
حد كبير حذو البابوات . إن اليهود ، ولو أنهم قد
أزعجتهم بين الحين والحين فترات من العنف
أو التعصب — مثال ذلك عندما سبطر سافونا رولا
على فلورنسه ١٤٩٧ — امتزجوا بغير انهم وشاركوهم
حياتهم ، بدرجة لا يكاد يكون لها مثيل من قبل .
وقاموا بنصيب ممتاز في جوانب معينة في النهضة . . .
عكسوها في حياتهم هم أنفسهم وفي أنشطتهم الأدبية
باللغة العبرية ، وأسهموا بإضافات هامة في الفلسفة
والموسيقى والمسرح . وكانوا شخصيات حبيبة في
بلاط كثير من الأمراء الإيطاليين (١٣) .

إن بعضاً من الشخصيات التي كانت يوماً مشهورة لتكشف لنا عن هذه
الفترة المشرقة في العلاقات بين المسيحيين واليهود . ولد إمانويل بن سواومون
الحارومي (الرومي) وفي نفس السنة التي ولد فيها دانتي (١٢٦٥) وأصبح
صديقاً له ، وكان رجلاً من رجال النهضة قدر ما يستطيع يهودي مخلص
أن يكونه : وكان يحترف الطب ، كما كان واعظاً ، وعالمًا دينياً ، وعالمًا
من علماء النحو ، ومن المشتغلين بالعلوم ، ومن أصحاب المال والأعمال ،
وشاعراً ، و « مؤلفاً لأغان مآجنة كثيراً ما تجاوزت حدود الحشمة » (١٤) .
ولما كان يتقن العبرية كل الإتقان : فإنه أدخل إلى هذه اللغة المقطوعة
الشعرية ذات الأربعة عشر بيتاً (Sonnet) وكاد ينافس الإيطاليين
في الفصاحة والسلاسة والروح ، ولم يظهر أي شاعر يهودي قط قبل
« هين » مثل ما أظهر إمانويل من موهبة الهجاء والروعة والذكاء . وربما
كان إمانويل قد تشرب بعض مبادئ مذهب ابن رشد في الشك ،

الذى ساد في ذلك العصر ، فإن إحدى قصائده تعبر عن نفوره من السموات بما فيها من أناس أظهار (ذهب إلى أن النساء الدميات الحلقة هن فقط الفضليات) ، وعن إشارته للجحيم ، حيث توقع أن يجد فيها أكثر الحميلات إغراء في كل الأزمان . وألف في شيخوخته قصيدة ضعيفة يقلد فيها دانتي في « السماء والجنة » . ولم يكن ثمة في اليهودية مطهر ، مثلها في ذلك مثل المذهب البروتستانتي . وكان إمانويل أكرم من دانتي ، فأفصح في الجنة مجألاً لكل « الأبرار في العالم بأسره » (١٥) ، متبعاً في ذلك نهج تقاليد أحبار اليهود . على أنه أدخل أرسطو إلى الجحيم لأنه انتهى إلى خلود الكون .

وثمة روح مرح جنل شبيهة بهذا الذي أسلفنا ، أضفت سلاسة وحيوية على كتابات كالونييموس بن كالونييموس . وشاهد روبرت ملك نابولي في إحدى زياراته لبروفانس هذا العالم الصغير ذا الاسم الجميل ، وأخذه معه إلى إيطاليا . وكان كالونييموس في البداية متفرغاً إلى العلوم والفلسفة ، وترجم أرسطو وأرشميدس وبطلميوس وسجان والفارابي وابن رشد إلى العبرية ، وكتب بروح أخلاقية عالية . ولكنه وجد أنه من اليسير عليه أن يتمثل طبايع المرح والبهجة في نابولي ويتشربها . فلما انتقل إلى رومه أصبح هوراس اليهود (شاعر روماني في القرن الأول ق . م) يهجو هجاء لطيفاً أخطاء المسيحيين واليهود وأخطائه هو نفسه ، ونقاط الضعف فيهم وفي شخصه . وندب حظه لأنه ولد رجلاً ، فإنه لو كان امرأة ، لما كان عليه أن يطيل التنقيب والتفكير في التوراة والتلمود ويحفظ مبادئ القانون البالغ عددها ٦١٣ . وسخرت روحه المرحية من التلمود . وتوحي الشعبية التي حظى بها هجاؤه لدى اليهود الرومان بأنهم لم يكونوا أنقياء متدينين بالقدر الذي كان عليه إخوانهم الأكثر شقاء في سائر البلاد .

ولم تحي النهضة الدراسات اليونانية فحسب بل العبرية كذلك . ودعا الكاردينال أجديو دي فينربو العالم اليهودي إيليا ليفيتا من ألمانيا إلى رومه

(١٥٠٩) ، وبقي العالم اليهودي ثلاثة عشر عاماً ضيقاً ، كرمياً في قصر الكاردينال يعلمه العبرية ، ويتلقى عنه اليونانية . وبفضل جهود ل. ليدو ، ورخاين ، وآخرين ، من التلامذة المسيحيين الذين يتلقون العلم عن المعلمين اليهود ، أنشئت كراسي اللغة العبرية ، في كثير من الجامعات والأكاديميات في إيطاليا . وحظى إيليا دل مديجو الذي كان يعلم العبرية في بادوا بتقدير عظيم هناك ، رغم رفضه التحول عن دينه ، إلى حد أنه لما حدث خلاف عنيف بين الطلبة المسيحيين حول بعض الشؤون الثقافية ، عينت السلطات الجامعية والسنااتو في البندقية دل مديجو لتحكيم ، فهاجج الموضوع بحزم ولباقة ، وخرج الجميع راضين . ودعاه بيكو دلا ميراندولا ليعلم العبرية في فلورنسه ، وهناك انضم إيليا إلى الحلقة الإنسانية لأسرة مديتشى ، ولا زلنا نراه من بين الشخصيات التي رسمها بينوتزو جوتورولى على جدران قصر مديتشى . ولم يشجع هذا العالم فكرة بيكو عن وجود بعض عقائد مسيحية في « القبالة » (*) ، بل على النقيض من ذلك ، سخر من سفر الرؤيا على أنه مجموعة من سخاوات حمقاء .

وكان اليهود القاطنون في شمال جبال الألب أقل حظاً من اليهود في إيطاليا . فقد طردوا من إنجلترا في سنة ١٢٩٠ ، ومن فرنسا في سنة ١٣٠٦ ، ومن فلاندرز في سنة ١٣٧٠ . ودعوا إلى فرنسا ثانية في ١٣١٠ شريطة أن يتدوا الملك ثلثى أى مال يكونون قد جمعه من فرائد الفروض التي تدونها قبل طردهم (١٦) . وما أن انتهت مكاسب الملك من هذه العمليات حتى نفى اليهود ثانية في سنة ١٣٢١ . وعادوا في الوقت المناسب ليلازموا التائب على « المارت الأسود » ويحملوا مسئوليته ، ونفوا مرة أخرى (١٣٤٩) . وأعيوا من

(*) Cabala فلسفة دينية سرية ابتدعها بعض أحبار اليهود ، قائمة على تفسيرات

غامضة للكتاب المقدس . (المترجم)

جديد (١٣٦٠) ليقاموا قروضاً مالية ويسهموا بمهارتهم ، عوناً منهم على افتداء ملك فرنسا الذي أسر في إنجلترا . ولكن في عام ١٣٩٤ اختفى في ظروف غامضة إسرائيلي ارتد إلى المسيحية ، واتهم اليهود بقتله ، واعترف بعض اليهود تحت وطأة التعذيب ، بأنهم كانوا قد نصحوه هذا المرتد بالعودة إلى اليهودية ، وثار الرأي العام ، وأمر شارل السادس كارهاً ، بنفى المجلس المنهوك ثانية .

وكان في براغ جماعة يهودية قوية ، ذهبوا إلى هناك ليستمعوا إلى عظات رائد « هس (*) » وهو ميليز Miliez ، لأنه أظهر اطلاعاً واسعاً وتقديراً كبيراً للتوراة . ودرس هس العبرية ، وقرأ التعليقات العبرية ، واقتبس عن راشي وموسى بن ميمون . وأطاع التابوريون الذين مضوا بإصلاحات هس أشواطاً حتى باتت قريبة من الشيوعية — على أنفسهم « الشعب المختار » وأطلقوا أسماء « إدوم ، وموآب ، وعمالق » ، على الولايات الجرمانية التي شنوا عليها الحرب : ولم تكن جيوش هس ، على أية حال ، تستنكف عن قتل اليهود ، عندما استولوا على براغ (١٤٢١) ، ولم يتركوا لهم الخيار : الارتداد أو الجزية ، مثل المساكين ، بل إن أي سر خيار كان : الارتداد إلى المسيحية أو الموت (١٧) .

ومن كل الدول المسيحية تأتي بولندة في المحل الثاني بعد إيطاليا في حسن وفادتها لليهود ، وفي ١٠٩٨ ، ١١٤٦ ، ١١٩٦ هاجر يهود كثيرون من ألمانيا إلى بولندة ، فراراً من الموت على أيدي الصائدين ، ولقوا ترحيباً وازدهرت أحوالهم هناك ، وفي ١٢٠٧ أصبح بعضهم يمتلك ضياعاً واسعة . وفي ١٢٦٤ منحهم الملك بوليسلاف الثاني صكاً بالحقوق المدنية . وبعد الموت

(*) Huss أحد رجال الإصلاح الديني وأحد الشهداء في بوهيميا (١٣٦٩ - ١٤١٥) .

(المترجم)

الأسود انتقل عدد أكبر من الألمان إلى بولندا ، ورحبت بهم هناك الأرستقراطية الحاكمة ، بوصفهم خيرة تقدمية اقتصادية في أمة لا زالت تفتقر إلى طبقة وسطى . وثبت كازيمير الثالث الأكبر (١٣٣٣ - ١٣٧٠) حقوق اليهود البولنديين ووسعها ، وضمن الدوق الأعظم فيتوفست Vitovst هذه الحقوق لليهود لتوانيا : ولكن في ١٤٠٧ ، أبلغ أحد الكهنة شعب الكنيسة في كراكاو أن اليهود قد قتلوا طفلاً مسيحياً ، وأخذوا يتمتعون أنظارهم بدمه . وحرص هذا الاتهام على وقوع المذابح . وجدد كازيمير الرابع حريات اليهود وزاد فيها (١٤٤٧) ، وقال : « نريد أن يشعر اليهود الذين نرغب في أن نحميهم من أجل مصابحتنا ، ومصلحة خزانة الدولة - أن يشعروا بالراحة في ظل حكمنا الخير » (١٨) . واتهم رجال الدين الملك ، وأنذره أولسنيكي رئيس الأساقفة بسوء المصير في الجحيم ، وألقى يوحنا كابسترانو ، الذي جاء إلى بولندا ممثلاً للبابا ، خطباً ملتهبة مثيرة في سوق بلدة كراكاو (١٤٥٣) ، ولما هزم الملك في الحرب ارتفعت الصيحات بأن عقاب الله قد نزل به لمساندته الكفار . ومذ كان في حاجة إلى تأييد رجال الدين للدخول في حرب أخرى ، فلأنه ألغى صك حريات اليهود . ووقعت المذابح المنظمة في ١٤٦٣ ، ١٤٩٤ ، وربما كان لمنع هذه الهجمات أن طلب إلى يهود كراكاو بعد ذلك أن يقطنوا ضاحية « كازيميرييه » .

وفي تلك الضاحية وفي غيرها من المراكز في بولندا ولتوانيا ، زاد اليهود عدداً وازدهاراً بعد أن ذلوا كل العقبات ، وفي عهد سيجسمند الأول أعيد لهم حرياتهم فيما عدا حرية الإقامة . وظلوا على علاقة طيبة مع سيجسمند : وفي ١٥٥٦ اتهم ثلاثة من اليهود في بلدة سوخاشيف ، بطعن « القربان المكرس » حتى أدمى ، وأعلنوا براعتهم ، ولكنهم أعدموا حرقاً بأمر من أسقف خلم Khelm . واستنكر سيجسمند الثاني هذه العملية على أنها « أكذوبة ديلية » قصد بها أن يثبت لليهود والبروستانت أن الحبز المقدس كان قد تحول

فعلا إلى جسد المسيح ودمه ، وقال الملك « لقد صعدت لهذه الجريمة البشعة ،
ولنى لا يعوزنى حسن الإدراك إلى حد يجعلنى أؤمن بأنه يمكن أن يكون هناك
دم فى القربان (١٩) ، ولكن بموت هذا الملك المتشكك ، انتهت فترة المشاعر
الطيبة بين الحكومة واليهود فى بولندا .

وعاش اليهود حقبة من الزمن فى سلام فى ألمانيا فى العصور الوسطى .
وعملوا بجد ونشاط على طول المنافذ التجارية النهرية الكثيرة ، وفى المدن
الحررة والشعور ، وحتى رؤساء الأساقفة أنفسهم كانوا يطلبون ترخيصاً من
الإمبراطور لإيواء اليهود . وبمقتضى المرسوم البابوى (١٣٥٥) شارك
الإمبراطور شارل الرابع الناخبين الإمبراطوريين امتيازهم فى الانتفاع باليهود ،
أى حق الناخبين فى استقبال اليهود فى دوائريهم ، وحمايتهم واستخدامهم ،
وابتزاز أموالهم . وفى ألمانيا ، كما كان الحال فى إيطاليا ، تلهف الطلاب
على تفهم التوراة فى نصوصها الأصلية ومن ثم درسوا العبرية . وحفز النزاع
بين رنخلين وبفركورن إلى هذه الدراسة ، كما قوت طباعة التلمود كاملاً
لأول مرة (١٥٢٠) من هذا الحافز .

وبلغ تأثير اليهودية ذروته فى الإصلاح الدينى . ومن الوجهة الدينية ،
كان هذا الإصلاح رجوعاً إلى أصل العقيدة البسيطة والأخلاق الصارمة فى
صدر المسيحية اليهودية . فإن عدااء البروتستانتية للصور الدينية والتماثيل ،
كان عوداً إلى عدااء السامية « للصور المنحوتة » . واحتفلت بعض الفرق
البروتستانتية بيوم السبت (مثل اليهود) . وإن إنكار عبادة العذراء ،
وعبادة القديسين ليقترّب كثيراً من التوحيد الصارم عند اليهود . كما أن ارتضاء
القساوسة الجدد للزواج والجلوس ، جعلهم أشبه بأحبار اليهود ، منهم بالكهنة
الكاثوليك . إن نقاد رجال الإصلاح الذين اتهموهم « بالتهود » ، وأسموهم
« أشباه اليهود » أو « أنصاف اليهود » (٢٠) . وقال كارلستاد نفسه إن
ملانكتون (من رجال الإصلاح اللوثرى فى ألمانيا) أراد أن يرجع إلى موسى

وشريعته : وضم كلفن تهمة « اليهود » إلى آثام سرفيتس السيئة ، وسلم الأسباني بأن دراساته العبرية أثرت عليه في مناقشة لاهوت التثليث . وأعاد حكم كلفن في جنييف إلى الأذهان تسلط الكهنة في إسرائيل القديمة . واتهم زونجلي بأنه متهم لأنه درس العبرية مع اليهود ، وبني كثيراً من عظاته وتعليقاته على النص العبري للتوراة ، واعترف بأنه مفتون باللغة العبرية :

لقد ألفيت « اللغة المقدسة » ، فوق كل ما يعتقد الناس ، لغة مهذبة رشيقة جليلة : وعلى الرغم من فقرها في عدد الكلمات ، فإن أحداً لا يشعر بهذا النقص ، لأنها تستخدم حصياتها من الألفاظ بأساليب شتى : والحق أني قد أجروا على القول بأن الإنسان إذا أدرك جلالها ورشاقها ، لو وجد أنه ليس هناك لغة أخرى تستطيع أن تعبر عن الكثير بمثل هذا العدد القليل من الألفاظ ، وبمثل هذه التعابير القوية : وليس ثمة لغة مثلها غنية بأساليب التصوير المتعددة الجوانب الزاخرة بالمعاني . وليس هناك لغة مثلها تبهج القلب وتنفذ إليه بسرعة (٢١) .

ولم يكن لوثر متحمساً إلى مثل هذا الحد . وقال شاكياً : « كيف أبغض قوماً يمحمون على الناس لغات كثيرة كما يفعل زونجلي ، فقد تحدث على المنبر باليونانية والعبرية في همبرج » (٢٢) . وهاجم لوثر في نزق شيخوخته وخرفه ، اليهود وكأنه لم يتعلم منهم شيئاً . وليس ثمة لإنسان بطل في رأى دائنه . وفي نشرة عن « اليهود وأكاذيبهم » (١٥٤٢) أفرغ لوثر وابلا من الحجج ضد اليهود ، على أنهم كانوا قد أبوا أن يرتضوا المسيح إلهاً ، وأن ما عانوا طوال حياتهم أثبت غضب الله عليهم ، وأنهم دخلوا على أراضى المسيحيين ، وأنهم كانوا وقحين في ثرائهم القائم على الربا ، وأن التلمود أجاز الخداع والسرقة والسلب وقتل المسيحيين ، وأنهم سمموا العيون والآبار ، وذبحوا

أطفال المسيحيين ليستخدماً دماءهم في الطقوس الإسرائيلية . وقد رأينا في دراستنا له في شيخوخته كيف أنه نصح الألمان بإحراق بيوت اليهود ، وإغلاق معابدهم ومدارسهم ، ومصادرة ثرواتهم ، وتجنيد رجالهم ونسائهم في أعمال السخرة ، وأن يخير جميع اليهود بين اعتناق المسيحية أو قطع ألسنتهم . وفي عظة ألقاها قبل موته بوقت قصير ، أضاف أن الأطباء اليهود كانوا يتعمدون تسميم المسيحيين^(٢٣) . وساعدت هذه التصريحات على أن تجعل البروتستانتية — وهي المادية كثيراً لليهودية — أشد عداوة للسامية من الكاثوليكية الرسمية ، ولو أنها ليست في هذا المجال أكثر من جماهير الكاثوليك الذين أثروا على النازيين في سكسونيا وبراندنبرج ليطردوا اليهود من هذه البقاع^(٢٤) . لقد أشاعوا هذه النغمة في ألمانيا على مدى عدة قرون ، وأعدوا شعبها للإبادة الجنس حرقاً .

٢. — على السفود

لماذا كان المسيحيون واليهود يمتقون بعضهم بعضاً ؟ لا ريب أنه كان هناك سبب يسود بينهم باستمرار ، ذلك هو الصراع الحاد بين العقائد الدينية ، حيث كان اليهود يشكلون تحدياً ثابتاً معمرّاً للمعتقدات المسيحية الأساسية ، وأدى العداء الديني إلى فصل عنصري جاء في أول الأمر طوعاً ، ثم بات قسراً فيما بعد ، حيث انبثق في إنشاء أول حي يهودي في سنة ١٥١٦ ، وأبرز هذا الفصل العنصري الاختلافات في اللباس وطرق الحياة والملاصق والصلاة والكلام . وشجع هذا التباين على عدم الثقة والخوف المتبادلين بين الطرفين ، وولد هذا الخوف كراهية . وحول اليهود ما ألفوا من منع زواجهم من المسيحيين مفخرة لهم ، وتمخض اعتزازهم بجنسهم عن تباينهم بأنهم سلالة ملوك قد حكموا إسرائيل ألف سنة قبل ظهور المسيح . واحتقروا المسيحيين بوصفهم مشركين يؤمنون بالخرافات ، وأنهم يتصفون بشيء من

بطء الفهم ، ولكنهم يتشددون بعبارات ملؤها الرياء المذهب على حين يأتون بأعمال وحشية لا يستشعرون فيها الرحمة ، ويعبدون « أمير سلام » على حين يشن الإخوة الحرب تلو الحرب ضد إخوتهم . كما احتقر المسيحيون اليهود على أنهم كفرة غرباء لا يؤلفون . ويروى توماس مور قصة سيدة تقية صعقت عندما علمت أن السيدة العذراء كانت أصلاً يهودية ، فاعترفت بأنها لن تستطيع بعد ذلك أن تكن « لأم الإله » ما كانت تكنه لها من حب من قبل (٢٥) .

وأصبحت قصة القربان المقدس مأساة لليهود . فقد طلب إلى المسيحيون أن يؤمنوا بأن الكاهن كان يحول رقائق الخبز غير المخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وقد ارتاب في هذا بعض المسيحيين ، مثل « طائفة المتمتمين (*) » ، وربما أمكن أن يقوى من هذا الاعتقاد ما روى من قصص عن بعض رقائق الخبز المكرس التي تقطر دماً عند أية ونخزة من سكين أو دبوس . ولكن من ذا الذي يقدم على هذه النعلة الشنيعة غير اليهود ؟ وفي القرون الأخيرة من العصور الوسطى كانت مثل هذه الأساطير التي تروى عن القربان الذي يقطر دماً كثيرة جداً . وفي حالات عديدة : في نيوبرج (بالقرب من باسو) ١٣٣٨ ، وفي بروكسل ١٣٦٩ ، أدت هذه المزاعم إلى ذبح اليهود وإحراق بيوتهم . وأقيم في كاتدرائية سانت جود ول في بروكسل مصلى خاص لتخليد ذكرى القربان الذي أدمى ١٣٦٩ ، واحتفل بهذه المعجزة سنوياً في عيد يطلق عليه Flemish Kermess (٢٦) . واعترف أحد الكهنة في نيوبرج بأنه كان قد غمس قرباناً غير مكرس في الدم ونخبأه في إحدى الكنائس ثم اتهم

(*) Lollards جماعة من المصلحين السياسيين والدينيين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وهم في إنجلترا أتباع جون ويكلف الذي استقت نظرياته كثيراً من نقاط الإصلاح البروتستانتي الذي جاء فيما بعد . (الترجمة)

اليهود بطعنه (٢٧) ، وينبغي أن نضيف إلى هذا أن رجال الكنيسة المستنيرين مثل نيقولا أوف كوزا دماغ أساطير هجمات اليهود على القربان بأنها بخروبيب، من القسوة مخزية .

واستثرت المنافسات الاقتصادية وراء العداء الدينى . فعلى حين امتثل المسيحيون لأمر البابا بتحريم الزوائد الربوية ، حصل اليهود على ما كان يكون احتكاراً لإفراض النقود في العلم المسيحي . ولما تجاهل بعض أصحاب المصارف المسيحيين هذا التحريم ، هبت شركات مثل Pitti ، Bordini ، Strozzii في فلورنسه ، وولزرز Welsers ، Hochstetters ، Fuggers في أوجزبرج ، هبت تتحدى دانا الاستتكار ، ومن ثم تركزت هنا إثارة جديدة للخواطر ، وتناحى الطرفان ، المسيحيون واليهود ، كلاهما نسبة عالية - من فوائد القروض ، مما يعكس المنفعة بإقراض النقود في اقتصاد غير مستقر ، زاد من زعزعة ارتفاع الأسعار وانخفاض قيمة العملة . وغامر المقرضون اليهود أكثر مما فعل منافسوه . وباتت ديون اليهود على المسيحيين غير محققة وغير أدوية تكثفها مخاطرة كبيرة ، فقد تعان السلطات الكنسية تأجيل الدفع ، كما حدث في الحروب الصليبية ، وربما فرض المالك ، وقد فرضوا بالفعل ، على اليهود ضرائب يصادرون بها أموالهم ، أو ابتزوا القروض منهم قسراً ولأطردوهم وأحلوا مدينتهم من ديونهم أو تقاضوا نصيباً من المديون بجمعه من الأموال . وفي شمال الألب ظلت كل الطبقات تقريباً ، فيما عدا رجال الأعمال ، تعتبر الفائدة رباً ، ودمغوا بالإجرام أصحاب المصارف اليهود ، وبخاصة من يقترضون منهم . ومنذ كان اليهود بصفة عامة أكثر رجال المال خبرة وتجربة ، فقد استخدمهم المالك في كثير من الأقطار لإدارة الشؤون المالية في الدولة . وكانت رؤية اليهود الأثرياء يتقلدون مناصب مريخة ويجمعون الضرائب من الناس تثير استياء الشعب ويخطئه .

ومع هذا كله ، رحبت بعض المجتمعات المسيحية بأصحاب المصارف من اليهود : وقدمت لهم فركفورتي امتيازات خاصة شريطة تقاضيتهم نسبة $\frac{32}{100}$ فقط ، على حين تناضوا من آخربن 43% (٢٨) ، وقد نرى في هذا ما يشير نفورنا الشديد ، ولأننا نسمع من مقرضى نهود مسيحيين بلغ ما تقاضوه 266% ، وتقاضى آل هولز هورز في نورمبرج 220% في ١٣٠٤ ، وتقاضى المقرضون المسيحيون في برانديز 240% (٢٩) . كما نسمع عن مدن طالبت بعودة أصحاب المصارف اليهود باعتبارهم أكثر تساهلاً ورفقاً من نظرائهم المسيحيين . واشترطت رافنا : في معاهدة مع البندقية ، وجوب إرسال ماليتين يهود إليها لفتح حسابات مصرفية للنهوض بالزراعة والصناعة (٣٠) .

وأضافت الروح القومية نغمة جديدة إلى أنشودة البغض والكراهية : وذهبت كل أمة إلى أنها بحاجة إلى وحدة عرقية ودينية . وطالبت بامتصاص اليهود فيها أو تحويلهم عن دينهم . وكانت عمدة مجالس كنسية ، كما كان بعض البابوات يكرهون اليهود بشكل يتسم بالعدوان . وحرم مجلس فيينا (١٣١١) أى تعامل بين المسيحيين واليهود . واستئن مجلس زمورا (١٣١٣) قاعدة بأن يبقوا في حالة خضوع وعبودية صارمة . وجدد مجلس بال (١٤٣١ - ١٤٣٣) القوانين الكنسية التى تحرم على المسيحيين معايشة اليهود ، أو خدمتهم ، أو استخدامهم كأطباء ، وأصدرت التعليمات إلى السلطات المدنية بعزل اليهود في أحياء مستقلة ، وإلزامهم بوضع شارة مميزة ، والتحقق من حضورهم عظات تهدف إلى تحويلهم عن دينهم (٣١) . ولم يطق البابا يوجينيوس الرابع ، الذى كان في نزاع مرير مع مجلس بال ، أن يتفوق عليه هذا المجلس في إزعاج اليهود ، فأكد التجريد من الحقوق الذى وضعه هذا المجلس ، وأضاف أنه يجب ألا يكون اليهود مؤهلين لأية وظيفة عامة ، وألا يرثوا أية ممتلكات مسيحية ، وألا يشيدوا مزيداً من المعابد ، وأن يقبعوا في دورهم خلف الأبواب والنوافذ المغلقة

في أسبوع الآلام ، (احتياط حكيم ضد عنف المسيحيين) ، أضف إلى ذلك أنه لا يعتمد قانوناً بشهادة اليهود ضد المسيحي . وشكا يوجينديوس من أن بعض اليهود افتروا على يسوع ومريم في أحاديثهم . ويحتمل أن هذا كان صحيحاً (٢٢) ، فإن الكراهية تولد الكراهية . وأصدر يوجينديوس بعد ذلك موسوماً آخر يقضى بأنه إذا وجد يهودي يقرأ التلمود ، فلا بد من مصادرة أملاكه . وفرض البابا نيقولا الخامس القديس يوحنا كابسترا (١٤٤٧) ليراقب أن كل مادة في هذا التشريع المثل توضع موضع التنفيذ ، وليضع يده على ممتلكات أى طبيب يهودي تولى علاج فرد مسيحي (٢٣) .

وعلى الرغم من كل هذه المراسيم كان سلوك جمهور المسيحيين مع اليهود يتسم بتلك الروح الطيبة التي تسيطر على كل الناس تقريباً ، رجالاً ونساء . بل وعلى الحيوانات ، إذا لم يعترض سبيلهم أو يمس مصالحهم شيء . ولكن من الجائز أن يوجد في معظم الجماعات أقلية لا تتورع عن ممارسة أعمال القسوة إذا أمكن القيام بها مع الإفلات من العقوبة بصفة جماعية . ومن هذا القبيل جماعة « الباستير » ، وقد نشأوا كرعاة مرتبطين بالأرض المقدسة ، وجذبوا أنظار الدهماء من الناس لدى مرورهم بفرنسا (١٣٢٠) ، فقد عقدوا العزم على قتل كل من يصادفهم من اليهود الذين رفضوا التعميد . وفي تولوز اعتصم نحو ٥٠٠ من اليهود بأحد الأبراج ، فحاصروهم حشد هائج من الغوغاء ، وخيروهم بين التعميد أو الموت ، وحاول محافظ المدينة عبثاً إنقاذهم . ولما أدرك اللاجئون أن المقاومة ضرب من المحال ، أمروا نفرأ من الأقوياء فيهم بأن يذبحوهم . وقيل إنهم جميعاً بهذه الطريقة لقوا حتفهم فيما عدا واحداً ، عرض الإبقاء على حياته ، مع الإذعان للتعميد ، ولكن الحشد الثائر مزقه إرباً . وبمثل هذه الطريقة استؤصل نحو ١٢٠ جالية يهودية في جنوب فرنسا وشمال أسبانيا ولم يخلفوا وراءهم إلا بقية معدمة (٢٤) . وفي ١٣٢١ أحرق في شينون

١٢٠ يهوديا بتهمة تسميم الآبار (٣٥) ، وفي ١٣٣٦ أعلن أحد المتعصبين الألمان أنه تلقى الوحي من عند الله يأمره بقتل اليهود ثأراً لموت المسيح ، فجمع حوله نحو خمسة آلاف من الفلاحين ، أطلقوا على أنفسهم اسم Armleder نسبة لشريط من الجلد ربطوه حول أذرعهم ، وجاسوا خلال الألزاس وأراضي الراين ، وقتلوا كل يهودي شتروا عليه ، واجتاحت حمى القتل بافاريا وبوهيميا ومورافيا والنمسا (١٣٣٧) وحاول البابا بندكت الثاني عشر وقفها دون جدوى ، ولكن في راتسبون وفيينا فقط أمكن حماية اليهود بطريقة فعالة ، أما في الأماكن الأخرى فقد عذب الآلاف من اليهود وقتلوا (٣٦) .

وكان الموت الأسود كارثة خاصة حلت باليهود في العالم المسيحي . لقد أودى الطاعون نفسه بحياة المغول والمسلمين واليهود في آسيا ، وهناك لم يفكر أحد في إلقاء اللوم على اليهود ، ولكن في أوروبا الغربية حيث جن جنون الأهالي طول الوباء وما أحدثه من دمار ، اتهم اليهود بتسميم الآبار في محاولة لاستئصال المسيحيين . ونسج الخيال المسعور كثيراً من التفاصيل . ف قيل بأن يهود طليطلة أرسلوا رسلهم بصناديق مملأى بالسم الذي صنعوه من السمحالى والعظاءات (نوع من الزواحف) وقلوب المسيحيين ، إلى جميع الجاليات اليهودية في أوروبا ، مع توجيهات بإلقاء هذه السموم المركزة في الآبار والعيون ، ودمغ الإمبراطور شارل الرابع هذا الاتهام بالسخف الذى لا يعقل ، وكذلك فعل البابا كليمنت السادس (٣٧) ، وأيد كثيرون من عمد المدن والمجالس البلدية هذا الرأى ، ولكن ذلك كله لم يأت بنتيجة تذكر ، وساد بين المسيحيين اعتقاد باطل بأن الطاعون لم يكن يمس اليهود بسوء ، وربما كانت الحمى في بعض المدن أقل فتكاً باليهود منها بالمسيحيين . تبعاً لاختلاف القوانين الصحية والرعاية الطبية (٣٨) ، ولكن في بعض الأماكن مثل فيينا ، راتسبون ، أفنيون ، رومه ، عانى اليهود من الطاعون قدر ما عانى

المسيحيون^(٣٩) ، ومع ذلك عذب اليهود حتى اعترفوا بتوزيع السم^(٤٠) . وأغلق المسيحيون آبارهم وعيونهم ، وشربوا ماء المطر أو التاج المذاب ، وانتشرت المذابح الرهيبة في فرنسا وأسبانيا وألمانيا . وفي إحدى المدن في جنوب فرنسا أقيمت الخالية اليهودية بأسرها في النار . وأحرق كل اليهود في سافوي ، وحول بحيرة ليمان وفي برن وفريبورج وبروكسل . ومرة أخرى استنكر كايمنت السادس هذا الإرهاب وهذه التهمة ، وأعلن براءة اليهود ، وأشار إلى أن الطاعون كان شديداً حيث لا يوجد يهود ، قدر شدته في أي مكان آخر ، وحث رجال الدين على أن يكبحوا جماح الناس في أبرشياتهم ، وحرم من الكنيسة كل من قتل اليهود أو اتهمهم ظالماً وافتراء ، ولكن في ستراسبورج ، على أية حال ، شارك الأسقف في توجيه الاتهام ، وحرّض المجلس البلدي ، على كره من المجلس ، على أن ينفى كل اليهود . ورأى الجمهور أن هذا الإجراء معتدل ، فطرد المجلس وعين مجلساً غيره ، أمر بالقبض على كل اليهود في المدينة ، وهرب بعض هؤلاء إلى الريف ولكنهم لقوا حتفهم بأيدي الفلاحين : وبقي ألفان من اليهود في المدينة فأودعوا السجن ، وفرض عليهم التعميد ، فأذعن نصفهم ، ورفض الباقون فأحرقوا (١٤ فبراير ١٤٣٩) . وبلغ مجموع من أريدوا نحو ٥١٠ بجاليات يهودية في أوروبا المسيحية نتيجة هذه المذابح^(٤١) ، وهلك عدد أكبر من ذلك ، ففي سرقسطه على سبيل المثال ، عاش واحد من بين كل خمسة من اليهود بعد الموت الأسود وما صحبه من اضطهادات^(٤٢) . وقدر لي Lea أن ٣٠٠٠ من اليهود قتلوا في أرفورت ، ١٢٠٠٠ في بافاريا^(٤٣) . وفي فيينا بناء على نصيحة الخبر جونة Jonah تجمع كل اليهود في المعبد وقتلوا أنفسهم بأيديهم ، وحدث مثل هذا الانتحار الجماعي في ورمز ، أوبنهايم ، كرمز Krems ، فرانكنفورت^(٤٤) . وحمل الذعر آلافاً من اليهود على الفرار من أوروبا الغربية إلى بولندا أو تركيا . وقد يكون من

العسير أن نعثر ، قبل زماننا أو في سجلات للوحشية ، على أية أعمال أشد وحشية من قتل اليهود بالجملة في الموت الأسود .

وزحف اليهود الذين عمروا بعد الموت الأسود ، وئيداً إلى المدن التي كانت قد سلبتهم ، وأعادوا بناء معابدهم ، ولكن اشتد شعور الكراهية نحوهم ، حيث نسب الخطأ إليهم . وفي ١٣٨٥ أودع السجون كل اليهود في مدن « العصمة السوابية » وعددها ٣٦ مدينة ، ثم أطلقوا سراحهم على شريطة إلغاء كل الديون التي لليهود ، ونال هذا الإجراء كل الرضا في نورمبرج بصفة خاصة لأنها كانت قد اقترضت منهم ما يعادل نحو ٧٠٠.٠٠٠ دولار (٤٥) . وفي ١٣٨٩ ذبح عدد من اليهود بتهمة أنهم كانوا قد انتهكوا قدسية قربان مكرس . وبينفس التهمة أحرق ١٤ يهودياً في ابوتزن (١٣٩٩) (٤٦) . ولأسباب مختلفة طرد اليهود من كولون (١٤٢٤) ، ومن سيبر Speyer (١٤٣٥) ، ومن ستراسبورج وأوجزبرج (١٤٣٩) ، ومن ورزبرج (١٤٥٣) ، وأرفورت (١٤٥٨) ، وماينز (١٤٧٠) ، ونورمبرج (١٤٩٨) ، ومن أولم (١٤٩٩) . وأقر مكسيمليان الأول طردهم من نورمبرج على أساس أنهم « قد كثر عددهم وأنهم بفضل معاملاتهم الربوية وضعوا أيديهم على ممتلكات كثير من أفاضل المواطنين ، وجروهم إلى مهاوى البؤس والعار » (٤٧) . وفي ١٤٤٦ أودع كل اليهود في نطاق براندنبرج السجون وصودرت بضائعهم بאתهامات دمعها ستيفن أستيف المدينة بأنها تخفي وراءها الجشع والطمع ، « لقد تصرف تصرفاً جائراً أولئك الأمراء الذين دفعهم جشعهم المفرط إلى القبض على نفر معين من اليهود وإلقاءهم في غياهب السجون دون مرر عادل . وهم يرفضون أن يعرضوهم عما ابتزوا منهم » (٤٨) . وفي ١٤٥١ فرض نيقولا كاردينال كوزا ، وهو من أكثر الرجال استنارة في القرن الخامس عشر ، على اليهود المقيمين في حدود ولايته وضع الشارة : وبعد ذلك بعامين بدأ يوحنا كابسترانو بوصفه ممثلاً للبابا نيقولا الخامس ،

مهمته في ألمانيا وبوهيميا ومورافيا وسيليزيا وبولندا . واتهم في عظامته المتهمة اليهود بقتل الأطفال وتدنيس القربان ، وهي اتهامات كان قد دمجها البابوات بأنها خرافات قتالة . وأخرج أدواق بافاريا كل العبرانيين من دوقيتهم بعد أن ألهمهم « سوط اليهود » . هذا . أما جودفري أسقف ورزبرج الذي كان قد منح اليهود امتيازاتهم كعادة في فرانكونيا ، فإنه عاد الآن فنفاهم ، وفي المدينة تلو المدينة قبض عليهم وألغيت كل الديون التي كانت لهم . وفي برسلاو سجن عدد من اليهود بناء على طالب كابسترانو ، وأشرف هو بنفسه على التعذيب الذي انتزع من بعضهم أي اعتراف أمر كابسترانو بالإدلاء به ، وعلى أساس هذا الاعتراف أعدم أربعون منهم حرقاً (٢ يونيو ١٤٥٣) . ونفى اليهود الباقيون ، ولكن أطفالهم انتزعوا منهم وعمدوا بالقوة (٤٩) . وضم كابسترانو إلى قائمة القديسين ١٦٩٠ .

وإن محنة اليهود في راتسبون اتوضح حقيقة هذا العصر . فقد زعم هانز فوجل ، وهو يهودي تنصر أن أحد الأخبار واسمه إسرائيل بروننا ، في الخامسة والسبعين من العمر كان قد ابتاع منه طفلاً مسيحياً وقتله ، ليستخدم دمه في أحد الطقوس اليهودية . وآمن الناس بصحة الاتهام ، وتعالص صيحاتهم مطالبين بعقوبة الموت للحبر العجوز . وألقى مجلس المدينة بالشيخ العجوز في السجن إنقاذاً له من أيدي الجمهور . وأمر الإمبراطور فريدريك الثالث بالإفراج عنه . ولم يجرؤ المجلس على الامتثال للأمر ، ولكنه قبض على فوجل ، وأبلغه أنه لا مناص من موته ، وطالب إليه أن يعترف بخطايه . فأقر أن بروننا بريء ، وأفرج عن الحبر . ولكن ترامت الأنباء إلى راتسبون عن اعتراف بعض اليهود تحت وطأة التعذيب بقتل طفل مسيحي في ترنت . وهنا نشأ من جديد الاعتقاد بصحة اتهام فوجل ، فأمر المجلس باعتقال كل يهود راتسبون ومصادرة بضائعهم ، وتدخل فريدريك ، وفرض على المدينة غرامة قدرها ثمانية آلاف جيلدر ، ووافق المجلس على إطلاق سراح اليهود

إذا دفعوا هذه الغرامة ، وفوقها مبالغ ١٠ آلاف جيلدر بصفة كفالة (٢٥٠,٠٠٠ دولار ؟) . فأجاب اليهود بأن هذا المبلغ (١٨٠,٠٠٠ جيلدر) يزيد على كل ما تبقى لهم من ممتلكات ، ومن ثم يتعذر عليهم دفعه . وقضوا في السجن عامين آخرين . ثم أطلق سراحهم بعد أن أقسموا اليمين ألا يغادروا راتسبون وألا يحاولوا الانتقام . على أن رجال الدين أهابوا الشعور لطردهم وهددوا بالحرمان من الكنيسة كل تاجر يبيع اليهود شيئاً . ولم يبق في سنة ١٥١٠ سوى ٢٤ أسرة يهودية ، وطرد هؤلاء في ١٥١٩ (٥٠) .

ووصف طرد اليهود من أسبانيا ، فيما أسلفنا من قبل ، بأنه عمالة مهمة بالنسبة لتاريخ تلك البلاد . وتجدد في البرتغال اضطهادهم عندما سمح البابا كليمنت السابع ، بتحرير من شارل الخامس ، للأساقفة البرتغاليين بإنشاء محكمة التفتيش (١٥٣١) بقصد فرض الشعائر المسيحية على « المسيحيين الجدد » ، ومعظمهم من اليهود الذين كانوا قد عمدوا رغم إرادتهم . وطبق قانون توركيادا الصارم ، وبشت العيون والأرصاء لملاحقة ارتداد أي من المنتصرين إلى شيء من الطقوس الدينية اليهودية ، وسجن الآلاف من اليهود ، وحرمت عليهم الهجرة ، لأن مهامهم الاقتصادية كانت لا تزال ضرورية للاقتصاد البرتغالي . وحرّم على المسيحيين شراء شيء من أملاك اليهود منعاً لهم من الهرب ، وأرسل مئات من هؤلاء إلى المحرقة لمحاولتهم مغادرة البلاد . وصعد كليمنت لهذه الإجراءات ، وربما أثرت فيه هدايا اليهود ، فأبطل سلطة محكمة التفتيش البرتغالية ، وأمر بإطلاق سراح كل من أمرت بسجنهم ، وإعادة بضائعهم المصادرة . ونص مرسومه الصادر في ١٧ أكتوبر ١٥٣٢ على بعض مبادئ إنسانية للتعامل مع المرتدين عن المسيحية .

لما كانوا قد سيقوا إلى التعميد قسراً ، فلا يجوز أن يعتبروا أعضاء في الكنيسة . وإن في معاقبتهم على الهرطقة والانتكاس إلى شعائرتهم الأولى ، خرقاً لمبادئ الإنصاف والمساواة ،

والأمر يختلف فيما يتعلق بأبناء وبنات الموارنة الأولين فإنهم يتبعون الكنيسة كأعضاء مختارين غير مكرهين ، وبما أنهم نشأوا في أحضان أقرباء لهم من اليهود ، وشاهدوا هذا النموذج ماثلاً دوماً تحت بصرهم ، فإنه من القسوة أن نعاقبهم بمقتضى قانون الكنيسة ، بتهمة الردى في أساليب اليهود ومعتقداتهم . إنهم يجب أن يظاوا في أحضان الكنيسة بالمعاملة الحسنة (٥١) .

ويتبين أن كليمينت كان مختصاً من رسالة بعث بها عند ما شعر بدنو أجله ، إلى القاصد الرسولي في البرتغال في ٢٦ يوليو ١٨٣٤ ، يأمره بالإسراع بإطلاق سراح المسجونين المرتدين (٥٢) .

وتابع البابا بول الثالث بذل الجهد لمعاونة اليهود البرتغاليين ، وأطلق سراح ١٨٠٠ من المسجونين ، ولكن عند ما عاد شارل من حملته التي كانت في ظاهرها ناجحة ضد تونس ، طالب ، مكافأة له ، بإعادة محكمة التفتيش في البرتغال . ووافق بول على كره منه (١٨٣٦) ، ولكن بشروط بدا للملك جون الثالث أنها تنسخ موافقته — منها ضرورة مواجهة المتهم بمن اتهمه . وإثبات حق المحكوم عاينه في استئناف الحكم أمام البابا . وساعد مرتد متعصب المحققين بأن علق على جدران كاتدرائية لشبونة إعلاناً جريئاً جاء فيه : « أن المسيح المخلص لم يظهر بعد ، وأن يسوع ليس هو المخلص ، وأن المسيحية شتمت افتراء » (٥٣) . ولما كان من الواضح أن مثل هذه العبارات قصد بها إيلاء اليهود ، فإن لنا أن نرتاب بحق في أحد العملاء المحرضين : وعين بول لجنة من الكاردينالات لفحص إجراءات محكمة التفتيش البرتغالية : وقد جاء في تقريرها :

إذا اتهم مسيحي زائف — وغالباً ما يكون ذلك عن طريق شهود مفترين — ساقه المحققون إلى منزل موحش لا يرى

فيه أرضاً ولا سماء ، وأقل ما يقال إنه لا يخاطب فيه صديقاً يواسيه أو يسعته . ويتمونه بمقتضى شهادة غامضة ولا يثبتونه بالزمان أو المكان الذي اشتهر فيه الجريمة التي يحاكم من أجلها . ويسمح له فيما بعد باختيار محام عنه غالباً ما يقوده إلى طريق المحرقة ، بدلاً من الوقوف إلى جانبه والدفاع عن قضيته . دح مخاوفاً منكود الحظ يقر بأنه مسيحي مؤمن حقاً ، وينكر إنكاراً قاطعاً الخطايا التي سبقت لاتهامه ، فإنهم يسلمونه إلى النار ، ويصادرون بضاعته . أو دعه يدفع بأنه مذنب في كذا وكذا من الأعمال ، ولو أنها ارتكبت عن غير قصد ، فإنهم يعاملونه بالطريقة نفسها ، مدعين بأنه ينكر عناداً نيته ومقاصده السيئة . أو دعه يعترف اعترافاً كاملاً صريحاً بصحة ما اتهم به ، فإنهم يسومونه أشد ضروب الحرمان ، ويحكمون عليه بالبقاء في زنزانة كثيفة مظلمة لا يرى فيها النور ، ويسمون هذا « معاملة المتهم بالرحمة والرأفة والبر المسيحي » ! وحتى الذين يفلحون في إثبات براءتهم يحكم عليهم بدفع غرامة ، حتى لا يقال إنه قبض عليهم بلا سبب . أما المتهمون المودعون في السجون فإنهم يعذبون بكل آلات التعذيب حتى يقرؤا بما وجه إليهم من اتهامات . وكثيرون يقضون نحبهم في السجن . أما الذين يطلق سراحهم ، فإنهم هم وذوي قراهم يدمغون بالعار الأبدي (٥٤) .

لقد أزهقت التطورات السياسية البابا بول ، وأقضى مضجعه خطر فقدان أسبانيا والبرتغال ، كما كان البابا ليو قد فقد ألمانيا ، والبابا كايمنت إنجائرا ، ولكن بول على الرغم من ذلك بذل قصارى جهده للتخفيف من حدة محاكم

التفتيش ، ولكن الإرهاب كان يستشري يوماً بعد يوم ، حتى وجد يهود البرتغال ، بكل وسيلة يائسة ، مهرباً من مضيقهم ، وانضموا إلى إخوانهم في أسبانيا سعياً وراء ركن يقعون فيه بالعالم المسيحي أو أرض الإسلام ، ويمكن أن يحتفظوا فيه بشريعتهم مع الإبقاء على حياتهم .

٣ - الشتات الثاني

إلى أين يذهب اليهود ؟ إن جزيرتي سردينيا وصقلية اللتين كانوا قد قطنوا فيهما لمدة ألف سنة من قبل ، قد شملهما ، بالإضافة إلى أسبانيا ، المرسوم الذي أصدره فرديناند بطردهم . وما ساءت ١٤٩٣ حتى كان آخر يهودي قد غادر بالرمو . وفي نابولي استقبل فرانت الأول والإخوان الدومينيكان والجمالية اليهودية المحلية ، آلاف اللاجئين بالترحاب . ولكن شارل الخامس أصدر في سنة ١٥٤٠ مرسوماً بطرد اليهود من نابولي .

وكان في جنوه لزم من طويل قانون يحدد دخول أعداد إضافية من اليهود . ولما وصل المرتدون من أسبانيا ١٤٩٢ ، لم يسمح لهم بالبقاء لأكثر من بضعة أيام قليلة . ولقد وصفهم مؤرخ جنوى بأنهم أشباح بالغة الهزال والشحوب والنحول ، عيونهم غائرة ، ولا يفرقهم عن الموتى سوى قدرتهم على الحركة » (٥٥) . ومات الكثيرة منهم جوعاً ، وحملت الأمهات أطفالاً موتى ، وباع بعض الآباء أبناءهم ليدفعوا أجر الانتقال من جنوة . واستقبل نفر قليل من المنفيين في فيرارا ، ولكن طلب إليهم أن يضعوا شارات صفراء (٥٦) وربما كان هذا بمثابة احتياط ضد انتشار المرض .

وكانت البندقية لعهد طويل مأوى لليهود . وكم من محاولات كانت قد بذلت لإخراجهم منها (١٣٩٥ - ١٤٨٧) ولكن السناو تولى حمايتهم لأنهم كانوا يسهمون إسهاماً هاماً في الاقتصاد والمال ، ويتولون الجزء الأكبر من تجارة الصادرات في البقية ، وكانوا نشيطين في استيراد الصوف

والحرير من أسبانيا ، والتوابل واللؤلؤ من الهند (٥٧) . ولفترة طويلة كانوا
يقطنون ، بمحض اختيارهم الحى الذى سمي باسمهم (حى اليهود) . وفي
١٥١٦ وبعد تشاور مع زعماء اليهود ، قضى السناتو بأن يقطن كل اليهود ،
فيما عدا نفر قليل مرخص لهم بصفة خاصة ، فى قطاع من المدينة عرف
باسم Ghetto أى حى خاص ، والظاهر أن هذا اللفظ مأخوذ عن كلمة
getto ، أو مسبك كان هناك (٥٨) . وأمر السناتو كل اليهود المرتدين بمغادرة
البندقية ، وقد شجع المسيحيون المنافسون هذا الإجراء . على أن بعض
التجار المسيحيين عارضوه لأنه يهدد بفقدان أسواق معينة ، وخاصة فى
العالم الإسلامى ، ولكن شارل الخامس استخدم كل نفوذه فى الموضوع ،
ونفذ مرسوم الطرد (٥٩) . على أنه لم يمض وقت طويل حتى زحف التجار
اليهود إلى البندقية ثانية ، وحل المنفيون من البرتغال محل اليهود المنتصرين
الذين طردوا ، وأصبحت اللغة البرتغالية لبعض الوقت هى لغة اليهود
البندقة .

واستقبل البابا الإسكندر السادس استقبالا كريماً فى رومه كثيراً من
المنفيين من شبه جزيرة إيبيريا ، وازدهرت أحوالهم فى عهد جوليوس
الثانى ، وليو العاشر ، وكليمنت السابع ، وبول الثالث . وأباح كليمنت
للمرتدين ممارسة الطقوس اليهودية فى حرية تامة ، ووثناً بأنهم غير ملزمين
بأى تعميم إجبارى (٦٠) . وفى أنكونا ، ثغر الولايات البابوية على
الأدرياتيك ، حيث كان اليهود عنصراً نشيطاً فى التجارة الدولية ، أنشأ
كليمنت مأوى لليهود الذين أعلنوا عن ديانتهم وضمن لهم عدم التحرش
بهم ، أما بالنسبة للبابا بول الثالث فيقول الكاردينال سادوليتو :
« لم يغلد أى من البابوات على المسيحيين من التكريم والحفاوة والامتيازات
والمنح مثل ما أغلد بول الثالث على اليهود . إنهم لم يحظوا بالمساعد
فقط بل إنهم تزودوا كذلك عملياً بالمنافع والامتيازات (٦١) » . وشكا

أحد الأساقفة من أن اليهود المرتدين عند دخولهم إلى إيطاليا أسرعوا بالعودة إلى ممارسة الطقوس اليهودية ونحتاز أطماعهم الممهددين ، تحت بصر البابا والأهالي ، في الغالب . وتحت ضغط هذه الانتقادات أعاد بول محاكم التفتيش في رومه (١٥٤٢) ، ولكنه ، وقف إلى جانب المرتدين طوال حياته (٦٢) .

وتحول خفاؤه - وقد ضيقت عليهم الخناق الزكاسة عن أساليب الرفق واللين التي سادت عصر النهضة - تحولوا إلى سياسة إزعاج اليهود وإغلاق بالهم . وطبقت المراسيم البابوية القديمة . وفرض بول الرابع (١٥٥٥ - ١٥٥٩) على كل معبد أن يسهم بعشرة دوكات (٢٥٠ دولاراً ؟) في إقامة دار للمتنصرين ليتلقى فيها اليهود تعاليم المسيحية . وحرم على اليهود استخدام نخدم أو ممرضات مسيحيات أو علاج مرضى مسيحيين ، أو أن يبيعوا المسيحيين شيئاً غير الملابس القديمة ، أو أن يقيموا مع المسيحيين أية معاملات أو علاقات ممنوعة . وما كان لهم أن يستعملوا إلا التقويم المسيحي . وهدمت كل معابد اليهود في رومه إلا واحداً ، وحرم على اليهودي أن يمتلك عقاراً ، وإذا كان لأحد منهم أى عقار فبإيه أن يبيعه في بحر ستة شهور ، وبهذه الطريقة استطاع المسيحيون أن يشتروا بما يعادل ٥٠٠,٠٠٠ كراون (١٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار) من أملاك اليهود بخمسة قيمته الفعلية (٦٣) . وانحصر كل اليهود الذين بقوا آنذاك في رومه (١٥٥٥) في حى معزل عاش فيه عشرة آلاف شخص في كيان متر مربع فقط ، وشغلت عدة أسرات حجرة واحدة . وتعرض الحى ، بسبب انخفاض مستواه ، للفيضانات الدورية لنهر التيبر ، حتى جعل من هذه البقعة مستنقاعاً ملوثاً بالطاعون (٦٤) . وأحيط الحى بأسوار كثيفة تغلق أبوابها في منتصف الليل وتفتح عند الفجر ، فيما عدا أيام الأحد والعطلات المسيحية فإنها تظل مغلقة طوال اليوم . وألزم اليهود بأن يلبسوا خارج هذا المعزل زياً مميزاً - لرجال

قبة صفراء ، للنسوة خمار أو شارة صفراء . — وأقيمت أحياء منعزلة مثل هذا في فاورنسا وسيينا ؛ وبمرسوم من البابا في أنكونا وبولونيا ، وكانت تسمى هناك *Enferno* (٦٥) (الجحيم) . وأصدر بول الرابع أمراً سرياً بوضع كل المرتدين في أنكونا في سجون محكمة التفتيش وبمصادرة بضائعهم . وأحرق هناك أربعة وعشرون رجلاً وامرأة واحدة أحياء بتهمة أنهم هراطقة مرتدون (١٥٥٦) (٦٦) وأرسل سبعة وعشرون يهودياً للتجديف على السفن الشراعية إلى الأبد (٦٧) . وكان هذا بالنسبة لليهود إيطاليا انتقالا من عصر ذهبي إلى شفق شاحب .

وتسللت حفنة من الإيجيين اليهود إلى فرنسا وإنجلترا على الرغم من القوانين التي تنص على إبعادهم . وكانت ألمانيا كلها تقريباً مغارقة في وجوههم . وقصد كثيرون إلى أنتورب ، ولكن سمح لنفر قليل منهم فقط بالإقامة لمدة تزيد على شهر . وأسس ديوجومنديس — وهو برتغالي مرتد — في أنتورب فرعاً للبنك الذي كانت أسرته قد أسسته في لشبونه . وفي ١٥٣٢ لاقى من النجاح ما حدا بمجلس أنتورب على القبض عليه مع خمسة عشر آخرين بتهمة ممارسة اليهودية . وقدخل هنري الثامن الذي استخدم منديس وكيلاً بالياً ، وأطلق سراح ثلاثة عشر ، بعد دفع غرامة فادحة ، وهذا هو « الغرض الأسمى » من كل حالات القبض . وانتقل اليهود الآخرون إلى أمستردام حيث كان من الممكن أن تنتعش أحوالهم بعد تحرر هولندا من نير أسبانيا سنة ١٥٨٩ .

أما هؤلاء اللاجئون الذين التمسوا مأوى في الأراضي الإسلامية التي لا تخضع مباشرة لسيطرة سلطان تركيا ، فقد صاروا إلى حالة أحسن بقليل منها في العالم المسيحي . وأطاق المغاربة النار على اليهود الذين حاولوا أن يحطوا رحالهم في أوران والجزائر وبوجيا ، وبقى عدد وثير منهم حتفهم . ولما منعوا من الدخول إلى المدن أقاموا معزلاً مرتجلاً من الأكواخ من خشب الأشجار ، وشببت النيران في أحد الأكواخ ، فالتهمت المستوطنة عن آخرها

مع كثير من اليهود ، أما الذين قصصوا إلى فاس فقد وجدوا الأبواب موصدة دونهم ، فاحتلوا بعض الحقول وعاشوا على الأعشاب وجندور الشجر ، وقتل الأمهات أطفالهن خيراً من أن يرينهم يموتون جوعاً . وباع الآباء أبناءهم في مقابل قطعة من الخبز . وأتى الطاعون على مئات من الأطفال والشبان . وهاجم القراصنة المعسكر وسرقوا الأطفال لبيعهم الرقيق (٦٨) . ومزق القتلة أجسام اليهود عسائم يعبرون على مجوهرات اعتقدوا أن اليهود قد ابتلعوها (٦٩) . وبعد كل هذه المصائب والكوارث ، أنشأ الذين عمروا بعدها ، في شجاعة لا تصدق ، في ظل ألوان من الضعف والعجز لا نهاية لها ، جاليات يهودية جديدة في المغرب العربي . وفي الجزائر ، خاطر سيمون ديوران الثاني بحياته المرة بعد المرة ، لحماية المنفيين ، وتنظيمهم بشكل يوفر لهم شيئاً من الأمن . وفي فاس أصبح يعقوب يراب أشهر علماء التلمود في زمانه .

ولقي المنفيون من إسبانيا ، استقبالا إنسانياً في القاهرة تحت حكم سلاطين المماليك والعثمانيين ، وسرعان ما سموا إلى زعامة الجالية اليهودية . وألغى سليم الأول وظيفة Nagid « الأمير » وفيها كان يتولى أحد الأعيان تعيين سائر الأعيان ، ويشرف على شئون كل اليهود في مصر ، وبعد ذلك أصبح لكل جالية يهودية أن تختار حبراً لها وأن تتولى شئونها الداخلية بنفسها وأنهى حبر القاهرة الحديد وهو داود بن أبي زمرة وهو مهاجر أسباني — استخدام التقويم البابلي القائم على تقسيم الزمن إلى فترات — الذي كان يهود آسيا وأفريقية يستعملونه — وحسبهم على اقتباس تقويم آخر (كما فعل يهود أوروبا في القرن الحادي عشر) وهو تقويم قائم على حساب السنين منذ بدء الخليفة الذي حدد مؤقثاً بعام ٣٧٦١ قبل الميلاد .

وحيثما ذهب يهود أيبيريا (Sephardic) سخطوا بالزعامة الثقافية ، والسياسية

في الغالب ، على اليهود المحليين . ففي سالونيك أصبحوا ، وظلوا حتى ١٩١٨ ، غالبية عددية بين السكان ، حتى أن اليهود غير الإسبان الذين جاعوا ليعيشوا في هذه المدينة ، كان لزاماً عليهم أن يتعلموا اللغة الإسبانية . وفي ظل هذه السيطرة اليهودية ، كانت سالونيك لفترة من الزمن أكثر المراكز التجارية ازدهاراً في شرق البحر المتوسط .

ورحب السلطان بايزيد الثاني في تركيا باليهود المنفيين ، لأنهم أحضروا معهم ، على وجه الدقة ، تلك المهارات اللازمة للحرف والصناعات اليدوية والتجارة والطب . مما لم تكن تركيا قد توسعت فيه وطورته إلا في أقل الحدود . وقال بايزيد عن فرديناند الكاثوليكي : « إنكم تقولون إن فرديناند ملك حكيم عاقل ذلك الذي أفقر بلاده وأغنى بلادنا » (٧٠) . وخضع اليهود ، شأنهم شأن غير المسلمين في أرض الإسلام ، لضريبة الرأس ، ولكن هذه الضريبة أعفقتهم من الخدمة العسكرية ، وبقي معظم يهود تركيا فقراء ، ولكن كثيراً منهم أثري وسما إلى مراكز النفوذ . وسرعان ما أصبح كل أطباء انقسطنطينية تقريباً من اليهود . وكان طبيب سامان من ذوي الخطوة لديه ، إلى درجة أنه أعفاه وأعفى أسرته من كل الضرائب وبرز اليهود في المناصب الدبلوماسية في عهد سليمان ، حتى أن السفراء المسيحيين كان لزاماً عليهم أن يتوددوا إليهم تقرباً إلى السلطان . وكان لأبناء اضطهاد اليهود في أنكونا على يد بول الرابع وقع شديد في نفس سامان ، واحتج عليها لدى البابا (٩ مارس ١٥٥٦) وطلب الإفراج عن رعايا تركيا من اليهود في أنكونا ، ونعلا أطلق سراحهم (٧١) . وآوى جراسيا منديزيا ، وهو أحد أفراد أسرة منديس الذين اشتغلوا بالأعمال المصرفية ، إلى اسطنبول ليجد فيها أخيراً الأمن والطمأنينة ، بعد أن أتي كثيراً من أعمال البر

والخير في أنتورب وفيرارا والبندقية ، ولقي جزاء سنهار من الإساءة والأذى :

وفي عهد الأتراك استقبلت الأرض المقدسة مرة أخرى ، القوم الذين كانوا قد أضفوا عليها القداسة أول الأمر . ولما كانت القدس مقدسة لدى المسيحيين والمسلمين ، قدر ما هي مقدسة لدى اليهود ، فإنه لم يسمح بالإقامة فيها إلا لعدد محدود من العبرانيين . أما في صفد في الجليل الأعلى ، فقد ازداد عدد اليهود وارتفعت مكانتهم الثقافية بسرعة ، حتى أن يعقوب بيراب حاول أن ينشئ هناك جمعية *Sanhedrin* (*) ، تكون بمثابة هيئة عليا تتولى الحكم بين جميع اليهود . وكانت تلك فكرة جريئة . ولكن اليهود كانوا موزعين في شتى البلاد متباينين في اللغة وطرق الحياة ، إلى حد لا يسمح بتوحيد الحكم . وعلى الرغم من ذلك فإن اليهود في أرض الإسلام وفي العالم المسيحي ، كانوا في صلواتهم يتضرعون إلى الرب « ليجمع شتاتهم ويلم شملهم من أركان الأرض الأربعة » . وفي يوم الكفارة *Yom Kippur* ، وفي يوم عيد الفصح يجتمع اليهود في كل مكان في العالم حول الأمل الذي تشبهوا به فأبقى عليهم وسط الحزن ، ويرددون : « سنكون في العام القادم في فلسطين » (٧٢) :

٤ - فن البقاء

إن قدرة اليهود على الإفاقة من كبوتهم وتخطي الحزن التي حلت بهم ، هي إحدى عجائب التاريخ التي تترك في النفس انطباعاً ، وهي جزء من المرونة البطولية التي أظهرها البشر عامة بعد كوارث الحياة :

(*) *Sanhedrin* : جمعية هي بمثابة المحكمة العليا والمجلس الأعلى لشعب اليهود القديم ، جمعت بين المهام الدينية والمدنية ، وتكونت من ٧١ عضواً تحت رئاسة الكاهن الأعظم . ألغيت بعد تدمير أورشليم في سنة ٧٠ م . (الترجمة)

ولم يكن التمييز العنصرى أسوأ إهانة لحقتهم ، فقد كانوا أكثر أمناً وسعادة فيما بينهم ، منهم وسط الجمهور الذى يضمهم لهم العداء ، والفقر أمكنهم أن يتحملاه لأنهم كانوا قد ألفوه لعدة قرون ، ولم يكن خالصاً بهم ، والحق أن فخرهم بالثراء العارض كان أقرب احتمالاً من شعورهم بالفقر الذى عانوه منذ أزمان سحيقة . أما أنكى الجراح ، مهما كان الباعث عليه ، فهى الشارة أو الزى المميز الذى دمغهم بأنهم محتقرون منبوذون بين الناس . وكتب مؤرخ اليهود العظيم فى مرارة يقول :

إن شارة اليهودى كانت بمثابة إغراء للصبيحة المتشردين بإهانة حامليها وقدفهم بالأحوال ، وإيحاء لجموع الرعاع الحمقى بالانقضاض عليهم وإساءة معاملتهم ، بل حتى قتلهم ، كما هيأت للطبقة العليا فرصة نبتد اليهود ونهبهم أو نفيهم . وأسوأ من هذا العار الخارجى ، أثر الشارة فى اليهود أنفسهم . فقد اعتادوا أكثر فأكثر على مركزهم المحقير المذل ، وفقدوا كل إحساس باحترام الذات : فأهملوا مظهرهم الخارجى : . وأصبحوا أكثر فأكثر لا يعنون بحديثهم لأنهم لم يسمح لهم بارتداد دوائر الثقافة ، أما فيما بينهم فكانوا يفهمون بعضهم بعضاً برطانة غامضة « وفقدوا كل تذوق للجمال وإحساس به . وأصبحوا إلى حد ما حقراء كما أرادهم أعداؤهم أن يكونوا (٧٣) .

إن هذا وصف يتسم بالمبالغة والتعميم أكثر مما ينبغى ، فكم من اليهود احتفظوا بكبريائهم وتألقوا فى ملابسهم الفاخرة ، ولنا لنسمع المرة بعد المرة عن بنات يهوديات اشهرن بجمالهن ، وعن Judisch التى تطورت فى القرن السادس عشر إلى لغة ألمانية فيها اقتباسات عبرية وسلافية . كانت ننتج أدباً قوياً متنوعاً حينما كتب جرايتز كتابه « تاريخ اليهود » . وعلى

نهاية حال ، فإن أكبر جريمة ارتكبت في تلك القرون هي الخط عمداً من قدر شعب بأسره ، وقتل النفس بلا شفقة أو رحمة :

وكان الجزء الذي لا يتجزأ من هذه الجريمة وأساسها ، استبعاد اليهود من كل الأعمال والأشغال تقريباً ، فيما عدا التجارة والشئون المالية . ولأسباب سبق إيجازها (٧٤) ، ولأن الكنيسة كانت تطالب بعشر غلة الأرض المنزرعة ، تراجع اليهود أكثر فأكثر عن زراعة الأرض ، وأخيراً حرم عليهم امتلاك الأراضي (٧٥) : ولما كان محرماً عليهم الانضمام إلى النقابات (التي كانت رسمياً منظمات مسيحية دينية) فلمنهم لم يتمكنوا من الدخول إلى عالم الصناعة ، وطوقت الاحتكارات المسيحية عملياتهم التجارية : وعلى الحملة وجدوا أنفسهم ، في معاملاتهم مع المسيحيين ، محدودين بنطاق ضيق من الصناعة والتجارة وتسليف النقود . وفي بعض البقاع كان محرماً عليهم أن يبيعوا للمسيحيين شيئاً سوى البضائع القديمة المستعملة ، وفقدوا ، بعد القرن الثالث عشر ، تفوقهم السابق في عالم المال ، ذلك التفوق الذي كان يشير حقد الآخرين وحسدهم ، ولكن رأسمالهم السائل ، ومعرفة بلغات العالم ، واتصالاتهم الدولية عن طريق أقربائهم المنتشرين في كل مكان ، كل أولئك مكنهم من تحقيق مركز عال في التجارة الأجنبية للدول المسيحية . وكان دور اليهود في هذا المجال هائلاً إلى حد أن الدول التي طردتهم ، خسرت الكثير من حجم تجارتها الدولية . أما تلك التي رحبت بهم فأكسبت هذا المجال : وهذا سبب واحد ، وليس السبب الرئيسي ، في أن أسبانيا والبرتغال اضمحلتا ، على حين انتعشت هولنده ، وفي أن أنتورب أسلمت زعامتها التجارية إلى أمستردام :

وكان لليهود عزاء وإنقاذ في أن تحكمهم ، في شئونهم الداخلية ، قوانينهم وأعرافهم وأخبارهم ومجالسهم الدينية . ففي اليهودية ، كما هو الحال في

الإسلام ، نجد الدين والقانون والأخلاقيات شيئاً واحداً لا يتجزأ . فقد اعتقدوا أن الدين يتمشى مع الحياة على طول الخط : وفي ١٣١٠ صاغ الحبر يعقوب بن أشر القانون والطقوس والأخلاقيات اليهودية في « أربعة لوائح » ، حلت محل « تعاليم الأحبار » التي وضعها ابن ميعون (١١٧٠) ، مع سجل وضعت فيه كل تشريعات التامود وأحكام الجيونيم Qim ، وأصبحت كلها مازمة لجميع اليهود في كل مكان . وأصبح كتاب « الحدود الاربعة » المرشد المتفق عليه في أية قوانين حبرية أو أحكام حتى ١٥٦٥ .

وقوضت مصائب القرنين الرابع عشر والخامس عشر أركان التنظيم الاجتماعي لدى اليهود : ومات من الأحبار ، كمات من القساوسة ، عدد كبير جداً ، في الموت الأسود ، ووضعت عمليات الاضطهاد والطرده وحياة اللاجئين ، خاتمة للقانون اليهودي : ووجد يهود أيبيريا من العسير عليهم أن يتقبلوا لغات وأعراف الجاليات اليهودية التي عرضت انضمامها إليهم ، فأقاموا معابد خاصة بهم واحتفظوا بلغتهم الإسبانية أو البرتغالية : ووجدت في كثير من المدن تجمعات منفصلة من اليهود الإسبانين أو البرتغاليين أو الإيطاليين أو اليونانيين أو الألمان ، ولكل طائفة حبرها وعاداتها وصدقاتها وأحقادها (٧٦) . وفي وسط هذه الأزمة أنقذت الأسرة اليهودية شعب اليهود ، فإن الإخلاص المتبادل بين الآباء والأبناء ، وبين الإخوة والأخوات هياً جواً من الاستقرار والأمن : وانتهت قرون الفوضى في الأعراف والعادات اليهودية عندما أصدر الحبر يوسف كارو من صفد كتاب « تنسيق الشريعة Shulchan Aruch » (البندقية ١٥٦٤ - ١٥٦٥) ، سجل فيه الدين والقانون والأعراف اليهودية مرة أخرى ، ولكن مذ بنى كارو تشريعه على اليهودية الإسبانية أساساً ، فإن يهود ألمانيا وبولندا أحسوا بأنه لم يول إلا عناية يسيرة لتقاليدهم وتفسيراتهم للقانون . وأضاف الحبر موسى إسرل Esserles من كراكاو إلى « تنسيق الشريعة » تنسيق التنسيق » (١٥٧١) صاغ فيه

خلافات الأشكنازي مع قانون كارو الذي كان في معظمه أسبانيا . وبهذا التنقيح بقي كتاب « تنسيق الشريعة » حتى وقتنا هذا مرجع اليهود ذوى العقيدة الصحيحة ، وكأنه « جستنيان أو بلاكستون » فإذا قلت عن يهودى إنه امتثل لكل التعاليم التى وردت فى « تنسيق الشريعة » فهذا ذروة المديح والثناء .

ولما كانت كل صياغة جرت للقانون اليهودى مبنية على التلمود ، فيمكن - أو هل يمكن ؟ - أن نتصور الدعر الذى تابع به اليهود تقلبات كتابهم المقدس الثانى . وفى القسم الأدبى من التلمود ، وهو قسم أقل وثوقاً ، ويسمى « هجادة Haggada » ، توجد بعض أجزاء نهزأ ببعض معتقدات مسيحية معينة ، وقد مهد اليهود المتحولون إلى المسيحية طريقهم إليها بسخريتهم من هذه الأجزاء . ووقف العمل بالتلمود بأسره . وعلى الرغم من هذه الحركات التى بلغت ذروتها فى حملة بفركورن على رخلين ، شجع ليو الثالث طبع التلمود لأول مرة (البندقية ١٥٢٠) ، ولكن جوليوس الثالث دلى على انتهاء عصر النهضة بأن أمر محكمة التفتيش بإحراق نسخ التلمود الموجودة فى إيطاليا (١٥٥٣) ، واقتحمت بيوت اليهود ، وأخذت آلاف من النسخ ، واشتعلت النيران فى الهواء الطلق فى الكتب اليهودية فى رومه وبولونيا ورافنا وفيرارا وبادوا والبندقية ومانتوا . على أن ميلان رفضت الإذعان لمرسوم الإحراق (٧٧) . وناشدت الجمعيات اليهودية البابا أن يلغى مرسومه ، وظل هو يماطل والكتب تحرق . ولكن بيوس الرابع حكم بأنه يمكن طبع التلمود بعد إخضاعه للرقابة . وبعد ذلك راقب اليهود المنشورات والمطبوعات الخاصة بهم (٧٨) .

وبقى « الزهار Zahar » وهو نص « القبالة » اليهودية . سايما لم يحس بسوء لأن بعض العلماء الكاثوليك ذهبوا إلى أنهم وجدوا فيه أدلة على ألوهية المسيح . وكان الزهار قد كتب قبل ١٢٩٥ بقليل ، بوصفه حلقة من سلسلة

من المؤلفات التي تنقل القبالة أي « التقاليد السرية » لليهود الذين وجدوا أماناً من الفقر والاضطهاد والاضطراب العقلي في التأمل في الرموز الخفية الدينية للأرقام والحروف والقراءة العكسية للألفاظ والاسم الذي يفوق الوصف للرب ، وهكذا ، وتجمع اليهود المحزونون في حلقات خاصة يلتمسون ، بالصوم والبكاء وبالتقشف الصارم وبتفسير القبالة ، أن ينزل عليهم وحي جديد ، فيما يتعلق ، فوق كل شيء ، بمجيء « المخلص » الذي قد يخلص إسرائيل من كل أحزانها .

إن الذين حاولوا أن يستشعروا العمق الذي لم يسبق له مثيل للآلام التي عاناها اليهود في القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ، يمكنهم أن يدركوا مثل هذا اللجوء - الذي يمكن أن يغتفر ، إلى التصوف الذي يجدون فيه السلاوى والعزاء ، ونخداع النفس المتكرر الذي يلجأ إليه هؤلاء اليهود البائسون ، باعتقادهم أن « المخلص » كان قد جاء بالفعل . وفي ١٥٢٤ امتطى شاب يهودي عربي وسيم أطلق على نفسه اسم داود روبيني ، جواداً أبيض عبر شوارع رومه إلى الفاتيكان ، وقدم نفسه إلى البابا كليمنت السابع على أنه شقيق ورسول ملك يهودي قال إنه يحكم في بلاد العرب قبيلة يهودية قديمة تدعى قبيلة روبين . وقال داود إن مليكه لديه ٣٠٠.٠٠٠ جندي غير كاملي العتاد ، وإذا أمدهم البابا وأمراء أوربا بالسلاح ، فإن القبيلة تستطيع عندئذ أن تطرد المسلمين من فلسطين . واهتم كليمنت بالأمر وعامل داود بالخفاوة التي تليق بمقامه بوصفه سفيراً . وسر يهود روما أن يروا يهوديا يلقي مثل هذا التكريم . وأمدوه بكل ما يحافظ به على صفته الدبلوماسية السامية : ولما تلقى دعوة من جون الثالث ملك البرتغال أبحر مع حاشية كبيرة على سفينة تحمل العلم اليهودي .

وسحر جون بمقترحات داود إلى حد أنه أوقف اضطهاد المنتصرين وجن من الفرع جنون يهود البرتغال الذين عمد معظمهم ضد إرادتهم ،

وأعلن كثيرون منهم عن اعتقادهم بأن داود كان هو « المخلص » ، وأجرى ديوجو بيرز - وكان قد تنصر وأصبح سكرتيراً للملك ، أجرى لنفسه عملية الختان ، ليثبت يهوديته ، وغير اسمه إلى سليمان مولخو ، وأخذ طريقه إلى تركيا وأعلن أن داود هو البشير « المخلص » الذي سوف يصل هو بشخصه في سنة ١٥٤٠ . ولم يكن روبيني قد ادعى أنه المخلص أو البشير بمجيئه ، وإنما كان دجالاً حالماً ، أراد مالا وسفناً وأسلحة : وأثار هرب بيرز (مولخو) شكوك الملك جون ، فأمر روبيني بمغادرة البلاد ، ورحل داود ، وأوقف على شاطئ أسبانيا وقبضت عليه محكمة التفتيش . وأمر شارل الخامس ، بإطلاق سراح روبيني ، مرضاة للبابا كليمنت على ما يبدو . وقصد روبيني إلى البندقية (١٥٣٠) ، واقترح على السناق وجوب تسليح أوربا ، للقيام بهجوم ضد الأتراك .

وفي الوقت نفسه جاء مولخو إلى أنكونا ، وحصل على جواز مرور من البابا ، وتجول في إيطاليا ، وبشر باليهودية بحرارة وحاس في روما . ولما سعت محكمة التفتيش إلى القبض عليه ، بوصفه متنصراً مرتداً ، أنقذه كليمنت وأخرجه سالماً من المدينة . وعلى الرغم من أن ملخو كان قد فقد آنذاك إيمانه بـداود روبيني ، فإنه انضم إليه في مهمة طائشة إلى راتسبون ، حيث توسلا إلى شارل الخامس أن يمد المتنصرين بالسلاح ليحاربوا المسلمين . ولكن شارل قبض عليهما وأحضرهما معه إلى مانتوا . وهناك حكم على ملخو بالإعدام حرقاً . وفي اللحظة الأخيرة صدر عنه عفو إمبراطوري شريطة عودته إلى المسيحية ، فأبى ورحب بالاستشهاد (١٥٣٢) . وأرسل روبيني إلى أسبانيا وهناك أُلقت به محكمة التفتيش في غيابة السجن ، ومات حوالي ١٥٣٦ ، والظاهر أنه مات مسموماً ، وزحف يهود أوربا كسرى القلوب إلى معازلهم وتصوفهم ويأسهم .

٥ - الفكر اليهودي

ما كان لنا أن نتوقع من عهد « الشتات الثاني » أن ينتج أية ثقافة رفيعة بين اليهود . فقد استنزفت طاقتهم المهمة الوحشية التي واجهوها ، مهمة البقاء على قيد الحياة : وتعطل التعليم الذي كانوا قد برزوا فيه وأتقنوه نتيجة للتنقل وانعدام الأمن في الحياة : وعلى حية شقت أوروبا المسيحية طريقها إلى النهضة فرحة منتعشة ، انصرف يهود أوروبا إلى المعزل و « القبالة » وحرمت عليهم « الوصية الثانية » الإسهام في حركة إحياء الفنون : وكان بين اليهود عدد كبير من العلماء ، ولكنهم انهمكوا في التلمود . وكان منهم النحويون مثل بروفيات دوران وأبراهام دي بالم ؛ والمترجمون مثل إسحق بن بولكار ، الذي نقل مؤلفات الغزالي إلى العبرية ، ويعقوب مارتن الذي ترجم ابن سينا وابن رشد وابن ميمون وليفي بن جرسون إلى اللاتينية . وأزعج إيليا ليفيتا اليهود المتدينين بإقناعهم بشكل حاسم (١٥٣٨) بأن التوراة المزودة بالملاحظات وعلامات الحركة وإشارات الوقف (المازورة Masoretic) ، لم تكن أقدم من القرن الخامس الميلادي .

وتوضح ملحمة آل أبرابائل Abrobanel تقليات الفكر اليهودي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر : وقد ولد دون إسحق أبرابائل في لشبونة ١٤٣٧ ، واستخدمه ألفونسو الخامس ملك البرتغال وزيراً للمالية . ولكنه جمع بين مشاغله الرسمية والدراسات الدينية والتاريخية ، وجعل من داره الرحبية صالونا للعلماء ورجال العلم ورجال الأعمال . ولما توفي ألفونسو فقد أبرابائل الحظوة الملكية ، وهرب إلى أسبانيا

(١٤٨٤) ، وهناك تفرغ إلى كتابة تعليقات على ما دون عن تاريخ الكتاب المقدس ، حتى دعاه فرديناند الكاثوليكي ليتولى منصباً . وقضى إسحق ثمانى سنوات فى تدبير الشؤون المالية فى قشتالة . وكافح لدرء الكارثة التى حلت باليهود فى سنة ١٤٩٢ ، فلما أخفق فى ذلك ، انضم إليهم فى خروجهم المحزن . وفى نابلى استخدمته الحكومة . ولكن الغزاة الفرنسيين (١٤٩٥) نهبوا داره ، ودمروا مكتبته الحافلة بنفائس الكتب المتقاة ، وأجبروه على الفرار إلى كورفو . وهناك كتب ، ما كان لابد لأى يهودى أن يكتب فى هذه السنوات : « إن زوجنى وأولادى وكتبى بعيدة عنى ، ولقد تركت وحيداً غريباً فى بلد غريب » (٧٩) . واتخذ طريقه إلى البندقية ، وهناك عين فى منصب دبلوماسى (١٥٠٣) . وفى غمرة تقلبات الحظ هذه ، وجد فسحة من الوقت ليؤلف بعض أعمال فلسفية ولاهوتية ، ليس لها الآن قيمة تذكر . ولكنه وضع المبدأ الذى يقول بأن الأحداث والأفكار التى وردت فى الكتب المقدسة يجب تفسيرها على ضوء الحياة الاجتماعية والسياسية فى عصرها . وسمح له بأن يقضى السنوات الست الأخيرة من عمره فى أمن وسلام غير مألوفين .

وكان أبناؤه زينة لحياته . فتألق صمويل أبرابانل فى سالونيك وعين وزيراً للمالية فى نابلى ، وحظى بحب قومه لكثرة ما أتى من أعمال البر والخير . أما يهوذا ليون أبرابانل - ليو العبرى - فقد زها وسما قدره كطبيب فى جنوه ونابلى حتى أصبح مشهوراً مثل شهرة « ليون هديجو » . ودرس عاوماً كثيرة ، وكتب الشعر ، وغامر بدراسة ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) . وعين فى ١٥٠٥ طبيباً لجنزالو أمير قرطبة ، ولكن بعد ذلك بعامين اختلف « الكابتن الأعظم » مع فرديناند ، ولحق ليون بأبيه فى البندقية . ولقى كتابه « حوار الحب » (كتب ١٥٠٢ ، ونشر فى ١٥٣٥) جمهوراً كبيراً من القراء بين الإيطاليين فى عصر النهضة ، الذين كان التحليل الفلسفى للحب عندهم

بمثابة مقدمة أولحن مصاحب لانتصارات الحب . إن الجمال الفكرى : جمال النظام والتخطيط والاتساق ، بسمو على الجمال المادى أو جمال الجسم ، هذا ما حاول « الحوار » أن يدلل عليه . إن أسمى الجمال هو النظام والتخطيط والاتساق فى الكون ، وهذا هو المظهر الخارجى للجمال الإلهى . وينشأ الحب على مراحل : من الإعجاب والسعى وراء الجمال المادى فالجمال الفكرى فالجمال الإلهى ، ويبلغ ذروته فى حب الله فكراً وعقلاً ، أى فهم النظام الكونى وتقديره حق قدره ، والرغبة فى الاتحاد مع الله ، وربما كانت مخطوطة هذا الكتاب معروفة لدى كاستيليانو الذى أجرى على لسان « بمبو Bembo » حديثاً يهدف إلى مثل هذه الغاية ، فى « البلاط Cortigiono » (١٥٢٨) أما الكتاب المطبوع فربما وجد سبيله عبر قرن من الزمان إلى يدى سبينوزا ليتأثر بفكرته عن « الحب العقلى لله » (٨٠) .

وفنمل يهود البرتغال المشتتون على هذا الحب السماوى ، الشعر المنشور المشبوب العاطفة باللغة البرتغالية ، فى قصيدة أوسك Usque : « عزاء لأحزان إسرائيل » (فيرار ١٥٥٣) . فقد صور تعاقب الانتصارات والكوارث على الشعب اليهودى ، وواساه بأنه لا يزال « شعب الله المختار » . فقد عاقبهم الله على آثامهم ، ولكن آلامهم طهرتهم ، ومهما أوتى الإنسان من قوة رهيبة وحشية ، فلن يستطيع أحد أن يخدعهم ويصرفهم عن مصيرهم الإلهى إلى السعادة والمجد .

وترأخى اليهود عن الإسهام فى حركة العلوم تراخياً لم يكن منه مناص ، بسبب الأحداث والتقلبات التى عاناها الشعب ، والتى طال أمدها . ولم يكن التعرض للخطر والفقر وعدم الاستقرار ، هى وحدها التى عوقت اليهود العلمية ، ولكن واحداً من أجل الأحرار وأعظمهم نفوذاً ، هو سليمان بن إبراهيم بن أدريت ، فى برشاونه ، كان فى بداية هذه الفترة ، قد حرم — تحت طائلة « الحرم ، أو الحرمان الدينى » — تدريس العلوم أو الفلسفة لأى

يهودى دون الخامسة والعشرين من العمر ، على أساس أن مثل هذا التعليم يفسد العقيدة الدينية . وعلى الرغم من ذلك نلخص لإسحق إسرائيلي الأصغر ، من طليطلة ، علم الفلك فى عصره (١٣٢٠) ، ووضح التقويم اليهودى . التسلسل الزمنى لتواريخ الأحداث . ووضع عماويل بونفيس من تاراسكون ، جداول فلكية قيمة ، واستبقى التفاضل والتكامل الأسى والعشرى . كذلك فإن إبراهيم كرسكاس ، من ميورقه ، وهو « رئيس الخرائط والبوصلات لحكومة أراجون » ، وضع فى ١٣٧٧ خريطة للعالم ، اعترفت فى جميع الأنحاء بأنها أحسن خريطة من نوعها حتى ذاك العهد ، إلى حد أن أراجون أرسلتها هدية ثمينة إلى شارل السادس ملك فرنسا ، وهى الآن من أثنى ما تفتنيه المكتبة الوطنية هناك . وكان يهوذا كرسكاس ، وهو ابن إبراهيم سالف الذكر ، أول مدير لمركز هنرى الملاح البحرى فى ساجر Sagres ، وساعد فى رسم خريطة لمكتشفاته . ومهد كتاب بدرو نونز « رسالة عن الكرة الأرضية » الطريق أمام العالم الجغرافى مركيتور Mercator وفن رسم الخرائط الحديث . وحدد كتاب جراسيا دى أورتا عن « العقاقير الطبية » مرحلة متميزة فى علم النبات ، وأسس طب المناطق الحارة .

وكان أبراهام زاكوتو شخصية عظيمة فذة فى مجال العلم عند اليهود فى القرن الخامس عشر . وجمع عند ما كان يقوم بالتدريس فى سلمنقه (١٤٧٣ - ١٤٧٨) كتابه « التقويم الدائم » وقد استعملت جداوله الفلكية ، كدليل للملاحة فى رحلات فاسكو دا جاما وكابرال وألبوكيرك ثم فى رحلات كولمبس بعد ١٤٩٦ . وكان زاكوتو من بين اللاجئيين من أسبانيا (١٤٩٢) ، ووجد ملجأ مؤقتاً فى البرتغال ، وقد استشاره البلاط فى الإعداد لرحلة فاسكو دا جاما إلى الهند ، وكانت السفن مزودة بالإسطرلاب الذى أدخل عليه هو تحسينات . ولكن فى سنة ١٤٩٧ لم يمهله الاضطهاد وقذف به خارج البرتغال كذلك ، وأخذ يضرب فى الأرض فقيراً معدماً لعدة سنوات حتى

انتهى به المطاف في تونس ، وهناك تعزى في أخريات حياته بكتابة تاريخ قومه . أما تلميذه يوسف فسمنو Vecinho ، طبيب جون الثانى ملك البرتغال ، فقد أرسل ليرسم خطوط العرض وانحراف الشمس على ساحل غينيا . وأثبتت الحرائط التى أعدت أنها ذات قيمة كبيرة لفاسكو دا جاما . وكان فسمنو عضواً فى اللجنة التى أحال إليها جون الثانى مقترحات كولمبس للبحث عن طريق من الغرب إلى جزر الهند (١٤٨٤) وشارك فى قرار الرفض (٨١) .

وظل الأطباء اليهود أفضل من يجد الناس فى البحث عنهم ويتمسون عندهم البرء فى كل أوربا . وعلى الرغم من إزعاجهم بالإدانات والاتهامات الدينية والقيود الرسمية والمخاطرة بحياتهم فى معالجة ذوى الشأن من المسيحيين ، كانوا ذوى حظوة لدى البابزات والملوك . ولم تكن إضافاتهم آنذاك إلى علم الطب بارزة ، باستثناء إضافات دى أورتا إلى طب المناطق الحارة ، ولكن أماتوس لوسيتانوس ضرب مثلاً لتقاليد مهنته وتقاليد قومه . وأخرجته محكمة التفتيش من البرتغال التى كان قد أخذ منها اسمه اللاتينى ، فعاش متنقلاً من أنتورب إلى فيرارا إلى رومه ، ثم استقر به المقام فى أنكونا (١٥٩٤) حيث كان كثيراً ما يستدعى لعلاج نفس البابا بجوليوس الثالث الذى ناضل من أجل تحطيم التلمود . وكان ، حتى آخر حياته ، يستطيع أن يقسم أنه لم يكن يهتم قط بالمكافأة ولم يقبل قط أية هدية قيمة ، وأنه كان يخدم الفقراء بلا أجر ، وأنه لم يكن يفرق فى ممارسة مهنته بين مسيحي أو يهودى أو تركى ، وأن أية صعاب ، مثل بعد المكان أو عدم ملائمة الوقت ، لم تكن لتثنيه عن تلبية أى نداء . وكشفت سجلات عمله (١٥٦٣) عن سبعائة حالة كان قد عالجها ، وكان الأطباء فى كل أوربا يدرسون هذه المذكرات ويقتنونها ، ودعا ملك بولندة أماتوس ليكون طبيباً خاصاً له ، ولكنه آثر أن يبقى فى أنكونا . ولكنه أرغم فى ١٥٥٦ على استئناف تجواله ، عند ما طالب بول الرابع كل يهود إيطاليا بالتحول إلى المسيحية أو الإلقاء فى السجون .

وكان للقرار الذي أصدره الخبر ابن أدريت بتأجيل تدريس العلوم والفلسفة لليهود إلى سن الخامسة والعشرين ، أثر أقل على الفلسفة منه على العلم ، وفي فرنسا أقل منه في أسبانيا . وكان أثر ابن ميمون لا يزال قوياً على اليهود الذين احتالوا على البقاء في جنوب فرنسا وتجاسس يوسف كاسي على كتابة رسائل في المنطق وعلم الأخلاق لتوجيه ابنه ، ودافع عن التقليد الفلسفي المتحرر الذي كان ابن ميمون قد عرضه لأول مرة في مؤلفه « دلالة الحائرين » وقد أنجب هذا الضرب من التقليد المتحرر مفكراً يهودياً عظيماً هو ليني بن جرسون Ben Gerson الذي يعرف عند المسيحيين باسم جرسونيدس ، الذي عاش ، كما عاش معظم الفلاسفة اليهود ، على « الطبابة » أى مهنة الطب ، وحقق المثل الأعلى الذي قصده أبقراط في الطبيب الفيلسوف . ولد ابن جرسون في باجنول ١٢٨٨ ، في أسرة من العلماء ، وعاش معظم سنى حياته في أراجون وبربينان وأفنيون ، وانصرف إلى عمله آمناً مطمئناً في ظل حماية البابوات ، ولا يكاد يوجد علم من العلوم لم يعالجه أو مسألة فلسفية لم يعرض لها . وكان على علم واسع بالتلمود ، وأسهم في رياضيات الموسيقى ، ونظم الشعر .

وكان ابن جرسون من علماء عصره اللامعين في الرياضيات والفلك ، وفي ١٣٢١ استبق الطريقة التي اتبعها فيما بعد موروليكو (١٥٧٥) وباسكال (١٦٥٤) في إيجاد عدد التباديل البسيطة لعدد من الأشياء بالاستنتاج الرياضي ، ومهدت رسالته في حساب « المثلثات » الطريق أمام رجيومونتانوس ، ولقيت تقديراً واسعاً إلى حد أن البابا كليمنت السادس أصدر تكليفاً بترجمتها إلى اللاتينية ، مثل Chordis ، de Sinibus و Arcubus (١٣٤٢) . وقد اخترع ، أو في الواقع أدخل تحسيناً على العصا التصالبية لقياس ارتفاع النجوم ، وبقي هذا طوال قرنين من الزمان نعمة كبرى للملاحة ، وقد أجرى ملاحظاته الفلكية الخاصة به ، وأظهر

مقدرة كبيرة في نقده لطريقة بطليموس : وبحث ، ولكنه رفض ،
الفرضية القائلة بأن الشمس هي مركز الكون بطريقة توحى بأن قلة قليلة من
الناس كانت تشايعه في عصره . وهذب آلة التصوير القائمة واستخدمها
مع العصا التصالبية ليحدد ، بشكل أدق ، الاختلافات في القطر الظاهر
للشمس والقمر .

وكما أن علوم بن جرسون نبعث عن الرياضيين والفلكيين العرب ،
كذلك كانت فلسفته مبنية على دراسة نقدية دقيقة للتعليقات التي وضعها
ابن رشد في شروحه لفلسفة أرسطو . ودون ليفي فيما بين عامي ١٣١٩ -
١٣٢١ تعليقاته هو نفسه على تعليقات ابن رشد ، استوعب فيها رسائل
أرسطو في المنطق والفيزياء والفلك والأرصاد الجوية وعلم النبات وعلم
الحيوان وعلم النفس والميتافيزيقا ، وأضاف إلى هذه الدراسات بطبيعة
الحال قراءاته العديدة المتكررة لابن ميمون . وجمعت فلسفته ومعظم
دراساته في العلوم في مؤلف بالعبرية وضع عنوانه بأسلوب عصره « معارك
الله » Battles of the Lord (١٣١٧ - ١٣٢٩) ، وهو يأتي في المحل
الثاني بعد كتاب ابن ميمون « دلالة الحائرين » في الفلسفة اليهودية في
العصور الوسطى ، ويتابع محاولة ابن ميمون في التوفيق بين الفكر اليوناني
والعقيدة اليهودية . فإذا تدبرنا الجهود المشابهة التي قام بها ابن رشد وتوماس
الأكويني للتوفيق بين الإسلام والمسيحية وبين أرسطو ، لكندا نقول بأن
أثر أرسطو على لاهوتيات العصور الوسطى كان فاتحة انحلالها وتفسيخها ،
وبداية الانتقال من عصر الإيمان إلى عصر العقل . وسعى جرسونيدس إلى
التخفيف من امتعاض المتدينين بالإعلان عن استعداداته للتخلي عن أفكاره
وآرائه إذا ثبت أنها مناقضة للكتاب المقدس - وتلك حيلة أو مراوغة يلجأ
إليها العلماء . على أنه استخدم العقل إلى مدى بعيد ، في أبحاثه عن الله
والكون وأبدية العالم وخواود النفس ، ولما تعارضت نتائجه مع الكتاب

المقدس ، فسرّه بعنف أدى بنقاده إلى تغيير اسم مؤلفه إلى « معارك ضد الله » (٨٢) . وقال ليفى إنه يجدر بنا ألا نأخذ بالمعنى الحرفى قصصاً مثل قصة يوشع الذى أوقف الشمس ، فهذه القصة وأشباهها من « المعجزات » ، ربما كانت أحداثاً طبيعية نسيت أو لم تعرف أسبابها (٨٣) . وأخيراً أفصح عن مذهبه العقلانى دون قناع ، « إن التوراة لا يمكن أن تمنعنا من أن نعتبر حتماً ما يلح علينا عثلتنا فى الإيمان به » (٨٤) :

واشتق جرسونيدس وجود الله مما قد يسميه هولباخ المالمحد « نظام الطبيعة » فإن قانون الكون ونظامه يكشفان عن « عقل كونى » ، ويضيف هو إلى هذا ، الحجة الغائية : وهى أن معظم الأشياء فى الطبيعة الحية تبدو مخصصة كوسيلة إلى غاية . وتزود العناية الإلهية كل كائن حى بوسائل حماية الذات والتطور والتكاثر . والعالم بوصفه كوناً أو نظاماً ، خلق فى الوقت المناسب ، ولكن ليس من العدم . فقد سبق أن وجدت منذ الأزل كتلة جامدة هاملة لا شكل لها ، وزودها الكون بالحياة وبالشكل . وهناك بين الله وبين الأشكال المخلوقة قوة وسيطة سماها جرسونيدس ، وهو فى هذا يحدو حدو أرسطو ، « عقلاً نشيطاً أو خلاقاً » . ويوجه انبثاق الذكاء الإلهى كل الأشياء ، ويصبح النفس التى يحملها الإنسان بين جنبيه : ولما كانت النفس تعتمد على أحاسيس الإنسان فهى فانية : وبما أنها أى النفس ، تفهم الكليات وتعى نظام العالم ووحدته فلما تصبح قصداً جزءاً من « العقل » النشط الذى هو خالد :

ورفض اليهود فلسفة جرسونيدس على أساس أنها فى جوهرها شكل من فلسفة ابن رشد ، عقلانية قد تودى فى النهاية بالعقيدة الدينية . ودرس المفكرون المسيحيون فلسفته ، وتأثر بها اسبينوزا : ولكن قاوب المفكرين اليهود وعقولهم ، عبر عنها فى إخلاص أكبر ، حسداى بن أبراهام كرسكاس

الذي كان قد تغذى بلبان « المحافظة » عند سليمان بن أدريت ، وقد ولد كرسكاس ١٣٤٠ في برشلونه ، وعاش في فترة اتسمت بالعداء الشديد للسامية ، وقبض عليه بتهمة تدنيس القربان ، وما لبث أن أطلق سراحه ، ولكن ابنه قتل ، وهو على وشك الزواج في مذبح ١٣٩١ . وقوى الاضطهاد من عقيدة حسداى ، لأنه بفضل الإيمان بإله عادل وسواء تعوض عن كل أذى وشر ، استطاع أن يحتمل حياة ممتلئة بالجور والآلام . وبعد انتمضاء سبع سنوات على استشهاد ابنه ، نشر بالأسبانية رسالة حاول فيها أن يفسر للمسيحيين لماذا ينبغي ألا يطلب إلى يهودى أن يتقبل المسيحية . وحاول في كياسة واعتدال أن يدل على أن مبادئ المسيحية في الخطيئة والنسب والحبل بلا دنس والتجسد والكفارة وتحول دم القربان إلى دم المسيح ولحمه ، تنطوى على تناقضات لا يمكن تجاوزها واستحالات سخيفة مضحكة . ومع ذلك فإنه حين كتب مؤله العظيم « نور الرب » (١٤١٠) اتخذ فيه موقفاً كان يمكن أن يدافع المسيحيون من خلاله عن هذه النظريات : ذلك أنه أنكر العقل وألح في إخضاعه للإيمان . ولم يكن حسداى حبراً رسمياً ولكنه شارك الأحرار رأيهم بأن الاضطهادات المتكررة كانت عقاباً إلهياً لتعريض الديانة التي جاءت عن طريق الوحي للحاجة العقلانية . وإذا كان قد كتب في الفلسفة ، فلم يكن ذلك إعجاباً منه بها ، بل لإثبات ضعف الفلسفة والعقل ، وتوكيد الحاجة إلى الإيمان والعقيدة . وأنكر محاولات ابن ميمون وجرسون في التوفيق بين اليهودية وأرسطو ، وتساءل : من هو ذلك الإغريقى الذي كان على الرب أن يتفق معه ؟ واعترض على فكرة أرسطو بأن أسمى صفات الله هي المعرفة ، بل هي الحب على الأرجح ، لأن الله هو الخير المطلق . وسلم كرسكاس بأن العقل لا يستطيع أن يوفق بين سابق علم الله وحرية الإنسان ، ومن ثم يجب ألا نرفض الحرية

بل نرفض العقل : ويلبغى أن نؤمن بالله ، وبالإرادة الحرة والخلود ، من أجل طمأنينة نفوسنا وهدوء بالنا وسلامة مغنوياتنا ، وليس بنا من حاجة إلى الادعاء بإثبات هذه المعتقدات عن طريق العقل . ويجب أن نختار بين عقلنا الفخور الضعيف الذى يزعم الإيمان ريبورث اليأس ، وبين إيماننا المتواضع بكلمة الله : التى يمكن عن طريقها وحدها أن نحتمل ألوان المهانة والظلم فى الحياة .

وكان كرسكاس آخر هذه الصفوة الالامعة من فلاسفة اليهود فى العصور الوسطى ، ولم يقدره قومه حق قدره بين عشية أو ضحاها ، لأن تلميذه يوسف ألبو لفت أنظار قراء الفلسفة بكتابيه الأكثر إمتاعاً « المبادئ الأساسية » ، الذى جمع بين ابن ميمون وكرسكاس عن طريق الانتقاء ، مما جعله أكثر انسجاماً من أى من الرجلين ، مع اليهودية الصحيحة التى لم تكن مستعدة للتسليم بعدم عقلانية الإيمان . وبعد موت ألبو اعتزل اليهود الفلسفة ، والتاريخ تقريباً ، حتى جاء سبينوزا . إن المذابح ، والاضطرابات ، والفقر المدقع ، وقيود الإقامة والمناصب ، كانت قد حطمت روحهم وأنقصت عددهم إلى أدنى مستوى منذ سقوط أورشليم سنة ٧٠ م (٨٥) . ووجد الشعب المحقر المنبوذ له ملجأ فى الأغاني الحزينة ، وفى رفاق المعبد المواسين ، يراودهم الأمل فى مغفرة من عند الله ، وفى معذرة من أهل الأرض ، وفى الجنة التى فى السماء . وعكف العلماء بكليتهم على التلمود ، وحصروا تفكيرهم فى شرح قانون الخلاص ، على حين اتبع بعضهم تعاليم « القبالة » فانصرفوا إلى التصوف الذى سما بالبؤس إلى

حد التوهم بأنهم يرقون به إلى السماء . وأحجم الشعر اليهودي
عن الغناء ، ورفعت أثارة منه رأسها بين الحين والحين تتحدى
العاصفة ، أو تلتطف من سخرية القدر ، بالمرح الموسوم بالمرارة
واللهفة والذكاء المشوب بالالتواء . وما كان لليهود أن يصيحوا من
سبائهم الطويل الناجع ، ويستعيدوا مكانهم في ذهن عالم لا يحسده
زمان ، ولا مكان فيه للعنصرية ، حتى جسر يهودي أمستردام
المتواضع أن يوحد بين اليهودية والسكولاستية (الفلسفة المدرسية)
والديكارتية في إدماج رفيع سام للدين والعلم :

الباب الرابع

ما وراء الستار

الفصل الثالث والثلاثون

حياة الناس

١٥١٧ - ١٥٦٤

١ - الاقتصاد

إن مسرحية الصراع الديني والسياسي والحربي الذي ملأ جبهة القرن السادس عشر ، كانت من بعض النواحي سطحية : ذلك أنها لم تظهر إلا انطلاقاً من مسرحية أعمق ، مثلت خالف مشاهد التاريخ أو تحت المسرح الفخم - أعني معركة الإنسان اليومية الأبدية مع التربة والعناصر (الماء والهواء والتراب والنار) والفقر والموت . وماذا كانت ، فوق كل شيء هبات ومراسيم البابوات والبروتستانت ، والسيخافات المتزاحة في الأساطير القتالة ، وزهو الملوك والأباطرة وتعاقبهم ، وما كان ينتابهم من أمراض مثل النقرس والزهرى ، إذا قورن كل أولئك بالكفاح المرير من أجل الغذاء والمأوى والكساء والصحة والزوجة والولد والحياة ؟

إن قرى أوروبا في تلك الحقبة ، كان لا بد لها ليلاً ونهاراً أن تحذر وتحترس من الدثاب والخنازير البرية ، أو أى خطر آخر يهدد قطعانهم

ومساكنهم . لقد عمّرت مرحلة الصيد داخل عصر الزراعة ، وكان لزاماً على الإنسان أن يقتل أو يُقتل ، ويسرت أسلحة الدفاع طريقة (روتين) الكدح والعمل . وكانت آلاف الحشرات ووحوش الغابة وطيور السماء تنافس الفلاح في ثمار غرسه وكده ونصبه ، والأمراض الخفية تهلك القسم الأكبر من ماشيته . وربما أصبحت الأمطار سيولا جارفة أو فيضانات غامرة ، وربما انقطعت حتى تدبّل الحياة كلها . وكان الجوع دائماً يتربص بالناس ، ولم يفارق الخوف من الحريق مخيلتهم قط . وكثيراً ما انتابتهم الأمراض ، والأطباء على مسافات بعيدة منهم : وفي كل عشر سنين تقريباً ربما اختطف الطاعون من الأسرة فرداً عزيزاً عليها أو له قيمته عند تعرض الأرض للخطر . وكان يموت في سن الطفولة طفلان من بين كل خمسة أطفال ، ويموت ثالث قبل البلوغ (١) ، ومرة واحدة على الأقل في كل جيل كان ضابط التجنيد يأخذ أحد الأبناء للجيش ، وكانت الحيوش تحرق القرى وتنهب الحقول ، وكان عشر المحصول بعد الحصاد يذهب إلى مالك الأرض ، وعشر ثان إلى الكنيسة . وكانت الحياة على الأرض تصبح جميعاً لا يحتمله الجسم أو الروح ، لولا أن شيئاً من السعادة يتخلل ابتهاج الأطفال وألعاب المساء في البيت ، وإطلاق الأغاني ولعب الخمر بالرعوش في الحانات ، والأمل نصف المصدق ونصف المشكوك فيه حياة أخرى أكثر رحمة وشفقة . هكذا كان إنتاج الغذاء الذي أطعم البارونات في الحصون والملوك في قصورهم والكهنة في محاريبهم ، والتجار والصناع في المدن ، والأطباء والمعلمين والفنانين والشعراء ورجال العلم والفلاسفة ، وأخيراً ، وأقلهم شأنًا ، رقيق الأرض أنفسهم . فالمدنية عالة على الإنسان الذي يحمل آلة العزق .

وكان علم الزراعة من خصائص هذا الزمان . ونشأ تقسيم الإنتاجية أساساً من استبدال الملكية الكبيرة بالملكية الصغيرة . وأدخل مالكو الأرض

الجلود من التجار والرأسماليين إلى اليقاع الريفية الراكدة لهفة شديدة على الربح الذى زاد الإنتاج والبنؤس كليهما معاً ، وأدخل المستوردون المغامرون إلى أوربا مخصباً أو سماداً جديداً غنياً بالفوسفات والنتروجين - وهو روث الطيور الذى يجتمع على شواطئ بيرو . وتأقلمت في تربة أوربا نباتات وشجيرات من آسيا أو أمريكا ، مثل البطاطس وشجرة المغنولية (نبات جميل الزهر) ، والأغاف الأمريكى ، والفلفل والدهلية (زهر جميل) ، والكبوسين (أبو خنجر) . . . وأحضرت التبغ من المكسيك إلى أسبانيا ١٥٥٨ . وبعد ذلك بسنة واحدة أرسل جان نيكوت السفير الفرنسى فى لشبونه بعض بذوره إلى كاترين دى مديتشى ، وقد جرى التاريخ هذا السفير خير الجزاء فأطلق اسمه على أحد السموم .

ونمت صناعة صيد السمك بازدياد السكان ، ولكن الإصلاح الدينى سدد ضربة قاضية إلى تجار السردين بإباحة اللحوم يوم الجمعة ، وتقديم التعدين بالتنظيم الرأسمالى . وكانت نيوكاسل تصدر الفحم فى ١٥٤٩ ، وضاعف أصحاب المناجم إنتاجها ببحث العمال على بذل جهود أعظم وأكثر نظاماً ، وتحسين وسائل تنقية المعدن الخام . وفى هذه السطور ينقلنا جورج أجريكولا إلى منجم فى القرن السادس عشر :

إن أهم أنواع العمال هم المعدنون ، الجرافون ، الرافعون ، الحمالون ، الفرازون ، الغسالون ، الصاهرون . . . وكانت ساعات الليل والنهار الأربع والعشرين ، تنقسم إلى ثلاث نوبات كل منها سبع ساعات ، والساعات الثلاث الباقية تتوسط النوبات ، ليدخل العمال فى أثنائها إلى المنجم أو يغادروه . وتبدأ النوبة الأولى الساعة الرابعة صباحاً ، وتنتهى فى الحادية عشرة . وتبدأ الثانية فى الساعة الثانية عشرة وتنتهى فى السابعة مساء . وهاتان نوبتان نهاريتان فى الصباح وبعد الظهر . أما الثالثة ، وهى النوبة الليلية ، فتبدأ فى

الثامنة مساء وتنتهى فى الثالثة صباحاً . ولا تفرض هذه النوبة الثالثة على العمال إلا إذا دعت الضرورة إليها : وفى هذه الحالة . . كانوا يسهرون على ضوء المصابيح الليلية ، وحتى لا يغلبهم النعاس فى هذه الساعات المتأخرة ، أو لشدة التعب ، كانوا يخففون من وطأة هذا العمل الطويل الشاق بالغناء الذى كانوا مدربين عليه ، أو لم يكن غير سار لهم كلية . ولم يكن يباح فى بعض المناجم لأى من العمال العمل نوبتين متعاقبتين ، لأنه كان كثيراً ما يغلب عليه النعاس فى المنجم من شدة الإجهاد من كثرة العمل إلى حد مفرط ، وكان يباح ذلك فى أماكن أخرى لأن العامل لا يستطيع العيش على أجر نوبة واحدة ، وخاصة إذا ارتفع ثمن الحاجيات .

ولا يشتغل العمال أيام السبت ، لأنهم يتناعون فيها كل ما يلزمهم من ضرورات الحياة ، كذلك لا يعملون أيام الآحاد والأعياد السنوية . ولكنهم فى هذه المناسبات يخصصون ساعات النوبة للأغراض الدينية . ومهما يكن من أمر فإن العمال لا يستريحون : : : إذا اقتضت الظروف أن يعملوا ، فقد يجبرهم عليه أحياناً اندفاع الماء أو انهيار وشيك الوقوع . وفى مثل هذه الحالات لا يعتبر العمل فى أيام العطلة أمراً لا يتفق مع الدين : وفوق ذلك ، فإن العمال من هذه الفئة أقوياء أشداء ألفوا هذا الكدح والمشقة منذ ولادتهم (٢) .

وفى ١٥٢٧ عين جورج أجريكولا طبيباً لمدينة جوتشمستال Goochimsthal . وفى مدينة التعدين انصرف جورج بين الحين والحين إلى التعدين ، وهناك ، وفى أماكن أخرى تحمس جورج وافتتن بدراسة تاريخ التعدين وعملياته وعلم المعادن ، وعكف على البحث عشرين عاماً ، أكمل بعدها (١٥٥٠) « رسالته عن المعادن » وهى رسالة ممتازة فى موضوعها بالنسبة لعصرها ، لها من القيمة

مثل ما لروائع كوبرنيكس وفيساليوس التي ظهرت في نفس العقدين من
السنين ، ولقد وصف في تفصيل دقيق آلات التعدين والصهر وتقنياتها
وعملياتها ، واستخدم الفنانون في توضيحها بالرسوم . وهو أول من جزم
بأن البرموت ولانتيمون معدنان أوليان حقيقيان ، وميز نحو عشرين صنفاً
من المعادن لم تكن معروفة من قبل . وكان أول من شرح تركيب عروق
الحام في طبقات الصخور من رواسب مغذية خلفتها مجارى المياه التي تنساب
في الأرض وتحت الأرض (٣)(*) .

وحظي التعدين وعلم المعادن والمنسوجات بأكثر نصيب من التحسينات
الآلية (الميكانيكية) التي ينسب الفضل فيها لهذا العصر . وإن أول سكك
حديدية هي تلك التي كانت تجر أو تدفع عايمها الغربات التي تحمل الحام .
وفي عام ١٥٣٣ أضاف جوهان جورحن إلى عجلة الغزل — التي كانت تدار
حتى ذلك العهد باليد — ذراعاً (دواسة) تدار بواسطة القدم ، ومن ثم
تكون يد الغزال طليقة ، وسرعان ما ضوعف الإنتاج بهذه الطريقة : وازداد
الوثوق بدقة الساعات وصغر حجمها ، وزيلت بالحفر والنقوش والجواهر
وطليت بالمينا . واقتنى هنرى الثامن ساعة دقيقة الحجم ، تملأ مرة واحدة
كل أسبوع . على أن أحسن ساعات العصر كان معدل الخطأ فيها نحو ١٥ دقيقة
في كل يوم (٤) .

وتعثرت المواصلات والنقل خلف التجارة والصناعة . وتوسعت الخدمات
البريدية إلى حد نقل المراسلات الخاصة خلال القرن السادس عشر ، وحدث
الانقلاب التجارى على بناء السفن وصارت السفن أرفع وأعمق ، فساعد

(*) نهد أجريكولا « عصا الاستنباء » أو الغصن المتشعب » (وهي التي كانت غالباً
ما تستعمل آنذاك للتعرف على وجود المعادن تحت الأرض) باعتبارها غير ذات نفع .
ولكن مدادات جيجر تميل إلى تقدير هذه العصي المشجعة .

ذلك على ثباتها وازدياد سرعتها . وزاد عدد الصواري من واحد إلى ثلاثة ،
والأشعة إلى خمسة أو ستة (هـ) . ولم يقتصر السباق بين فرانسوا الأول وهنري
الثامن ، على الحرب والحب واللباس ، بل تعداه إلى ابتناء السفن ،
وكان لكل منهما مركب فخم بنى بناء على طلبه لإشباع نزواته ، به دور
علوى ، يرفرف عليه في زهو واعتزاز علم البطولة الذي أرضى غرور كل
منهما . وكانت سفينة أوائل القرن السادس عشر تستطيع أن تقطع في البحر
المتوسط عشرة أميال في الساعة في الطقس المعتدل ، ولكن السفن الثقيلة
المصممة للمحيط الأطلسي كانت أسعد حظاً ، حيث كانت تقطع ١٢٥ ميلاً
في اليوم . وكانت أسرع رحلة برية هي رحلة حامل البريد ، الذي كان يركب
لمسافة خمسة وثمانين ميلاً في اليوم . ومع ذلك فإن الأنباء الهامة كانت عادة
تصل من البندقية إلى باريس أو مدريد في عشرة أيام أو أحد عشر يوماً .
ولعل أحداً لم يقدر آنذاك أية راحة ينعم بها نتيجة لوصول الأنباء متأخرة
إلى حد يتعذر معه اتخاذ أي إجراء بشأنها . وكان معظم السفر يالبر على ظهور
الحيل ، ومن هنا جاءت الحلقة الحديدية الثقيلة المثبتة في باب مدخل كل
بيت ، يشد إليها حبل تقيد به الدابة . وتضاعف عدد العربات ، ولكن
الطرق بلغت من الرخاوة حداً لا يصلح كثيراً لمرور العجلات ، ومن ثم كان
لزماً تزويد العربات بستة من الجياد أو أكثر لتجرها في الأوحال التي يتعذر
تفاديها ، وما كان يتوقع من العربات أن تقطع أكثر من عشرين ميلاً في اليوم ،
وظلت المحفات التي يحملها الخدم تستعملها السيدات ذوات اليسار في تنقلهن ،
أما عامة الشعب فكانوا يسرون على الأقدام عبر القارة .

وكان السفر مألوفاً رغم الطرق والحالات ، وذهب إرزم إلى أن خانات
فرنسا كانت مقبولة محتملة ، وعلى الأخص لأن النادلات الصغيرات « يقهقهن
ويقمن بحيل وألعاب مرحة ، وإذا غادرت المكان كن يحمينك بالعناق » ،

« كل ذلك مقابل أجر زهيد » ولكنه رمى أصحاب الخانات الألمان بالفضاظة
وغلظة الطباع والبطء والقذارة :

إذا فرغت من تدبير أمر جوادك تدخل إلى غرفة المدناة ، بالحذاء
العالى الساقين ، والأمتعة والأحوال وغيرها ، لأن هذه حجرة
عامة لجميع القادمين . وفي غرفة المدناة تخضع حذاءك ، وتلبس
نعليك وتبدل قميصك إذا شئت : وهناك ترى رجلاً يمشط رأسه
وآخر : . . . يتجشأ الثوم . . . وإنك لتسمع من فوضى اللغات
واللهجات كما لو كنت في مبنى برج بابل : : وفي رأي أنه ليس
ثمة شيء أخطر من التنفس في مثل هذا الجو الخانق ، وخاصة
إذا كانت أجسام الناس مفتحة بفعل الحرارة . . . وثمة شيء
لا أرى ذكره . . . ثم النساء والأنفاس الكريهة المنتنة . . .
ولا ريب أن كثيرين مصابون بالجذري أو الزهري الأسباني ،
أو كما يسمونه الفرنسي : ولو أنها أمراض منتشرة في كل بلد (٦) .

إذا جرت الأمور على هذا النحو ، حقاً ، في بعض الخانات ، فيمكن
أن نغتفر خطأ أو اثنين للتجار المتجولين الذين يحطون رحالهم في هذه الخانات
ويحتماون متاعها في عملية ربط القرية بالقرية ، والأمة بالأمة ، في نسيج
اقتصادي دائم الاتساع والانتشار . فقد فتح في كل عقد من السنين طريق
جديد ، برأ كما فعل تشانسلر في روسيا ، وبحراً كما تم في آلاف الرحلات
البحرية المغامرة . وقد أبحر (شيلوك شكسبير) أي اليهود مع إنجلترا ولشبونة
وطرابلس ومصر والهند والمكسيك (٧) . وكان لجنوة مستعمرات تجارية في
البحر الأسود وأرمينية وسورية وفلسطين وأسبانيا : فلقد عقدت الصالح مع
الباب العالي ، وباعت الأسلحة إلى تركيا التي كانت في حرب ضد العالم
المسيحي : والتقطت فرنسا هذه الفكرة ، وعقدت اتفاقات خاصة بها مع

سلطين تركيا . وبعد ١٥٦٠ سيطرت على تجارة البحر المتوسط ، وكانت أنتورب تتلقى البضائع في كل لحظة ، وتنقلها بالسفن إلى كل مكان في العالم .

ولمواجهة متطلبات هذا الاقتصاد المتوسع ، حسن رجال المصارف من خدماتهم وأساليبهم . ولما ارتفعت نفقات الحرب بالانتقال من فرق الإقطاع المجنّدة الذين أحضروا معهم أقواسهم وسهامهم ورماحهم وسيوفهم ، إلى جيوش وطنية أو جنود مرتزقة مزودين بالأسلحة النارية والمدافع ، وتدفع الدولة رواتبهم وأجورهم — اقترضت الحكومات مبالغ لم يسبق لها مثيل من أصحاب المصارف . وكانت الفائدة التي تدفعها الحكومات أو تعجز عن دفعها ، تقيم مؤسسة مالية ، أو تقوض أركان أخرى . وكان أصحاب المصارف يقترضون مدخيرات الشعب نظير فائدة ، ليمولوا بها الصفقات الضخمة في التجارة والصناعة . وكانت صكوك التبادل تجل محل الشحنات الثقيلة المرهقة من العملة المتداولة أو البضائع . واختلفت معدلات فوائد القروض ولم يكن هذا الاختلاف نتيجة لجشع المقرضين ، بقدر ما هو نتيجة للثقة في المقرضين . ومن ثم كانت المدن الحرة الألمانية التي سيطر عليها تجار يتميزون بالدفع الفوري العاجل ، تستطيع أن تقترض بفائدة قدرها ٥٪ ، على حين أن فرنسوا الأول اقترض بفائدة قدرها ١٠٪ ، وشارل الخامس بفائدة قدرها ٢٠٪ . وانخفض سعر الفائدة تبعاً للاستقرار الاقتصادي :

وسكنت مقادير وفيرة من العملة السائلة من معدني الذهب والفضة اللذين استخرجتا من مناجم ألمانيا والمجر وأسبانيا والمكسيك وبيرو ، وجاء المدد الجديد من المعادن النفيسة في الوقت المناسب ، لأن البضائع كانت قد تزايدت أسرع مما تزايدت العملة . وكان جزء من ثمن واردات آسيا يدفع في صورة صادرات ، رابض الباقى نقداً من الذهب أو الفضة ، ومن ثم هبطت

الأسعار في غضون السنين التي سبقت قيام كولمبس برحلاته ، إلى حد تعويق المغامرات والتجارة : وبعد تطوير المناجم في أوروبا واستيراد الذهب والفضة من أفريقية وأمريكا ، فاقت كميات المعادن النفيسة لإنتاج السلع ، فارتفعت الأسعار ، وانتعشت الأعمال وابتهج أصحابها ، وزحزح الاقتصاد بالحديد القائم على النقود المتحركة الاقتصاد القديم الذي تركز في امتلاك الأرض أو سيطرة النقابات على الصناعة ، واحتل مكانه .

وكانت النقابات في دور الانحلال : وكانت قد نشأت وقويت في عهد تحكم المجلس البلدية وحماية الإنتاج المحلي ، ولم تكن على درجة من التنظيم تسمح لها بتقديم رأس المال . أو بالشراء بالحماية من الموارد النائية ، أو باستخدام أساليب المصانع وتقسيم العمل ، أو الوصول بمنتجاتها إلى الأسواق البعيدة . وكانت منذ القرن الثالث عشر وما بعده قد ضربت حولها نطاقاً من العزلة الأرستقراطية وسوأّت ظروف العمل ، حتى بات من اليسير سوق العمال المهرة إلى أحضان رب العمل صاحب رأس المال ، وكان عامل الربح هو الذي يحركه ويزوده بالحياة والنشاط ، ولكنه عرف كيف يجمع المدخرات إلى رأس المال ، وكيف ومن أين يشتري الآلات والمواد الخام ويدير المناجم ، ويؤسس المصانع ، ويجند لها العمال ، ويقسم العمل ، ويخصص العمال لكل فرع منه ، ويفتح الأسواق الأجنبية ويصل إليها ، ويمول الانتخابات ويسيطر على الحكومات . وكانت الإمدادات الحديدية من الذهب والفضة تدعو بصوت عال إلى استثمارات تدر الربح الوفير : وبات الذهب الأمريكي رأس مال أوروبا . وخلقت الرأسمالية « سحر المنافسة » ، وحفزت إلى المغامرة ، وأنتجت السعي المحموم وراء المزيد من الطرق الاقتصادية للإنتاج والتوزيع ، ولم يكن ثمة مفر من أن تخلف وراءها القناعة الذاتية التي اتسم بها رجال النقابات . وتركهم يتهادون في أساليبهم النمطية الرئيسية القديمة : ولقد فاق النظام

الجديد في إنتاجه النظام القديم كما لا كيفاً ، لأن التجار كانوا ينادون بإنتاج كميات كبيرة ليسددوا بصادراتهم الصناعية ثمن الواردات من الشرق .

وكانت الثروة الجديدة محصورة إلى حد كبير ، في أيدي التجار وأصحاب رؤوس الأموال وأصحاب المصانع ، وحلفائهم في الحكومة ، وظل بعض النبلاء يجمعون الثروة عن طريق الضياع الواسعة التي يستأجرها مئات المستأجرين ، أو الحظائر التي تمد صناعة النسيج بالصوف . على أن الغالبية من ملاك الأرض الأرستقراطيين وجدوا أنفسهم محصورين بين شقي الرحى : المملوك من جهة ، والمدن التي سيطر عليها رجال الأعمال من جهة أخرى ، وانحطت قوتهم السياسية : وكان عليهم أن يقنعوا بكرم المحتد وشرف الأرومة . وشاركت الطبقة الكادحة النبلاء مصائب التضخم ، فمن سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٦٠٠ ارتفع ثمن القمح الذي صنع منه الفقراء رغيف الخبز إلى ١٥٠ ٪ في إنجلترا ، و ٢٠٠ ٪ في فرنسا ٣٠٠ ٪ في ألمانيا : وفي سنة ١٣٠٠ كان سعر البيض في إنجلترا ٤ بنسات لكل ١٢٠ بيضة ، وارتفع ثمن المقدار نفسه إلى ٥ بنسات في سنة ١٤٠٠ ، وإلى ٧ بنسات في سنة ١٥٠٠ ، وإلى ٤٢ بنسا في سنة ١٥٧٠ (٨) . وارتفعت الأجور ، ولكن في ببطء أكثر ، لأن الحكومات كانت تتولى تنظيمها . وحدد قانون ١٥٦٣ في إنجلترا الأجر السنوي للفلاح المستأجر بمبلغ قدره ١٢ دولاراً ، ولعامل المزرعة ٩٥٠ ، وللخادم الرجل ٧٢٥ ، علماً بأن القوة الشرائية لهذه المبالغ في سنة ١٥٦٣ تفوق مثيلاتها في ١٩٥٤ خمساً وعشرين مرة ، فوصلت الأجور إلى نحو ١٨٠ دولاراً سنوياً . على أننا يجب أن نلاحظ أن الطعام والإقامة كانتا تضافان إلى هذه الأجور ، وجملة القول أن التغييرات الاقتصادية في القرن السادس عشر تركت الطبقات العاملة أفقر نسبياً

وأضعف سياسياً ، من ذى قبل . فقد أنتج العمال السلع التي كانت تصدر ثمناً للكماليات المستوردة التي جعلت حياة نفر قابل من الناس مشرقة باسمه ناعمة .

واتسم الصراع بين الطبقات بمرارة ، قل أن عرف لما مثيل منذ عهد سبارتاكوس (زعيم ثورة العبيد ٧١ ق . م .) وخير شاهد على ذلك ثورة الأهالي في أسبانيا ، وحرب الفلاحين في ألمانيا ، وثمة - كت Ket في إنجلترا . وكثرت الإضرابات ، ولكنها كانت تخمد بائتلاف أرباب العمل مع الحكومة . وفي ١٥٥٨ قررت نقابة عمال النسيج ألا كان يسيطر عليها السادة أن أى عامل يرفض العمل بمقتضى الشروط التي يضعها رب العمل يسجن لأول مخالفة ، ثم يضرب بالسياط ويوصم بالعار في الثانية . وكانت قوانين التشرد في عهد هنرى الثامن وإدوارد السادس من القسوة والوحشية إلى حد أن قلة قليلة من العمال تجاسروا على أن يوجدوا متعطلين بلا عمل . ونص قانون ١٥٤٧ على أن أى عامل قادر من الناحية الجسدية أن يترك عمله ليتسكع في البلاد كالمتشردين ، يجب أن يدمغ صدره بحرف " V " (الحرف الأول من Vagabond متشرد) ، ويدفع به بوصفه عبداً رقيقاً إلى أحد المواطنين في الجهات المجاورة ، لمدة عامين ، ليعيش على « الخبز والماء وقليل من الشراب وحنثالة اللحم » ، فإذا لم يرتدع وتكرر منه التشرد ، دمع على خده أو جبهته بحرف " S " (Slave عبد) وحكم عليه بالاسترقاق طيلة حياته^(٩) . وبفضل الشعب الإنجليزي ، وكان فخراً وشرفاً له ، أنه لم يمكن تطبيق هذه الإجراءات وسرعان ما أبطلت ، ولكنها تكشف عن طباع حكومات القرن السادس عشر وأصدر جورج دوق سكسونيا قراراً بالألا ترفع أجور عمال المناجم في منطقته ، وألا يسمح لعمال بترك عمالهم للبحث عن عمل في مكان آخر ، وألا يستخدم رب العمل عاملاً كان قد أثار الاستياء في منجم

آخر ، وأجاز القانون صراحة أو ضمناً تشغيل الأطفال : وقام الأطفال في فلاندرز بصناعة المخزومات برمتها ، وحرم القانون اشتغال البنات فوق سن الثانية عشرة في هذه المهنة (١٠) . أما قوانين الاحتكارات والمضاربات والربا فكان مصيرها التجاهل أو المراوغة في التنفيذ :

وتصادف ظهور الإصلاح الديني مع قيام الاقتصاد الجديد ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تناهض « الأعمال والمشروعات والتجارة » في حساسية بالغة . فلم يتفق كل هذا مع مزاج الكنيسة . وكانت قد أدانت فوائده القروض ، وأجارت من الناحية الدينية قيام النقابات ، وقدست الفقر وانتقدت الثراء ، وأعفت العمال من العمل أيام الآحاد والعطلات التي كانت كثيرة ، إلى حد أنه في ١٥٥٠ بلغ عدد الأيام التي لا عمل فيها ١١٥ يوماً في السنة في الأقطار الكاثوليكية (١١) . وربما كان لهذا أثره في الإبطاء بالتصنيع والإثراء في هذه البلاد . ودافع رجال الالهوت ، بموافقة الكنيسة ، عن فكرة تحديد « أسعار عادلة » لضرورات الحياة بمقتضى القانون ، وكان توماس الأكويني قد وصم السعى إلى المال ، بعد الوفاء بحاجيات الإنسان ، بأنه « جشع آثم » ، وحكم بأن أية مقتنيات أو مدخرات فائضة عن الحاجة ، « تخصص بمقتضى القانون الطبيعي لإغاثة الفقراء واسعافهم » (١٢) . وشارك لوثر في هذه الآراء ، ولكن التطور العام للبروتستانتية تعاون ، دون وعى ، مع الانقلاب الرأسمالي . وألغيت عطلات القديسين ، وكان من نتيجة ذلك زيادة العمل ورأس المال معاً . ولقى المذهب الديني الجديد تأييداً ودعماً من رجال الأعمال ، وجزء مجاملة مجاملة مثلها ، فنظر البروتستانت إلى الثروة بعين الإعجاب والإكبار ، وأثنوا على التدبير والاقتصاد ، وشجعوا العمل على أنه فضيلة ، وارتضوا الفائدة على أنها مكافأة مشروعة لمخاطرة المرء بمدخراته :

٢ - القانون

لقد كان عصرًا قاسيًا رهيباً ، انسجمت قوانينه مع اقتصاد لا يرحم ، وإطلاق مخزٍ وفن كئيب ، رلاهوت تخلى ربه عن المسيح وتبرأ منه . وكانت الجريمة أمراً طبيعياً ، بين سكان كتب على معظمهم الفقر والفاقة فى الدنيا ، واللعنة فى الآخرة . وكان القتل منتشرًا بكثرة فى كل الطبقات . وتبدل الخنجر من حزام أى رجل ذى وزن ، أما الضعفاء فقد اعتمدوا على القانون فى إصلاح أخطائهم . وكانت جرائم الهوى والانفعال كثيرة جداً قدر كثرتها فى روايات شكسبير . فلم يكن بعد فى زمرة الرجال أى « عطيل » أخفق فى ذبح زوجته التى اشتبه فى سلوكها . واعتبر المسافرون قطع الطرق أمراً مفروغاً منه أو قضية مسلماً بها ، فساروا فى جماعات . وكان عدد اللصوص فى المدن التى لم تزل غير مضاعة ليلاً ، وفيراً قدر وفرة العاهرات . وكان لزاماً أن يكون بيت الرجل حصناً منيعاً . وفى أوج عظمة فرنسوا الأول ، أعملت السلب والنهب فى باريس فى وضوح النهار عصابة من اللصوص أطلق عليها اسم « الأولاد الأشرار » . ويروى لنا برانتوم ، رواية غير موثوقة كما تعودنا منه ، كيف أن شارل التاسع رغب فى أن يعرف كيف ينفذ النشالون أفانينهم ، « فأمر شرطته بدعوة بعضهم إلى حفلة راقصة ملكية ، وطلب بعد انتهاء الحفل أن يرى غنائمهم ، فوجد أن ما جمعوه من نقود وحلى وملابس بلغ دون تباه أو تفاخر ، فى هذا المساء ، ما قيمته عدة آلاف من الدولارات ، مما ظن معه أن الملك سيموت من كثرة الضحك » . ورخص لهم فى الاحتفاظ بحصيلة فنيهم ودراساتهم ، ولكنه ضمهم إلى الجيش لأن مماثهم خير من بقائهم على قيد الحياة (١٣) . فإذا صنفنا ، باعتبارها جرائم ، الغش فى السلع ، والمغالطة التى تنسم بها حيل رجال الأعمال ، وتفشى الرشوة فى المحاكم ، والاستيلاء على أملاك الكنيسة ، وتوسيع الحدود بالغزو

والفتح ، نقول إذا صنفنا هذه كلها في عداد الجرائم ، لوجدنا أن واحداً من بين كل اثنين في أوروبا لص ، وقد نُضفي على بعضهم الحصانة الأكليريكية ، وقد نسلم بوجود حرق أمين هنا أو هناك . فإذا أضفنا إلى ذلك شيئاً من إحراق المباني عمداً ، وبعضاً من حوادث اغتصاب الفتيات ، وقليلاً من الخيانة ، لبدأنا ندرك المشاكل التي تواجهها قوات النظام وحماة القانون .

وقد نظمت قوات النظام والقانون هذه ، لتوقيع العقاب ، أكثر منها لمنع الجرائم ، وكان رجال الشرطة في بعض المدن الكبرى ، مثل باريس ، هم حفظة الأمن ، وكان لكل قسم في المدينة مراقبه وحراسه ، ولكل أبرشية شرطتها . ولكن ضبط الأمن والنظام كان في المدن شيئاً إجمالاً ، وأجهد رجال الحكم أنفسهم في مكافحة الطبيعة البشرية ، وأخيراً قدروا أنه من الأفضل والأقل تكلفة ، الحد من الجرائم بفرض عقوبات بالغة الشدة وتنفيذها علناً أمام أعين الناس . . وكان هناك عشرات من الجرائم الرئيسية : القتل ، الخيانة ، الهرطقة ، تدنيس المقدسات والمعابد ، السحر ، السلب ، التزوير ، التزييف ، التهريب ، الإحراق عمداً ، الحنث بالقسم ، الزنى ، اغتصاب الفتيات (إذا لم يسو بالزواج) ، اللواط ، « الانغماس في الشهوات البهيمية » ، غش الموازين والمقاييس ، إفساد الطعام ، تخريب الممتلكات ليلاً ، الهروب من السجن ، الإخفاق في محاولة الانتحار ، وقد تكون العقوبة ضرب العنق بدون ألم أو تعذيب نسبياً ، وهذا امتياز اختص به عادة السيدات وأفاضل الرجال ، أما من هم أقل مكانة فكانوا يشنقون . أما الهرطقة وقتلة الأزواج فكانوا يحرقون . أما السفاحون البارزون فكانوا يشدون أطراف الواحد منهم (يديه ورجليه) إلى أربعة خيول يجرى كل منها في اتجاه مضاد حتى يتمزق جسم المجرم . وأصدر هنري الثامن في ١٥٣١ قانوناً يعاقب من يدس السم ، بالغلي حياً^(١٤) ، كما نفعل نحن الأكثر وداعة ورقة بالحمار أو السمك .

ولص قانون محلي في سالزبرج بأن يحرق المزور أو يغلى حتى الموت . وأن يقطع لسان الحائث في اليمن من رقبتة . أما الخادم الذي يضاجع زوجة سيده أو ابنته أو شقيقته فيضرب عنقه أو يشنق (١٥) ؛ وأحرقت جولين رابو في آنجرز (١٥٣١) لأنها كانت قد قتلت طفلها أثر ولادة مؤلمة (١٦) . وهناك أيضاً ، إذا صدقنا ما رواه بودن ، عدة أفراد أحرقوا أحياء لتناولهم اللحم يوم الجمعة ، ورفضهم الندم على ما فعلوا ، أما الذين أظهروا الندم فكانت عقوبتهم مجرد الشنق (١٧) ؛ وكانت العادة أن تترك جثة المشنوق معاقبة حتى تنهش الغربان لحمها ، ليكون عظة وعبرة للأحياء ، وفي الجرائم الصغرى كان يجلد الرجل أو المرأة أو تقطع إحدى يديه أو قدميه أو أذنيه ، أو أنفه ، أو تفقأ إحدى عينيه أو كنتاهما ، أو يكوى بالحديد الحمى ؛ وهناك جناح أخف كان عقابها السجن الذي تختلف فيه ظروف المعاملة بين المجاملة والخشونة ، أو تعذيب المذنب بآلة خشبية ذات ثقوب تقيدها رجلاه ويداه ، أو إدخال أيدي المذنب ورأسه في آلة خشبية تسمى « المشهرة » ، أو الجلد ، أو التعذيب على كرسي التغطيس . وكان السجن وفاء للدين معروفاً شائعاً في جميع أنحاء أوروبا . وبصفة عامة كان قانون العقوبات في القرن السادس عشر أشد قساوة منه في العصور الوسطى ، ولقد عكس الفوضى الأخلاقية في ذلك العصر :

ولم يكن الناس يستاءون من هذه العقوبات الصارمة ، بل لقد أحسوا ببعض السرور والابتهاج في مشاهدة تنفيذها وساعدوا في بعض الأحيان في التنفيذ . ولما اعترف مونتكوكولى تحت وطأة التعذيب ، بأنه كان قد سمم ، أُرِحَ أن يسمم ، فرانسيس ، الابن العزيز المحبوب لفرانسوا الأول ، مزقت أوصاله حياً ، بربط أطرافه إلى أربعة خيول جرت في أربعة اتجاهات ، (ليون ١٥٣٦) وقيل إن الجمهور مزق بقايا جسمه إلى قطع

صغيرة ، وفقت أنفه ، واقتلع عيليه ، وحطم فكيه ، ومزغ رأسه في الوحل ، وجعله يموت ألف مرة قبل أن يفارق الحياة (١٨) .

وهناك إلى جانب القوانين التي شرعت للجرائم ، وضعت « القوانين الزرقاء أو قوانين المتطهرين » ضد اللهو والتسلية التي يظن أنها تجافي التقى والورع ، أو الدع التي تنافي العرف بشكل حاد ، فقد اقتضى القانون العرفي في العالم الكاثوليكي أكل السمك في أيام الجمعة ، كما اقتضته قوانين الدولة في إنجلترا البروتستانتية في عهد إدوارد السادس دعماً لصناعة صيد الأسماك ، وتدريباً للرجال على ركوب البحر من أجل الأسطول (١٩) . وكان الميسر دائماً غير مشروع ، ودائماً شائعاً مرغوباً فيه . وأمر فرانسوا ، الذي عرف أساليب اللهو والتسلية ، بالقبض على من يلعبون الورق أو النرد في الحانات أو نوادي الألعاب (١٥٢٦) ولكنه أباح إقامة « يانصيب » عام (١٥٣٩) . وقلما كان القانون يعاقب على إدمان الخمر ، على حين اعتبر البطالة والحمول جريمة رئيسية تقريباً . أما قوانين التبذير أو الإنفاق بسخاء — وهي التي وضعت لضبط الأغنياء الجدد الذين ينفقون إنفاقاً مريباً يدعو إلى الاشتباه ، والمحافظة على فوارق الطبقات ، فقد حددت هذه القوانين ، الأزياء والزينة والأثاث ووجبات الطعام وواجبات الضيافة . ويقول لوثر « عندما كنت صبياً كانت الألعاب محرمة ، حتى أن صانعي أوراق اللعب ، والعازفين على المزمار والممثلين لم يكن يسمح لهم بشهود الأسرار المقدسة . أما من كانوا قد اشتركوا في الألعاب ، أو حضروا حفلات الألعاب أو الروايات ، فكأنوا يجعلون هذا موضوع اعتراف أمام القسيس » (٢٠) . وعاشت هذه المحرمات بعد الإصلاح الديني . وبلغت ذروتها في أخريات القرن السادس عشر .

وثمة بعض العزاء في أن التطبيق قل أن كان على قدر صرامة القانون ،

وكان التمرب أمراً ميسوراً : وكم من قاض أو محلف ، بدافع الشفقة أو التخويف أو بفضل الرشوة - أطلق سراح كثير من الأوغاد مقابل عقوبة يسيرة أو غرامة . وكانت قوانين اللجوء إلى الكنيسة لا يزال معمولاً بها في عهد هنري الثامن ، وكانت المرونة في التطبيق ، على أية حال ، تتوازن مع استعمال التعذيب لانتزاع الاعترافات أو البيانات . وهناك كانت قوانين هنري الثامن ، على الرغم من كونها أقسى القوانين في تاريخ إنجلترا - نقول كنت متقدمة عن زمانها (٢١) ، لأنها حرمت التعذيب إلا إذا روى أن الجريمة علاقة بالأمن القومي (٢٢) ، ويمكن أن يكون الإبطاء في محاكمة المتهم تعذيباً أيضاً . فقد شكّا كورتيز الأسباني إلى شارل الخامس من أن المتهمين ، حتى بأخطاء يسيرة ، طال بقاؤهم في السجن عشر سنين أو نحوها ، قبل أن يحاكموا ، وأن المحاكمات قد تتأكل لمدة عشرين عاماً (٢٣) .

وترعرع المحامون وتضاعف عددهم مع اضمحلال جماعة الكهنة ، وملأوا مناصب السلطة القضائية والبيروقراطية العالية ، ومثلوا الطبقات الوسطى في الجمعيات الوطنية والبرلمانات الإقليمية ، وحتى الطبقة الأرستقراطية ورجال الدين اعتمدوا على المحامين في القضايا المدنية ، وتكونت منهم في فرنسا طبقة جديدة : « نبلاء الرداء - الروب » ، أو على حد قول رابليه الهجاء الفرنسي « القطط ذوات الفراء » . واختفى القانون الكنسي في الأقطار البروتستانتية . وحلت فلسفة التشريع محل اللاهوت « كأداة للمقاومة » في الجامعات . وعاد القانون الروماني إلى الحياة في الأقطار اللاتينية ، وسيطر على ألمانيا في القرن السادس عشر ، وعاش القانون المحلي معه جنباً إلى جنب في فرنسا . أما في إنجلترا فقد فضّلوا عملية « القانون العرفي » . ولكن كان لقوانين جستنيان بعض الأثر في تشكيل وتدعيم الحكم المطلق الذي أقامه هنري الثامن . على أنه في

بلاط هنرى الثامن نفسه ، ألف قسيسه الخاص توماس ستاركى (١٥٣٧) « حواراً » كانت الفكرة الأساسية فيه أن القوانين يجب أن تفرض بإرادة الملك ، وأن الملوك يجب أن يخضعوا للانتخاب والعزل .

لا يمكن أن يطول حكم هذه البلاد حكماً صالحاً ، أو الاحتفاظ فيها بسياسة حكيمة ، طالما أنها تحكم بإرادة فرد لم يتم اختياره بطريق الانتخاب ، بل أنى إلى العرش بالتعاقب الطبيعى . فقلما شهدنا أن الدين يأتون إلى العرش أو الممالك عن طريق هذا التعاقب ، كانوا جديرين بتولى هذه المناصب السامية والسلطات العالية وأى شيء أبغض إلى الطبيعة من أن تحكم أمة بأمرها وفق إرادة أمير ؟؟ وأى شيء أكثر تنافياً مع العقل من أن شعباً برمته يحكمه من يعوزه العقل عموماً ؟؟ وليس ثمة إنسان يستطيع أن يخلق أميراً حكيماً عاقلاً ممن ينقصه الذكاء والحصافة بالطبيعة ولكن فى مقدور الإنسان أن ينتخب ويختار من يتوفر فيه العقل والعدالة معاً ، فينصبه أميراً ، ومن ثم يخلع الطاغية المستبد (٢٤) .

وكان موضع العجب والغرابة أن يموت ستاركى موتاً طبيعياً بعد عام واحد من كتابة « حوار » الذى لم يطبع إلا بعد ٣٣٤ سنة من تدوينه .

٣ - الأخلاق

كيف كان سلوك الناس فى العالم المسيحى اللاتينى ؟ إنه لجدير بنا ألا يضللنا جهرهم بالإيمان بالدين ، حيث لم يكن ذلك فى الغالب إلا ولعاً بالشقاق والمشاكسة ، أكثر منه ورعاً وتقوى . فإن نفس الشخص العنيد الذى يستطيع أن يتشدد فى إيمانه يستطيع أن يكون عنيفاً كذلك فى تجديفه ، وإن البنات اللاتى ينحنين متظاهرات بالرزانة والاحتشام أمام تماثيل العذراء ،

أيام الأحد ، ليصبغن وجناتهن بالحمرة ويتجمعان طيلة الأسبوع يحدوهم
الأمل ، وكثيرات منهن انزلن تحت تأثير الإغراء والغواية ، لمجرد عرض
فكرة الزواج . وما كان من الميسور حماية العذارى وعذرتهم وبتولتهم
إلا بالتمسك بكل أهذاب العرف والأخلاق والقانون والدين وسلطة الوالدين
والتعليم ، و « حدود للشرف » . ولكن ما كان أكثر الاحتيال على الانزلاق .
إن الجنود الذين عادوا من الحملات التي كان الخمر والنساء فيها عزاءهم
وتسليتهم الأساسية ، وجدوا من المؤلم لهم ومن الغسير عليهم أن يروضوا
أنفسهم على الغنمة والامتناع عن شرب الخمر . وانغمس الطلبة في الفسق
والفجور ، واحتجوا بأن الزنى خطيئة عرضية تغتفر» (٢٥) ، ويمكن أن
يتجاوز عنها المشرعون المستنيرون . ولقد أعان روبرت جرين أنه في
كمبردج كان قد « أفنى زهرة شبابه بين أوغاد فاجرين لا يقلون عنه
دعارة » (٢٦) . وكثيراً ما ظهر الراقصات على المسرح ، أو في أى مكان
آخر ، « عاريات تماماً » (٢٧) . ومن الواضح أن هذه بدعة من أقدم البدع
في الدنيا — ولقد نظر الفنانون بازدراء إلى قواعد السلوك الجنسي ونظمه (٢٨) ،
واتفق اللوردات والسيدات مع الفنانين في ذلك . وكتب برانتوم : « إن
الطبقات العليا استخفت بقواعد السلوك عند العذارى وما يحوم حولهن من
شكوك ، وكم من آفات أعرفهن في دنيا العظماء ، لم يأخذن معهن
بكاتهن إلى فراش الزوجية » (٢٩) . ولقد لحظنا نوع القصة التي بدا أن
مرجريت نافار الجميلة سمعتها دون أن تحمر وجنتها خجلاً . وكم زحرت
المكتبات بكتب الأدب الخايع المكشوف ، التي تدفع فيها أثمان عالية
في نهم شديد (٣٠) . وكان لأرتينو (هجاء لاذع في إيطاليا في القرن
الخامس عشر) في باريس شعبية قدر شعبيته في رومه » ، ولم يحس
رابليه ، الكاهن بأنه من الجائز أن ينقص المبيع من ماحمته « جارجنتوان
Gargantuan » بمشوها بكلام جعل أرتينو يسارع لإخفائه . ووجد

الفنانون سوقاً رائجة للصور الجلسية ، بل حتى للانحرافات المصورة (٣١) ، وكان الباعة المتجولون في الشوارع ، وحاماة البريد واللاعبون الجوالون يبيعون روائع الصور التي من هذا القبيل ، حتى في المعارض والأسواق الحرة الكبرى (٣٢) . لقد وجدت كل ألوان الابتذال والانحراف لها مكاناً فسيحاً في تلك الحقبة (٣٣) ، مثلما وجدت في الصفحات التي دونها برانتوم والتي تتسم بالأرستقراطية (٣٤) .

وزاد الدخل من البغاء وارتفع شأنه . وحدث في هذا العصر أن أطلق على من يمارسونه « سيدات البلاط » - (في مقابل رجال البلاط) : وقدم بعض القواد البغايا إلى جيوشهم ، حرصاً منهم على حماية سيدات البلاد التي يحتلونها (٣٥) . ولكن نسبة الأمراض السرية ارتفعت إلى حد الوباء تقريباً . فكم أصدرت الحكومة تلو الحكومة من تشريعات ضد « بنات الهوى » التعيسات . وعلى حين أكد لوثر أن الرغبة الجنسية أمر طبيعي ، نراه قد كافح للإقلال من البغاء ، وبتحريض منه حرمة كثير من مدن ألمانيا اللوثرية (٣٦) . وفي ١٥٦٠ جدد ميشيل دي لوبيتال مستشار فرنسا قوانين لويس التاسع ضد هذه الرذيلة ، والظاهر أن أوامره نفذت .

وفي الوقت نفسه نجد أن الشهوة الحمقاء للجسد من أجل الجسد ، أورثت ظمأ النفس إلى النفس ، وإلى كل ما كان يزدان به التودد والحب الرومانتيكي من رقة وكياسة ، وتدفقت الدماء التي تغلي في العروق في النظرات المختلسة والرسائل الغرامية والقصائد الغنائية والمقطوعات الشعرية والأناشيد والقطع الغزلية والهدايا المشجعة واللقاءات السرية . ورحبت بعض الشخصيات المهذبة أو السيدات اللعوبات من إيطاليا وكاستايوني ، بالتسلي بحب أفلاطوني تكون فيه السيدة والرفيق المتودد إليها صديقين حميمين ، ولكن محافظين على الطهارة والعفة ، ولكن مثل هذا اللون من كبح جماح النفس لم يكن من شيمة هذا العصر . فقد كان الرجال شوانيين بطريقة مكشوفة ، وأحب النساء هذه

الحلة فيهم ، وكثر شعر الغرام ، ولكنه كان مقدمة لافتناس النساء .

وبالنسبة لازواج ، بقي الآباء واقعيين إلى حد عدم السماح للمحب باختيار رفيقة الحياة ، فقد كان الزواج في شريعتهم زفاقاً إلى الضيعة أو الثروة أو المكانة الاجتماعية (زواج المصلحة) ، ونصح إرزم الذي كان شديد الإحساس بمفاتن المرأة ، لا بالزواج ، نصح الصغار بالزواج ممن يختاره الكبار ، على أن يتركوا الحب يندو بالمزاملة والمرافقة أفضل من أن يذبل ويدوى بإشباع الشهوة (٣٧) ، واتفق رابليه معه في هذا الرأي (٣٨) . وعلى الرغم من هؤلاء الثقات ، ثار عدد متزايد من الشباب ، مثل جان د ألبرت ، على الزيجات المبنية على الثروات والعقارات الثابتة . ونعى روجر أسكام معلم الماكة اليصابات : « أن عهدنا بعيد جداً عن النظام والامثال القديمين : حتى أن الشبان ، بل والبنات أنفسهن — أصبح الجميع يجروئون على الزواج رغم أنف الأب والأم والرب والنظام السليم وكل شيء » (٣٩) . وفزع لوثر حين علم بأن ابن ميلانكتون خطب لنفسه عروساً دون استشارة أبيه ، وأن أحد صغار القضاة في وتنبرج أعلن صحة هذه الخطبة ، ورأى المصلح الديني (لوثر) أن هذا سيسىء حتماً إلى سمعة وتنبرج . وفي ٢٢ يناير ١٥٤٤ كتب في الجامعة :-

إن لدينا عدداً وفيراً من الشبان من مختلف البلاد ، وإن سباق البنات ليستد ، وانهم لييجرين وراء الرفاق في حجراتهم وقاعاتهم : وحيثما استطعن إليهم سبيلاً ، ليعرضن عليهم جهن الطليق . ولقد سمعت أن كثيراً من الآباء أمروا أبناءهم بالعودة إلى بيوتهم . . . قائلين إننا نعلق الزوجات حول رقاب أبنائهم . . . وفي يوم الأحد التالي ألقى عظة قوية أدعو الرجال إلى اتباع السبيل القويم والقناعة اللتين وجدتا منذ بدء الخليقة . . . أعني أن يزوج الآباء أبناءهم بعضهم من بعض بروية وحسن نية ، دون أن يرتبط الأبناء بارتباط

تمهيدى . . فإن مثل هذه الارتباطات من ابتداع البابا الممقوت ،
أوحى بها إليه الشيطان ليحطم ويمزق سلطة الآباء التى منحها الله
إياهم وأوصى بها لهم بصفة جدية (٤٠) ؛

وكان يمكن تنظيم عقود الزواج للأولاد والبنات ابتداء من سن الثالثة ،
ولكن كان من الميسور فسخها إذا لم تتحقق ؛ وكانت السن الشرعية للزواج
الرابعة عشرة للولد والثانية عشرة للبنت ؛ وكان من المستطاع التجاوز عن
العلاقات الجنسية بعد الخطبة وقبل الزفاف ، وحتى قبل الخطبة ، فى السويد
وفى ويلز ، كما كان فى بعض المستعمرات الأمريكية فيما بعد ، وكان يسمح
للحبيبين بالاشتراك فى فراش واحد دون أن يخالعا ملبسهما ، ولكنهما كانا
يذكران بالاحتفاظ بملاءة بينهما حتى لا يلتصق جسماهما (٤١) . ولم يعد الزواج
فى البلاد البروتستانتية سرّاً مقدساً ، وما حل عام ١٥٨٠ حتى بات الزواج
المدنى يزاحم الزواج على يدى الكاهن . وارتأى لوثر وهنرى الثامن ولارزم
والبابا كليمنت السابع أن الزواج من امرأتين يمكن أن يرخص فيه تحت
شرط معينة ، وخاصة إذا كان بديلاً لطلاق ؛ واتجه رجال الدين من
البروتستانت شيئاً فشيئاً إلى إباحة الطلاق ، وكان ذلك فى أول الأمر بسبب
الزنى فحسب ، وكانت هذه الجريمة أكثر شيوعاً فى فرنسا ، على الرغم من
عادة قتل الزوجة الزانية هناك ، وكان الحب غير المشروع جزءاً من الحياة
العادية للسيدات الفرنسيات ذوات المركز الاجتماعى المرموق (٤٢) . وكان
البيت الذى يضم زوجاً وزوجتين أمراً مألوفاً كثيراً فى فرنسا ، مثال ذلك
البيت الذى كان يضم هنرى الثالث وكاترين دى مديتشى وذيان دى بواتييه ،
وكانت الزوجة الشرعية (المفقود عليها) ترتضى هذا الوضع فى كياسة مرة
ساخرة ، كما يحدث أحياناً فى فرنسا اليوم .

وباستثناء الطبقة الأرستقراطية ، كانت المرأة قبل الزواج معبودة

واللهة ، وبعده خادمة . وكانت الزوجة تقوم بواجبات الأمومة خير قيام أدون صعوبة أو تردد ، وتبتهج وتفاخر بكثرة الأولاد ، وتحتال على أن تسوس رب البيت . وكان النساء قويات معتادات على العمل الشاق من طلوع الشمس إلى مغربها ، ويقمن بحياكة معظم الملابس اللازمة لأسراتهن . وكن في بعض الأحيان يعملن مع المقاولين الرأسماليين . وكان النول جزءاً أساسياً من البيت ، وفي إنجلترا كان معظم النساء غير المتزوجات غزالات ، أما سيدات البلاط الفرنسي فكن شيئاً آخر ، ولقد شجعهن فرانسوا الأول على تجميل أجسامهن وملابسهن ، واستطعن في بعض الأحيان تحويل السياسة الوطنية بفعل « القذائف الموجهة » التي تطلقها مفاتهن . وورد من إيطاليا على فرنسا ، حركة نسائية ، ولكنها لم تلبث أن خمدت ، لأن النساء أدركن أن قوتهم وشهرتهن شيء مستقل عن السياسة والقانون . وكان كثير من نساء الطبقة العليا على درجة عالية من الثقافة . وفي باريس ، وفي غيرها ، بدأ الصالون الفرنسي آنذاك يتشكل ، حيث جعلت السيدات المثقفات ذوات اليسار من بيوتهن ملتقى رجال الدولة والشعراء والفنانين والعلماء والأساقفة والفلاسفة ، وثمة مجموعة أخرى من السيدات الفرنسيات بقين متمسكات بأهداب الفضيلة ، في هدوء ، وسط العاصفة الهوجاء - عاصفة الجنس - مثل آن أوف فرانس ، وآن أوف برتياني ، وكلود ، ورينيه . وبصفة عامة ، فإن الإصلاح الديني الذي نبت في تربة تيوتونية (ألمانيا وشمال أوروبا) عمل على تدعيم فكرة المجتمع الأبوي وسلطان الأب على المرأة والأسرة . كما وضع الإصلاح حداً لتمجيد المرأة في عصر النهضة ، بوصفها نموذجاً للجمال وعاملة على تمدين الرجل ، كما أدان الكنيسة بالتساهل في الانحرافات الجنسية ، ومهد الطريق بعد موت لوثر بلقاء المتطهرين (الحركة البيوريتانية) .

وتدهورت الأخلاق الاجتماعية بنشوء الروح التجارية وشدة الاهتمام بالربح ، والإحجام المؤقت عن أعمال البر والإحسان والصدقات ، ووجد

الخداع والتضليل والحيانة — وهى أمور طبيعية فى الإنسان — أساليب وفرصاً جديدة ، منذ حلت اقتصاديات المال محل النظام الإقطاعى ، ومنذ تملك الأغنياء الحدود السندات المالية أكثر مما تملكوا الأرض ، وكانوا قليلاً ما يرون الأفراد الذين أفادوا من كدهم وعرقهم ، فإن هؤلاء الأغنياء لم يكن لديهم من تقاليد المسئولية والكرم ما كان قد ذهب وولى مع الثروة القائمة على امتلاك الأرض (٤٣) . وكانت التجارة والصناعة فى العصور الوسطى قد ارتضتا الضوابط الأخلاقية المتمثلة فى توجيهات النقابات والمجالس المحلية والكنيسة ، ولكن الرأسمالية الجديدة رفضت كل هذه القيود ، وجرت الناس إلى منافسة عنيفة طوحت بالقوانين القديمة عرض الحائط (٤٤) . وحلت الخيل التجارية محل الخيل الموسومة بالتقى والورع . وضجعت نشرات الإعلان فى ذلك الزمان بالتحذيرات من غش الأطعمة وسائر المنتجات بالجملة . وشكنا مجلس الديت فى انسبروك ١٥١٨ ، من أن المستوردين « يضيفون الآجر المسحوق إلى الزنجبيل ، ويخلطون الفلفل بمواد غير صحية » (٤٥) . ولحظ لوثر أن التجار « عرفوا كيف يحتالون على زيادة وزن التوابل — مثل الفلفل والزنجبيل والزعفران — بوضعها فى أقبية رطبة ، وأنه ليس ثمة سلعة واحدة لا يستطيعون أن يجنوا من ورائها أرباحاً طائلة بالغش فى الكيل أو العد أو الوزن أو استحداث ألوان مصطنعة . . . وليس ثمة نهاية لحيلهم » (٤٦) . ووصف سناتو البندقية حمولة سفينة من الأصواف الإنجليزية بأنها مغشوشة من حيث الوزن والصنع والحجم (٤٧) .

وكان الناس فى الأقطار اللاتينية لا يزالون يقبلون على أعمال البر والإحسان والصدقات بصدور منشرحة ، كما كان الحال فى العصور الوسطى ، وأنفقت الأسرات النبيلة جزءاً كبيراً من دخولها فى الهبات والصدقات (٤٨) . وورثت ليون عن القرن الخامس عشر منظمة ضخمة للصدقات المحلية أمدتها المواطنون بالأموال بسخاء عن طيب خاطر (٤٩) . أما

في ألمانيا وانجلترا فلم تكن الأيدي مبسوطة إلى هذا الحد . وبذل لوثر كل ما في وسعه ليعيد نظام الصدقات الذي كان قد اختل بمصادرة الأمراء لأموال الأديرة ، ولكنه اعترف بأن جهوده لم تكال بالنجاح . ورثي « لأن الناس في عهد البابوية كانوا محسنين وتصدقوا عن طيب خاطر » (٥٠) ، ولكنهم في ظل شريعة الإنجيل لم يعودوا يعطون شيئاً ، وبات كل فرد يسلب الآخر ولن يتصدق أحد بفلس واحد » (٥١) ، ونقل إلينا لاتيمر (من رجال الإصلاح الديني البروتستانتي في إنجلترا في القرن السادس عشر) رواية مشابهة : « لم يقس قلب لندن قط كما هو حالها الآن ، فإذا مات أحد الأغنياء في الأزمنة الغابرة ، كان ذروه يرصدون مبالغ كبيرة من المال لإغاثة الفقراء . . . أما الآن فقد تجمدت المروعة وانقضت عهدها » (٥٢) . وأبلغ الكاردينال بول لندن ، أن مدينتي في إيطاليا تصدقتا بأكثر مما تصدقت به إنجلترا بأسرها (٥٣) . وانتهى فرود إلى أنه « لما انتشر الصدق ، تقلص البر والعدل في إنجلترا » (٥٤) ، ويحتمل أنها ليست البروتستانتية ، ولكنها الروح التجارية والكفر هما اللذان أنقصا الصدقات والإحسان . واشتد الفقر حتى أصبح يشكل أزمة اجتماعية ، فإن المستأجرين المطرودين والعمال المهرة العاطلين والجنود المسرحين هاموا على وجوههم في الطرقات أو الأكواخ المصنوعة من القش يسألون الناس أو يسلبونهم ليعيشوا : وقدر عدد المعوزين في أوجزبرج بسدس السكان وفي همبرج بنحسبهم ، وفي لندن برهمهم (٥٥) : وصاح المصلح الديني توماس لفر يوما « يا رب يا رحيم ! ما هذا العدد الضخم من الفقراء والضعفاء والعرج والعمى والمقعدين والمرضى . . . والذين يرقدون أو يزحفون في الشوارع الموحلة » (٥٦) وكان لوثر الذي امتلأ قلبه بالرحمة قدر ما اتسم لسانه بالقسوة ، من أول من أدركوا أن الدولة يجب أن تتولى عن الكنيسة رعاية المعوزين وإنقاذهم . وفي حديثه « إلى أشرف المسيحية في الأمة الألمانية » (١٥٢٠) اقترح

أن تنكفل كل مدينة بالمعوزين فيها . وفي أثناء تغيّبه في ورتبرج ،
نظم أتباعه المتطرفون في ورتبرج — صندوقاً جماعياً لرعاية الأيتام ،
ودفع مهور البنات الفقيرات ، ورتيب منح دراسية للطلبة المحتاجين ،
وإفراض الأموال للأسرات التي أخفى عليها الدهر ، وفي سنة ١٥٢٥ أصدر
لوثر توجيهاً بإنشاء صندوق عام . حث فيه المواطنين ورجال الدين في كل قسم
على أن يفرضوا على أنفسهم ضريبة يسهمون بها في تكوين رصيد يقدمون
منه قروضاً بدون فائدة للمحتاجين أو غير القادرين على العمل (٥٧) . وفي
١٥٢٢ عيّنت أوجزبرج ستة « حماة الفقراء » ليشرّفوا على توزيع
المساعدات عليهم ، وتبعتهما نورمبرج في الحال ، ثم ستراسبورج ویرسلاو
(١٥٢٣) ، وراتسبون ومجلدبرج (١٥٢٤) .

وفي تلك السنة كتب أسباني من دعاة الحركة الإنسانية ، جوان لويس
فيفز لمجلس مدينة بروجز نشرة عنوانها : « إعانة الفقراء » . وقد لحظ
انتشار الفقر وسط نمو الثروة ، وأندر بأن الإفراط في عدم المساواة في الملكية
قد يولد ثورة مدمرة . وكتب يقول : « كما أنه من الحزى والعار على
رب الأسرة في بيته الهائئ أن يسمح لفرد فيه أن يعاني مهانة العرى
أو الأسمال البالية ، فإنه كذلك ليس من اللائق بولاية الأمور في المدينة أن
يحملوا حالة مواطنين يتضورون جوعاً وبؤساً » (٥٨) . ووافق فيفز على
أن يجبر على العمل كل قادر عليه ، وألا يسمح لأحد بالتسول ، ولكن
ما دام كثيرون غير قادرين على العمل فعلاً ، فيجب أن يدبر لهم مأوى
في الملاجئ أو المستشفيات أو المدارس التي تنفق عليها البلديات « على أن
يقدم لهم الطعام والرعاية الطبية والتعليم الابتدائي مجاناً ، ويجب أن تتخذ
تدابير خاصة للمتخلفين عقلياً . وجمع اير Ypres بين أفكار فيفز والسوابق
الألمانية في هذا المجال ، ونظم في ١٥٢٥ صندوقاً جماعياً وُحد أموال

الصدقات في رصيد واحد ووكل توزيعها إلى رئاسة واحدة . وطاب شارل الخامس (١٥٣١) نسخة من خطة ابر . وأرسل هنرى الثامن توجيهاً مماثلاً إلى أبرشيات إنجلترا (١٥٣٦) . واحتفظت الكنيسة في البلاد الكاثوليكية بإدارة أموال الصدقات .

وبقى الخلق السياسى مطبوعاً بالملكيا فلية : واعتبر نظام الجاسوسية أمراً مسلماً به . وكان من المتوقع أن يبلغ جواسيس هنرى الثامن في رومه عن أخطر محادثات الفاتيكان وأكثرها سرية (٥٩) . وكانت الرشوة عملية تقليدية ، وتدفقت في سماء أكثر بعد تدفق الذهب من أمريكا . وتسابقت الحكومات على نقض المعاهدات . ونافست الأساطيل المسيحية والتركية بعضها بعضاً في أعمال القراصنة . وبعد تدهور نظام الفروسية انحطت أخلاقيات الحرب إلى ما يشبه الهمجية ونهبت أو أحرقت المدن التي كانت قد أخفقت في مقاومة الحصار ، وذبح الجنود المستسلمون أو استعبدوا حتى تدفع عنهم الفدية . أما القوانين والمجاملات الدولية التي كانت سائدة في حالة خضوع الملوك أحياناً لتحكيم البابوات ، فقد اختفت في فوضى التوسع القومى والعداء الدينى . واعترف المسيحيون ببعض الضوابط الخلقية تجاه غير المسيحيين ، وبادلهم الأتراك نفس المعاملة . وأسر البرتغاليون زنوج أفريقية واستعبدوهم . ونهب الغزاة الأسبان المواطنين الأمريكيين واستعبدوهم وقتلوهم ، دون أن يخفوا عزمهم الأكيد على تحويل الدنيا الجديدة إلى المسيحية ، وكانت حياة الهنود الحمر في أمريكا في ظل الحكم الأسبانى مزيرة تغيسة إلى حد انتحار الآلاف منهم (٦٠) ، بل حتى في العالم المسيحى نفسه في ذلك العصر كثرت حوادث الانتحار إلى درجة مروعة (٦١) . واغتنر بعض دعاة الحركة الإنسانية إهلاك النفس . ولكن الكنيسة حكمت بأنه يؤدى إلى الجحيم مباشرة ، ومن ثم يكون المنتحر كالمستجير من الرمضاء بالنار .

إن كل ما فى الإصلاح الدينى ، ولو أنه فى نهاية الأمر أصلح من

الأخلاق في أوروبا — دمر الفضائل العلمانية . ولقد نعى بركهيمر وهانز ساكس — وكلاهما متعاطف مع لوثر — أن فوضى السلوك العشوائي غير المنظم قد سادت بعد انهيار السلطة الدينية (٦٢) : وكان لوثر كعادته ، صريحاً جداً في هذه النقطة :

كلما تقدمنا إلى الأمام ، ازداد العالم سوءاً فن الواضح جداً كيف أن الناس أصبحوا نهمين قساة بذيئين وقبحين شريرين أكثر بكثير مما كانوا عايناه في ظل البابوية (٦٣) . . .
فنحن الألمان اليوم موضع سخرية كل الأقوام والشعوب ووصمة عار لهم ، ونحن نعتبر قطيعاً مخزياً كثيباً من الخنازير نحن نكذب ونسرق ، ونفرط في الطعام والشراب ، وننغمس في كل رذيلة (٦٤) وإن الشكوى عامة من أن شبان اليوم منحلون فوضويون تماماً ، وأنهم لا يستبشرون لأنفسهم أن يزدادوا علماً ومعرفة : ويروح نساء وتنبرج وبناتهن ويبحثن في كل مكان عاريت ، وليس هناك من يعاقبن أو يصحح أخطاءهن ، ساخرات من « كرامة الرب » هازئات بها (٦٥) .

ووصف واعظ لوثرى ، أندريا مسكولوس ، عصره (١٥٦٠) بأنه فاسق غير أخلاقي ، إذا قورن بالألمان في القرن الخامس عشر (٦٦) : واتفق معه في ذلك كثير من زعماء البروتستانت (٦٧) . وتأوه كلفن قائلاً « إن المستقبل يفزعني ، ولست أجروء على التفكير فيه . إن الهمجية سوف تجرفنا إلا إذا هبط الرب من السماء (٦٨) : وأنا لنسمع شيئاً من هذا القبيل عن اسبكتلنדה وإنجلترا (٦٩) . ولخص فرود ، وهو النصير المتحمس لهنرى الثامن ، الموضوع باعتدال وإنصاف ، فقال :

إن الحركة التي بدأها هنرى الثامن ، بالحكم عليها بنتائجها الحالية

(١٥٥٠) أسلمت البلاد آخر الأمر إلى مجرد مغامرين : إن الناس استبدلوا بخرافة من أكبر مساوئها أنها فرضت ظلام الاحترام والطاعة ، خرافة أخرى ، مزجت الطاعة بإيمان متسم بطابع المضاربة : وتحت هذا التأثير المميت ، بدأت تختفي ، لا أسمى فضائل التضحية بالنفس فحسب ، بل أبسط واجبات الاستقامة والأمانة والفضيلة والأخلاق . وأصبحت الحياة الخاصة بدنس بدلا للخلاعة رجال الدين الكاثوليك أنه البراعة والظهور . . . ومن بين الفئة الصالحة التي لم يمسهما الدنس ، لا يزال من الممكن العثور على أفاضلهم في جالب الإصلاح (٧٠) .

وقد لا يكون من اليسير أن تنسب هذا الانحطاط الخلقى في ألمانيا وإنجلترا ، إلى فك لوثر لقيود الجنس ، وازدراثة « للأعمال الصالحة » ، أو إلى المثل السيئ الذي ضربه هنرى الثامن بانغماسه في المغامرات الجنسية وقسوته البالغة ، فقد ساد فسوق مشابه — ومن بعض النواحي أكثر انطلاقاً — في إيطاليا البابوية في ظل البابوات في عصر النهضة ، وفي فرنسا الكاثوليكية تحت حكم فرانسوا الأول . وربما كان السبب الرئيسى في انحلال الخلق فى أوربا الغربية هو نمو الثروة . وثمة سبب أصيل يدعم هذا ، هو تزعزع الإيمان ، لا فى المبادئ الكاثوليكية فحسب ، بل فى أساسيات وأصول العقيدة المسيحية كذلك . فقد رثى أندريا مسكولوس « أنه ليس هناك من يعبأ بالجنة أو الجحيم ، ولا يفكر أحد فى الله أو فى الشيطان » (٧١) . وينبغى فى مثل هذه التصريحات الصادرة عن الزعماء الدينيين ، أن تتجاوز عن مبالغات المصلحين البائسين من ضالة التحسينات التى أدخلتها إصلاحاتهم الدينية على الحياة الأخلاقية : وإذا كان لنا أن نصدق الوعاظ ، فإن الناس لم يكونوا أفضل بكثير فيما مضى ، وقد لا يكونون أفضل بكثير فى القرون التالية . فى مقدورنا أن ندين فى عصرنا هذا كل خطايا القرن السادس عشر وآثامه ،

وأن نتبين خطايانا وآثامنا في كل ما اقترفه الناس في ذلك القرن ، طبقاً لما تيسر لديهم من وسائل وأساليب .

ولنا لنجد في نفس الوقت أن الكاثوليكية والبروتستانتية كلتاهما ، كانتا قد أقامتا ودعمتا أساسين لانبعاث الروح المعنوية والأخلاقية : تهذيب سلوك رجال الإكليروس بالزواج أو بالزهد والتعفف ، والتوكيد على أن البيت هو الملاذ الأخير للإيمان والحشمة واللباقة . وقد يؤتى الإصلاح حقاً ثماره على مدى الأيام ، حتى إلى حد التطرف ، وقد يأتي اليوم حين يرجع الرجال والنساء بأبصارهم إلى الوراء ، في حسد خفي ، إلى القرن السادس عشر ، حيث كان أسلافهم أشراراً وأحراراً إلى الحد الذي كانوا عليه يومذاك .

٤ - آداب السلوك

كان الحكم على الناس آنذاك ، مثل ما هو حادث اليوم ، بعاداتهم أكثر منه بأخلاقهم . لقد تجاوز الناس ، بقدر أكبر من طيب النفس ، عن الخطايا التي ارتكبت بأقل قدر من الوحشية : وأعظم قدر من الكياسة . وفي هذا المجال كانت إيطاليا هي الرائدة ، شأنها في كل شيء باستثناء المدفعية واللاهوت . وكان الناس شمال جبال الألب ، فيما عدا القشرة الرقيقة الخارجية في سكان فرنسا وإنجلترا ، أفضاظاً غلاظاً ، إذا قورنوا بالإيطاليين ، بل كان هؤلاء يسمون الأولين متبربرين همجيين : واتفق مع الإيطاليين في هذا ، كثير من الفرنسيين الذين سحرت ألبابهم فتوحاتهم في إيطاليا في ميادين الحرب وآداب السلوك ، ولكن المتبربرين الهمجيين كانوا يتوقون إلى التمدن وارتقاء سلم الحضارة : وحذا رجال البلاط وسيداته والشعراء والمفسدون في الأرض من الفرنسيين حذو الإيطاليين ونهجوا نهجهم : وسار الإنجليز الهويين خلفهم : وترجم كتاب كامبليوني « رجل البلاط » (١٥٢٨) إلى الفرنسية في ١٥٣٧ ، وإلى الإنجليزية في ١٥٦١ ، واختلفت الدوائر الأدبية

على تعريف الرجل المهذب : ولقيت كتيبات آداب السلوك رواجاً كبيراً .
ولقد ألف إرزم واحداً منها : وأصبح الحديث فناً في فرنسا ، كما كان فيما بعد
في حانة مرميد في لندن (كان يجتمع فيها بن جونسون وشكسبير وغيرهما
من الكتاب . في عصر اليزابيث) : وعبرت مباريات الأجوبة البارعة
السريعة جبال الألب من إيطاليا حول الوقت الذي انتقل فيه كذلك فن
المبارزة بالسيف . وكان الحديث أكثر صقلاً وتهذيباً في فرنسا عنه في
ألمانيا . وكان الألمان يسحقون الرجل بالفكاهة ، أما الفرنسيون فكانوا يخزونه
في ذكاء وفطنة . وكانت حرية الكلام وسيطاً أساسياً في ذلك العصر .

ومنذ كان تحسين المظهر الخارجي أيسر من تهذيب النفس ، فإن الطبقات
الصاعدة في المدن الناشئة في الشمال أولت ملابسها قسطاً أكبر من العناية .
وارتدى عامة الناس ملابس بسيطة للغاية — كما نرى في جماهير بروجل
(مصور فلمنكي) : قبعات على شكل الفنجان ، وبلوزات فضفاضة ذوات
أكمام منتفخة ، وسراويل (بنطلونات) ضيقة تصل إلى الأحذية المريحة ،
ويتركز هذا التشكيل البشع على حقيبة قبيحة ، مزدانة بزخارف براقة ،
تتدلى أمام انفراج ساق الرجل . أما الرجال الموسرون في ألمانيا فقد غلفوا
أجسامهم الجبارة في طيات كثيرة فضفاضة من القماش ، تعلوها قبعات عريضة
تبدو فوق الرأس وكأنها فطيرة ذات مصاطب أو طبقات . أما نساء ألمانيا ،
فالظاهر أنه كان محرماً عليهن أن يلبسن إلا زي مديرات النزل أو الطباخات .
وفي إنجلترا أيضاً كانت ملابس الرجال أجمل وأكثر بهجة من ملابس النساء ،
حتى جاءت الملكة اليزابيث فيزتهن بما ارتدته من أزياء لا يحصيها العد .
وجرى هنري الثامن شوطاً بعيداً في الإسراف في ملابسه ، وكان يحملها
وزيرها بالألوان والحلي والأنسجة الثمينة . ويقول هوللشد إن دوق بكنجهام
كان يرتدى — في زواج الأمير آرثر من كاترين أوف أراجون — عباءة

من شغل الإبرة ، مغطاة بفراء السمور ، قدرت بنحو ١٥٠٠ جنيه (١٥٠٠ ر ١٥٠٠ دولار؟) ، وحرمت القوانين على أى رجل دون رتبة فارس ، أن يقلد فخامة الملابس التى يرتديها من هم أعلى منه مكانة . وغطت الإنجليزيات أجسامهن بالملابس الضيقة من العنق إلى أخمص القدم ، ذات أكمام تصل إلى المعصم ، مع زركشة بالفراء على حروف الثياب ، وأحزمة مثبتة بحلى معدنية ، وقلادة أو مسبحة ، وكانت النساء بصفة عامة تلبس من المجوهرات أقل مما يلبس الرجال :

وفى عهد فرانسوا الأول الذى كان يقدر الشيء حق قدره ، فتجت النساء الفرنسيات الجزء الأعلى من ثيابهن وكشفن عن صدورهن المنتفخة ، وشققن أرديتهن إلى آخر فقرة من ظهورهن . وإذا لم ينتفخ الصدر الطبيعى إلى حد كاف ، وضعن عليه مشدأ يجعله عاليا منتفخا (٧٢) ، وضيقت الملابس وأحكمت فيما تحت الثديين ، وضغطت على الحصر (٢٧٢) ، مع أكمام منتفخة ، وانتشرت من التنورة أسلاك من الخلف وعلى الحافة . واضطرتن الأحذية العالية الكعوب إلى المشية المتبخرة الرشيقة . وكان يباح للمرأة ذات المكانة العالية - وليس لغيرها - أن يكون لثوبها ذيل ، وكلما ارتفع قدرها زاد طول الذيل . وقد يطول الذيل ، إذا سمحت مرتبة الشرف ، إلى سبع ياردات ، وكان يمشى وراء السيدة وصيفة أو خادم لمسك به ويرفعه عن الأرض . وفى طراز آخر الأزياء قد تغطى السيدة رقبتها بطوق أحكم شده بأسلاك ، وعذب الرجال أنفسهم بشيء غريب مماثل فى المناسبات الرسمية ، وفى ١٥٣٥ لحظ سرفيتس « أنه لنساء أسبانيا عادة قد يظن فى فرنسا أنها همجية ، تلك هى أنهن كن يثقبن آذانهن ويعلقن فيها أقراطا ذهبية غالبا ما تكون مرصعة بالأحجار الكريمة » (٧٤) . وما جاءت سنة ١٥٥٠ حتى كانت نساء فرنسا تلبس الأقراط ، بل حتى الرجال كذلك (٧٥) . واستمرت الجواهر والحلى

محتفظة بسلطانها منذ زمن سحيق . وارتدى الرجال في فرنسا قمصانا من الحرير مع صدارات من القطيفة ، وحشوا أكتافهم ، وكسوا أرجلهم بسرابيل قصيرة ضيقة ، وحافظوا على رجولتهم بحقيبة منضدة بالأشرطة أو الجواهر أحيانا . وعلى النقيض من عادات القرن الخامس عشر قصروا شعر الرأس وأرخوا لحاهم . أما النساء فقد احتفظن بشعرهن في تصفيات متنوعة لا تشجع على وصفها . فكان مضمراً معقوصاً ملفوفاً في شباك ، مليئاً بالصفائر العارية ، مزداناً بالأزهار ، براقاً بالجواهر ، مضمخاً بالزيوت العطرية ، مصبوغاً ليتمشى مع الأناقة وأسلوب العصر ، ومرفوعاً على شكل أبراج أو أهرام فوق الرأس ؛ وكان من غير الممكن أن تستغنى السيدة الأنيقة عن الحلاق في هذا الزمان ، فإن تقدم العمر بدا آنذاك قدراً محتوماً أسوأ من الموت .

وإلى أى حد كانت الأجسام نظيفة تحت هذه اللثائف والزخارف ؟ لقد تحدث كتاب من القرن السادس عشر عنوانه « مقدمة للسيدات الشابات » عن « لساء لم يعنين قط بنظافة أجسامهن ، اللهم إلا الأجزاء التي يمكن أن تقع عليها العين . . . أما ماتحت قمصانهن الكتانية فقد بقي قدراً » (٧٦) . وثمة مثل ساخر يقول بأن العاهرات هن الوحيدات اللائي غسلن أكثر من وجوههن وأيديهن (٧٧) . وربما ازدادت النظافة بازدياد الفسق والفجور . فقد كشفت النساء من أجسامهن عن أجزاء أكثر من ذى قبل ، وجعلنها نهياً لأنظار الكثير من الناس . ومن ثم اتسع نطاق النظافة ؛ وأصبحت آنذاك كثرة الاستحمام ، مع تفضيل الماء المعطر ، وخاصة في فرنسا ، جزءاً من العادات الطيبة ؛ وقل عدد الحمامات العامة يتضاعف عدد الحمامات الخاصة ، ولم تكن هذه عادة مزودة بالمياه البخارية ، بل اعتمد فيها على السلطانية (الكوز) والحوض . وظلت شائعة مستحبة في القرن

السادس عشر ، حمامات البخار التي كانت قد جاءت إلى أوروبا الغربية بعودة الصليبيين إليها في القرن الثالث عشر .

وفي البلاد البروتستانتية حل البيت تقريبا محل الكنيسة ، كمركز للعبادة والصلوات . وأدى الوالد مهمة الكاهن في الصلوات اليومية وتلاوة الإنجيل والتراتيم ، وعلمت الأم أبناءها مبادئ العقيدة الدينية . وفي الطبقات المتوسطة سارت الرفاهية جنبا إلى جنب مع التقوى والتدين . فهذا هو العصر الذي تطورت فيه المنضدة ذات الحوامل والألواح الخشبية الملتحمة بعضها ببعض إلى وحدة ذات أرجل متينة ، وتطور المقعد الخشبي والوسائد إلى كرسي مزيج « منجد » وسرير منقوش ذي أربعة قوائم ، فوّه ظلة — وأصبح كل أولئك رمزا للاستقرار الأدبي واليسار المالي . وصنع الأثاث والأطباق والمدافئ وأدوات المطبخ لتحتل بل وتحتفظ بريقها لعدة أجيال . وحلت الأطباق المعدنية محل الأطباق الخشبية ، كما حلت الملاعق المصنوعة من القصدير أو الفضة محل تلك المصنوعة من الخشب . وكانت البيوت واسعة فسيحة لأن الأسرات كانت كبيرة ، لأن النساء كن يلدن في كل عام تقريبا ، ولكن دون جدوى ، لأن نسبة الوفيات بين الأطفال كانت عالية ؛ وكان جون كولد أكبر اثنين وعشرين طفلا . وحين بلغ سن الثانية والثلاثين ، كان كل إخوته قد ماتوا . وكان لأنطون كوبرجر صاحب المطبعة في نورمبرج — خمسة وعشرون طفلا ، وقد عمر هو بعد موت اثني عشر منهم ، وكان ديرر واحداً من ثمانية عشر طفلا ، يبدو أن ثلاثة منهم فقط بلغوا سن الرشد (٧٨) . واستكمالا للأسرة كانت هناك حيوانات منزلية مدللة كثيرة قدر كثرة عدد الأولاد تقريبا . وكانت البيغاوات قد جاءت من جزر الهند الغربية . وكانت القرود التي أحضرت من الهند أليفة أثيرة في البيت (٧٩) . وكان هناك كثير من الكتب التي تعلم النساء والأطفال طرق العناية بالكلاب والطيور وتربيتها .

وكانت وجبات الطعام هائلة . ولم تكن الخبزوات مستساغة ، بل كان الناس يزدرونها ، ثم أقبلوا عليها شيئاً فشيئاً . وشاع آنذاك أكل الكرنب والجزر والخس والراوند والبطاطس والبقول والفريز . وكانت الأكلة الرئيسية في الساعة الحادية عشرة صباحاً وتأخر العشاء إلى الساعة مساءً ، وكلما سمت الطبقة تأخرت ساعة تناول العشاء . وكانت الجمعة والنيك هما المشروبان الرئيسيان في كل وجبات الطعام حتى الإفطار . وكان من طرق توماس مور إلى الشهرة أنه تناول الماء بديلاً عنهما ، وحوالي ١٥٥٠ استنصر الأسبان الشكولاته (الكاكاو) من المكسيك ، ولم يكن البن قد تقاطر بعد من بلاد العرب إلى أوروبا الغربية . وفي ١٥١٢ حددت أسرة دوق نورثمبرلاند ربع جالون من الجمعة لكل فرد فيها في كل وجبة طعام حتى الأولاد في سن الثامنة . وكان استهلاك الجمعة في كوفنتري في القرن السادس عشر ربع جالون يومياً لكل رجل وامرأة وولد (٨٠) . وقد اشتهرت مصانع الجمعة في ميونيخ منذ القرن الرابع عشر (٨١) ، وكان شرب الخمر شائعاً في إنجلترا حتى جاءت « ماري اللعينة » (ماري تيودور ١٥١٦ - ١٥٥٨) فاستهجنته . ولكنه ظل مألوفاً في ألمانيا ، وتناول الفرنسيون الخمر في ائزان أكثر ، لأن الجو عندهم لم يكن بارداً إلى هذا الحد .

وعلى الرغم من الفقر والظلم ، استمر الناس يتمتعون بكثير من نعم الحياة ، وحتى الفقراء أنفسهم كان لهم حدائق ، وأصبحت زهرة التوليب هواية وطنية في هولندا ، وكان قد أحضرها لأول مرة حوالي ١٥٥٠ بوسياك سفير الإمبراطور في القسطنطينية . وكانت البيوت الريفية نمطاً ساراً في إنجلترا وفرنسا . وظل القرويون يحتفلون بأعيادهم الموسمية في عيد الربيع (أول مايو) ، عيد الحصاد ، عيد كل القديسين ، وغيرها كثير ، واحتفل الملوك بعيد الربيع وتوجوا أنفسهم بأكاليل

الزهور ، وكان فيما يتسلى به سراة القوم أحياناً مهرجانات مثيرة
للفقراء ، من ذلك عندما دخل هنرى الثامن ليون فى احتفال مهيب
فى ١٥٤٨ ، وربما كان جمهور الشعب يشهد على مسافة معقولة ،
اللوردات فى مباريات السيوف - وقد بذلت هذه الرياضة بعد موت
هنرى الثانى : وأصبحت المواكب الدينية أكثر وثنية ، عند اقتراب عهد
هنرى الثامن من عصر إليزابث ، وفى القارة أباححت الأخلاقيات المتساهلة
للنساء العرايا أن يمثلن بعض الشخصيات التاريخية أو الأسطورية ،
واعترف ديرر بأنه هو نفسه افتن بمثل هذا العرض فى أنتورب
١٥٢١ (٨٢) .

وكانت هناك الألعاب : وقد أفرد رابليه فصلاً لتسجيلها ، فعلى
أو خيالية . وصور بروجل نحو مائة منها فى إحدى لوحاته . وكان فى تعذيب
الدببة ومصارعة الثيران ومصارعة الديكة تسلية للجمهور ، وروضت كرة
القدم ولعبة الكرات الخشبية والملاكمة والمصارعة شباب العامة ، وطردت
عنهم الأرواح الشريرة ، وكان فى باريس وحدها ، للطبقة الأرستقراطية ،
فيها ١٥٠٢ من الملاعب للتنس ، فى القرن السادس عشر (٨٣) . ومارست كل
الطبقات الصيد ، ولعبت الميسر ولعبت بعض السيدات النرد : ولعب بعض
الأساقفة الورق بنقود (٨٤) . وتجول الممثلون المهرجون والبهلوانات واللاعبون
فى الريف ، وعرضوا أفانينهم وألعابهم على اللوردات نظير جعل يتقاضونه .
وفى داخل البيوت لعب الناس الورق والشطرنج والنرد وعشرات من الألعاب
غيرها ، وكان الرقص أحب أنواع التسلية : ويقول رابليه « وذهب الجميع
بعد العشاء إلى الأيكة ، الممتلئة بالصفصاف ، يلاحق بعضهم بعضاً ، وهناك
على العشب الأخضر ، على الأنغام الشجية من المزمارة وموسيقى القرب رقص
الجميع برشاقة ، فكانت رياضة لطيفة سماوية يلد الإنسان مشاهدتها (٨٥) :
وفى يوم عيد الربيع فى إنجلترا كان أهل القرية يتجمعون حول « عمود مايو »

المزين بالأزهار والأشرطة بشكل بهيج ، ورقصوا رقصاتهم الساذجة الممتلئة حيوية ، ويبدو أنهم بعد ذلك راحوا يقبلون ويعانقون بعضهم بعضاً مما يذكر بعيد فلورا إلهة الزهور عند الرومان . وكانت ألعاب عيد مايو في عهد هنري الثامن تشمل « الرقص العربي » الذي كان قد جاء من عرب أسبانيا عن طريق الرقصة الإسبانية « فندنجو » بالصنوج . ورقص الطلبة في أكسفورد وكبريدج في مرج بالغ الصخب ، إلى درجة أنه كان لا بد من أن يحرم ولیم ويكهام هذا العبث بالقرب من تماثيل الكنيسة ، وأقر لوثر الرقص ، واستساغ بنوع خاص « الرقصة الربيعية » مع الانحناءات الودية والعناق والتمايل الرقيق ، بين المشتركين في الحلبة « (٨٦) ورقص ملائكتون الوقور : وفي لينزج في القرن السادس عشر أقام الآباء في المدينة بانتظام حفلات راقصة حتى يتمكن الطلبة من التعرف على « أشرف وأجمل بنات ذوى المكانة وأعضاء السيناتو والمواطنين » (٨٧) . وكثيراً ما ترأس شارل السادس حفلة الرقص في البلاط الفرنسي : واستقدمت كاترين دي مديتشى إلى فرنسا راقصات إيطاليات ، وهناك في أخريات أيام الملكة الأم التعمية ظهرت رقصات أرستقراطية جديدة : وقال جان تابورو ، في كتاب من أقدم الكتب عن فن من أقدم الفنون : « إن الناس كانوا يمارسون الرقص ليروا هل يتمتع الحبيبان بصحة جيدة ، وهل يناسب كل منهما الآخر ، وفي نهاية الرقص كان يسمح للشباب أن يقبل خطيبته ليستوثق من أن رائحة أنفاسها طيبة وهذه الطريقة يصبح الرقص ضرورياً لبساسة المجتمع سياسة حسنة (٨٨) : وتطورت الموسيقى بفضل مصاحبة الرقص ، من الأشكال الصوتية وجوقة المنشدين إلى استخدام الآلات وتأليف الألحان ، مما جعلها فناً بارزاً ذا شأن في عصرنا :

سمة المدنية ومنبع من منابعها . وتحمس ألفونسو العاشر ملك أسبانيا وثابر على جمع الأغاني للسيدة العذراء ، وتودد جيمس الرابع ملك اسكتلنده إلى مارجريت تيودور بموترة المناثيح (آلة موسيقية تعتبر الأصل الذي تطور عنه البيانو Clavichord) والمزهر (العود) . واصطحب شارل الثامن ملك فرنسا معه فرقة المنشدين الملكية في حملاته على إيطاليا . وغنى شارل الثاني عشر بأعلى صوته مع فرقة المنشدين في البلاط ؛ وألف ليو العاشر بعض الأغاني الفرنسية^(٣) . أما هنرى الثامن وفرانسوا الأول فقد تودد كل منهما إلى الآخر وتحمدها باستخدام فرق المنشدين المتنافسة في ساحة Cloth of Gold . ووصف لويس ميلان البرتغال في ١٥٤٠ بأنها « بحر حقيقي من الموسيقى »^(٤) . وكان لبلاط ماتياس كورفينوس في بودا فرقة منشدين قدروا أنها تعادل فرقة البابا ، وكان في كراكاو على عهد سيجسمند الثاني مدرسة عظيمة للموسيقى ، وكانت ألمانيا تعج بالغناء عندما كان لوثر شاباً ؛ كتب الإسكندر أجريكولا ١٤٨٤ يقول : « إن عندنا هنا في هيدلبرج مغنين يرأسهم رجل يستطيع أن يلحن لثمانية أصوات أو اثني عشر صوتاً »^(٥) . وفي ماينز ونورمبرج وأجزبورج وغيرها من المدن ظل « راعي الشعر والموسيقى » يزين الأغاني الشعبية والقطع الإنجيلية بأبهة المتهذلقين وزخارف فن مزج الألحان ، وربما كانت الأغاني الشعبية الألمانية أفضل مثيلاًتها في أوروبا . وكانت الموسيقى في كل مكان مهيماز التقى وشرك الحب :

وعلى الرغم من أن كل الموسيقى تقريباً كانت في هذا العصر صوتية ، فإن الآلات المصاحبة كانت متنوعة قدر تنوعها في الفرق الموسيقية الحديثة . وكانت هناك آلات وترية مثل الشنطير (آلة موسيقية قديمة تشبه القانون) ، والقيثار ، والقانون ، والشوم (آلة موسيقية خشبية قديمة) ، والعود ، والفيول (وهو نوع من الكمان) . ثم آلات النفخ مثل الناي ، والمزمار ،

والزمر (مزمار ذو أنبوبة خشبية مز دوجة وفهم معدني ملتبس) ، والبوق ، والمتردة (الترومبون) والبوق (شكل قديم آخر) ومزمار القرب ، ثم آلات النقر مثل الطبل والجرس ، والمصفقة والمخشخشة والصنوج بأنواعها ، ثم الآلات ذات المفاتيح مثل الأرغن ، وموترة المفاتيح ، والبيان الفيشاري ، والسبيزنت (تشبه البيان) ، والمعدراوية (شبيهة ببيان صغير ليس له قوائم) ، وكانت هناك أنواع أخرى كثيرة ، وكان للعديد منها متنوعات فائقة شتى اختلفت باختلاف الزمان والمكان ، وكان في كل بيت مثقف واحدة أو أكثر من الآلات الموسيقية : وكان في بعض البيوت خزائن خاصة لحفظها : وكثيراً ما كانت هذه الآلات تحفاً فنية منقوشة نقشاً محبباً يرضى الخيال والدوق ، تتوارثها الأسرات جيلاً بعد جيل بوصفها ذخائر وتذكارات ثمينة ، وكانت بعض الأراغن مصنوعة بشكل بارع محكم ، قدر البراعة والإحكام في واجهات الكاتدرائيات القوطية . ونحاذ ذكر الرجال الذين صنعوا الأراغن لبعض الأسرات الحاكمة الألمانية في نورمبرج لمدة قرن من الزمان : وكان الأرغن هو الآلة الموسيقية الرئيسية المستخدمة في الكنيسة ، وإن لم تكن الوحيدة ، بل كان هناك أيضاً المزمار ، وموسيقى القرب والطبول والمتردة (الترومبون) ، بل حتى الطبلة النقارية ، وكلها تدعو بأدواتها المتنافرة إلى الصلاة والعبادة .

وكان العود هو الآلة المفضلة لمصاحبة مغن واحد ، وهو من أصل آسيوي ، شأنه في ذلك شأن كل الآلات الوترية ، وجاء مع المغاربة إلى أسبانيا ، وهناك ، مثل الفهيولا ، (نوع من الكمان) ارتفع شأنه حتى صار الآلة الوحيدة المستعملة ، التي ألقت من أجلها أقدم موسيقى آلية خالصة معروفة . وصنع جسمه عادة من الخشب والعاج ، على شكل الكمثرى ، وزود بجوفه بثقوب على شكل وردة ، وكان له ستة ،

وفي بعض الأحيان اثنا عشر زوجاً من الأوتار تنقر بواسطة الأصابع ، وكان عنقه مقسماً بعتبات من النحاس إلى سلم مدرج ، وملواه منحرف إلى الخلف من العنق . وإذا أمسكت عادة حسناء بالعود في حضنها ودأبت أوتاره بأناملها وأضافت صوتها إلى أنغاسه لاستطاع كيوييد أن يوفر سهماً . ومهما يكن من أمر فقد كان من العسير الاحتفاظ في العود بدرجة النغم الصحيحة لأن استمرار شد الأوتار يسبب التواءها وتشويهها . وقال أحد الظرفاء إن عازف عود عجوز بلغ من العمر ثمانين عاماً ، قضى منها ستين عاماً في ضبط النغم في عوده (٦) .

واختلف الكمان (الفيول) عن العود في امتداد أوتاره على مشط ، وأن العزف عليه بواسطة قوس ، ولكن القاعدة الأساسية واحدة فيهما - ذلك أن ذبذبات الشد ترتطم بالأوتار فوق صندوق ذي ثقب لتعميق الصوت . وصنعت الفيول على ثلاثة أحجام : الكبير وهو باس فيولا داجامبا ، وكانوا يمسكون به بين الأرجل مثل البديل الحديث له - الفيولونسيل Violoncello ، والصغير وهو الفيول العالي النغم (فيولا دابراكسيو) ، ويمسكون به على المذراع . وأخيراً الفيول المثلث ، وفي القرن السادس عشر تطور النوع الثاني (فيولا دابراكسيو) إلى الكمان . وفي القرن الثامن عشر بطل استعمال الفيولا .

وكان الاختراع الأوربي الوحيد في الآلات الموسيقية هو لوحة المفاتيح التي تطرق بواسطة الأوتار بطريق غير مباشر ، بدلا من نقرها أو حنيها مباشرة ، وأقدم الأشكال المعروفة ، وهي موترة المفاتيح Clavichord ظهرت لأول مرة في القرن الثاني عشر ، وقد عمرت حتى عهد جوهان سيباستيان باخ : وأقدم نموذج باق لها (١٥٣٧) محفوظ في متحف المتروبوليتان في نيويورك ، وصنع في القرن الخامس عشر نوع أقوى هو

البيان القيثاري harpsichord ، وقد مكن من تعديل الأنغام باختلافات الضغط ، وأضيف في بعض الأحيان لوحة ثانية للمفاتيح ، لتوسيع سلم النغم . وساعدت الوفقات والتمزيقات على إبداع معجزات الصوت ، وكان الأسبندنت Spinet والعندراوية Virginal — والأول إيطالي والثانية شبه إنجليزية شكائين مختلفين من البيان القيثاري ، وكانت الآلات ذات المفاتيح مثل الفيول والعود ، تحظى بأعظم التقدير بلحالمها ونغماتها معاً . وكانت تشكل عنصراً جديلاً من عناصر البهجة والزينة في بيوت الأغنياء .

ولما تقدمت الآلات من حيث مدى النغم ونوعيته ، ومن حيث تعقد عملها ، تطلب النجاح في العزف عليها المزيد من الماران والمهارة ، وازداد عدد الجمهور في الحفلات التي يكون العزف فيها على آلة واحدة أو أكثر ، دون أن يكون فيها غناء ، وبرز هازفون على الأرغن والعود . وارتحل كونراد بومان Paumann (المتوفى ١٤٧٣) عازف الأرغن الضرير في نورمبرج من بلاط إلى بلاط ، وأقام حفلات موسيقية ، استحق لبراعته وامتيازته فيها لقب فارس . وشجعت أمثال هذه التطورات على تأليف الموسيقى من أجل الآلات وحدها . ومن الواضح حتى القرن الخامس عشر ، أن كل الموسيقى الآلية تقريباً كان قد قصدها أن تصاحب الغناء أو الرقص ، ولكن هناك في هذا القرن عدة لوحات تعرض بعض الموسيقيين يعزفون دون أن يرى فيها أثر لغناء أو رقص ، وأقدم ما بقي من الموسيقى للآلات وحدها هي « جاميساندى Gamisandj » (١٤٥٢) ، وهي لكنراد بومان ، وقد ألفت في الأصل لتوجيه العزف على الأرغن ، ولكنها شملت أيضاً عدداً من القطع للعزف المنفرد ، وأنقص تطبيق أوتافيانو دي بتروسكى للحروف المعدنية المتحركة في طبع الموسيقى (١٥٠١) تكاليف نشر تأليف الموسيقى الآلية وغيرها ، واقتصرت الموسيقى الموضوعة للرقص على عروض مستقلة ، ومن ثم كان تأثير أشكال الرقصات على الموسيقى الآلية . وأدت ألحان « الحركات »

المؤلفة لسلسلة متعاقبة من الرقصات إلى ظهور السيمفونية والموسيقى الرباعية ،
التي احتفظت أجزاءها أحياناً بأسماء الرقصات ، وفضل العود والفيول
والأرغن والبيان القيثاري للعزف المنفرد أو عزف الأوركستر ، وتمتع
ألبرتو داريبا في بلاط فرتسوا الأول وهنرى الثانى بشهرة عظيمة كعازف
على العود ، إلى حد أنه عندما توفي أنشد شعراء فرنسا الترانيم الحزينة
على قبره .

٢ — سيطرة الموسيقى الفلمنكية

١٤٣٠ — ١٥٩٠

كانت الأغاني والرقصات الشعبية هي المعين الذى لا ينضب الذى اشتقت
منه أشكال الموسيقى غير الكنسية أصولها وصيغها وموضوعاتها الرئيسية ،
حتى القداسات ، ربما اشتقت منها بعض الأغاني القصيرة مثل « وداعاً
يا أحبائى » ، وتنوعت الأغاني الفرنسية من الأغاني التوقيعية للمغنين فى
الشوارع ، وأغاني الشعراء الغنائيين البسيطة (التروبادور) إلى أغاني غليوم
دى ماشو وجوسكوين دبريه المعقدة المتعددة الأصوات .

وكان ماشو (١٣٠٠ — ١٣٧٧) سيد ذلك « الفن الجديد » الذى كان
قد بسطه وشرحه فيليب دى فيتري فى ١٣٢٥ — وهو عبارة عن موسيقى
استخدمت الإيقاع الثنائى بالإضافة إلى الإيقاع الثلاثى ، وهو ما أقره « الفن
القديم » والكنيسة . وكان ماشو شاعراً وعالمياً وموسيقياً وكاهناً فى كاتدرائية
ريمس ، وربما كان كذلك رجلاً مماوعاً حماسة وغيره ، لأنه كتب بعض قصائد
الحب الغنائية التى لم تهدأ حرارتها بعد . وبرز فى اثنى عشر شكلاً موسيقياً
من الأغاني الراقصة والعاطفية ، والقصائد الغنائية ذات اللازمة المتكررة
والقصائد الغزلية ، والقصائد الدينية ، وموسيقى القداس ، ويعزى إليه
أقدم قداس متعدد الأصوات — لحنه رجل واحد . وأسهم ، ولو أنه من

رجال الكنيسة ، في حركة صبح الموسيقى المتعددة الأصوات بالصيغة العلمانية وإخراجها من حيز إيقاع القصائد الدينية والقداس إلى الإيقاع الأكثر انطلاقة ومرونة في موسيقى الأغاني العلمانية .

وفي تلك القرون كان الإنجليز موسيقيين ، ولكنهم لم ينافسوا الإيطاليين في اتساق الأصوات في اللحن (ومن ذا الذي ينافسهم ؟) ، ولا الفلمنكيين في تعدد الأصوات ، ولكن أغانيهم ، بين الحين والحين ، بلغت من العذرية والرقّة حدّاً لا يضارعهم فيه إلا أعمق الأغاني الفرنسية . وقوبل المغنون الإنجليز في مجاس كنستانس بالتهليل والتهتاف ، وفي هذا الجليل ألف هنري الخامس بطل أجنيكورت ، قداساً لا يزال يحتفظ بعظمته وقداسته . وكانت المقطوعات التي ألفها جون دنستابل (١٣٧٠ — ١٤٤٣) تعزف في كل البقاع من اسكتلنده إلى رومه . ولعبت دوراً في تشكيل أسلوب المدرسة الفلمنكية .

وكما كانت الفلاندر قد استهلكت فن التصوير في القرن الخامس عشر ، كذلك شهدت الموسيقى فيها عصرأ من أبهى وأعظم عصورها ، في وسط النبلاء والمواطنين الأثرياء المحبين للفنون . وكتب جوهانس فروير Johannes Verwere حوالى ١٤٩٠ يقول : « عندنا اليوم — إلى جانب العدد الكبير من مشاهير المغنين ، يظهر إلى الوجود ، عدد لا حصر له تقريباً ، من الملحنين الذين تتميز أعمالهم بعذوبة الصوت ، وما سمعت أو نظرت إلى تأليفهم إلا ابتهج قلبي (٧) » . وربما وضع المعاصرون دوفاي وأوكيجم ودبريه في مرتبة سواء من سلم العبقرية والخير ، مع جان فان إيك وكلاو سلاوتر وروجير فان درويدن ، وهنا في تعدد الأصوات في المدرسة الفلمنكية ، عاشت أوروبا الغربية آخر طور من أطوار الروح القوطية في الفن : الورع الدينى الذى لطفه المرح الدنيوى والأشكال المتينة فى قاعدتها وتركيبها ،

الغضة الرقيقة في تطويرها وزخرفتها . وحتى إيطاليا التي كانت معادية للفن القوطي ، انضمت إلى أوروبا الغربية في الاعتراف بتفوق الموسيقى الفلامنكية وسموها ، وفي الاسترشاد بالفلاندرز في تحسين موسيقى فرق المرنين الأسقفية ، و فرق بلاط الأمراء . وألف الإمبراطور مكسيمليان الأول ، وقد سحرته موسيقى بروكسل ، فرقة للمرتلين في فيينا ، على نسق الفرق الفلامنكية . وأخذ شارل الخامس موسيقيين فلامنكيين إلى أسبانيا ، وأخذ الأرشيديوق فرديناند نفرا منهم إلى النمسا ، وأخذ كريستيان الثاني مجموعه أخرى منهم إلى الدنمرك . وقال كافلاك البندقى « إن منبع الموسيقى في الأراضي المنخفضة » (١) . وهذه السيطرة الفلامنكية اجتازت الموسيقى الاحترافية الحدود الضيقة التي وضعتها القومية في ذاك العصر .

وقاد الطريق غليوم دوفاي ، الذي ولد في هينوت Hainaut (١٣٩٩) وتدرّب كتلميذ منشد في كاتدرائية كمبراي ، وسما بفرقتها إلى مراتب الشهرة العالمية : وكانت القداسات التي أنشدتها هناك ، تزددها كل الأوساط الموسيقية في جميع أنحاء العالم المسيحي اللاتيني . وقد تبدو الألحان الباقية منها ثقيلة بطيئة في الآذان المرهفة الإحساس بخفة الحياة الحديثة وسرعتها ، ولكنها ربما كانت صالحة في الكاتدرائيات الضخمة و فرق المنشدين البابوية المهيبة : وهناك أغنية أكثر التثاماً مع ذوقنا ، وهي أغنية متعددة الأصوات تنساب أنغامها الحزينة نسياباً رقيقاً « ولى النهار » The Day is going to sleep وقد نتخيل فرقة بملابسها الرسمية تغنى مثل هذه الأغنية في الأروقة القوطية في كمبراي ، أو إيبير أو بروكسل . أو بروجز أو غنت أو ديجون ، ونحس أن العماراة والتصوير والملابس والموسيقى وآداب السلوك في ذاك العصر الحماشي الزاهي النابض بالحياة ، شكلت جميعها كلا متراكبا فنيا متسقاً ، على حين أنها جميعها متنوعات تنتشر فيها فكرة رئيسية واحدة .

وتطورت أساليب درفاى وأذاعها فى كل أنحاء أوربا أعظم معلمى الموسيقى أثراً ، ربما فى أى عصر من العصور ، جوهانس أوكيجم ، الذى ولد فى فلاندرز (١٤٣٠) ، وقضى معظم سنى حياته يقدم الموسيقى ويعلمها فى بلاط فرنسا . وكان يهيم شغفاً بمقطوعة اسمها « canon » وهى شكل من أشكال الفوجّة ، يشكّل فيه الصوت (المغنى) الأول الكامات واللمحن ، ويتلوه بعض الفواصل ، ثم يكرره الصوت الثانى ، ويتلوه فاصل ، ثم الصوت الثالث وهكذا ، فى طباق مناسب ، تحدى تعقيده المجهّد المغنّين ، وسحر الملحنين ، وقد هرع إليه هؤلاء وأولئك من كل أقطار العالم الكاثوليكي لينهلوا من فيض مهارته الفنية وينقلوها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وكتب مؤرخ قديم : « لقد نقل عن طريق تلاميذه إلى جميع الأقطار فن تعدد الأصوات الطباقى وشكل الفوجّه سالف الذكر Canon وينبغى أن يعتبر أوكيجم — لأن ذلك يمكن إثباته بالتسلسل « الأسابى » — يعتبر مؤسس كل المدارس ابتداء من مدرسته إلى مدارس العصر الحالى (٩) . ولكن مذ كتب هذا فى ١٨٣٣ ، فإن أوكيجم لا يعتبر مسئولاً عن موسيقى القرن العشرين ، وعند وفاته ١٤٩٥ ألف موسيقيو أوربا مقطوعات حزينة تخليداً لذكراه ، وكتب له إرزم مرثية . إن الأسماء ، حتى أسماء الخالدين ، مكتوبة على الماء :

وأصبح تلاميذ أوكيجم زعماء الموسيقى فى الجيل التالى ، وقد قدم جوسكين دبويه من هينوت إلى باريس ، وتلاه لعدة سنوات على أوكيجم ، ثم اشتغل « رئيس فرقة الكنيسة » فى فلورنسه وميلان وفيرارا ، وكتب للدوق أركول الأول مقطوعة اسمها Miserere سرعان ما دوى صيتها فى كل أوربا الغربية ، وبعد سنوات ست قضاهما فى فرقة كنيسة سستين عاد إلى باريس (١٤٩٤) ليعمل رئيساً لفرقة لويس الثانى عشر . ومن أنبل أعماله « الحزن على جوهانس أوكيجم » وهى رثاء لأستاذه المتوفى ، وقد حذا

حذوه لبعض الوقت في تلمحين القداسات والقصائد الديلية في شكل الفوجه التي أسلفنا ذكرها ، وهو يجمع الصوت على الصوت ، فيما يشبه المسائل الرياضية من حيث التتابع والاتساق . فلما اكتملت مهارته ، واستتب له السيادة في « فن الموسيقى » بلا منازع ، ترك التقنية ، وكتب قصائد وتراتيل دينية وأغنيات علمانية في طراز من الألحان أكثر بساطة ، أعقبت فيه الموسيقى الكلمات وزينتها ، بدلا من إرهاقها ، في فوجه سريعة التغير ، أو بدلا من مد المقطع إلى أغنية ، ولما قضى المعلم وتلميذه نحبهما ، أصبح من العادة أن يسمى أوكيجم « دوناتللو » ، وأن يسمى دبويه « ميكالاجو » الفن الموسيقى .

ورعى البلاط الفرنسي المرسى وشجعها باعتبارها زهرة الثروة والقوة ، ولقد صورت سجادة قديمة يرجع تاريخها إلى حوالي سنة ١٥٠٠ ، وهي الآن محفوظة في متحف جوبلين في باريس ، أربعا من السيدات وثلاثة من الشبان وراهبا أصلع ، مجتمعين في بستان حول نافورة ، وكان أحد الصبية يعزف على العود ، وإحدى البنات على القيثارة ، وكانت سيدة وقورة تعزف على أرغن سهل الحمل ، ولقد قصد الشعراء الفرنسيون أن تكون قصائدهم صالحة للغناء . ونخصصت « أكاديمية القصر » لإحكام الاتحاد بين الموسيقى والشعر ، وحتى في عصرنا هذا ، لا يبدو الواحد منهما كاملا بدون الآخر ، وتفوق كليمنت جانكين — وهو أحد تلاميذ دبويه — في الأغاني الوصفية . ولا تزال أغنيته « أغنية القُبيرة » (١٥٢١) تصدح فوق عدة قارات .

وعكست الموسيقى الأسبانية تقوى الشعب وبسالته ، لقد تراوح هذا الفن — بعد تهجينه وإخضاعه بما دخل عليه من مؤثرات عربية وإيطالية وبروفانسية وفرنسية وفلمنكية — تراوح بين القصائد الأندلسية الحزينة التي ينشدتها صوت واحد (المونودية) ، والقداسات العظيمة المتعددة الأصوات بالأسلوب الفلمنكي . وسما واحد من أعظم ملحنى القرن السادس عشر ،

هو كريستوبال مورال بفن تعدد الأصوات إلى درجة عالية ، ونقل فنه إلى تلميذه الأكثر شهرة توماس لويس دى فكتوريا . وساركل^٣ في اتجاه مضاد ، فأنتج التراث العربى الألحان الصالحة للعود ، ولحن لويس دى ميلان ومجول دى فونلانا ، Miguel de Fuenllana للكان ، وعزف عليها أغنيات زاحمت الأغاني الألمانية في مداها وقوتها .

واستمر الموسيقيون الفلمنكيون يمتحنون إيطاليا حتى ظهر بالسترينا ؟ واستقدم لورنزو دى ماديتشى إلى فلورنسه هنريخ إيزاك بعد أن استوعب فن الطباق الموسيقى في الفلاندرز ، ليعلم أبناء العطاء ، ومكث هناك أربع سنوات ، وألف موسيقى لأغاني لورنزو . ولما أقض مضجعه الغزو الفرنسى لإيطاليا ، انتقل إلى خدمة مكسيميليان الأول في أنسبروك ، حيث ساهم في تشكيل الأغنية الألمانية ، وعاد إلى إيطاليا في عام ١٥٠٢ ، ونحصر له الإمبراطور ليو العاشر تلميذه السابق معاشاً ، ووضعته قداساته وقصائده الدينية وأغانيه في مرتبة أعظم موسيقى العصر ، وعلى الأخص ثمان وخمسين مقطوعة ذات أربعة أجزاء ، لاحتفالات القداس طوال السنة الدينية .

وسما أورلاندو دى لاسو بالمدرسة الفلمنكية إلى الذروة ، وضرب بتوفيقه في مهنته وحياته أروع الأمثال ، لاتساع مجال الموسيقيين في عصر النهضة وارتفاع مستواهم الاجتماعى ؟ وعند ما كان تلميذاً في فرقة المنشدين في موطنه هينوت سحر سامعيه ، إلى حد أن خطفه مرتين أولئك الذين تمنوا أن يستفيدوا من صوته ، وأخيراً ، وهو في سن الخامسة عشرة (١٥٤٥ ؟) ، سمح أبواه لفرديناند جونزاجا أن يصحبه معه إلى إيطاليا ، وفي سن الرابعة والعشرين أصبح رئيس فرقة المنشدين في كنيسة سانت جون لاتيران في رومه . وفي ١٥٥٥ استقر به المقام في أنتورب ، ونشر « أول كتاب في القصائد الغزلية الإيطالية » ، وهى قصائد غنائية علمانية أضفى عليها كل

زحارف فن مزج الألحان الفلمنكى . وفى نفس العام أصدر مجموعة من أغان من أصل نابوليتانى (من مدينة نابلى) ومن الأغاني الفرنسية ، وأربع قصائد دينية قصيرة ، ولقد عكست هذه المجموعة القلب المتسجم بالحكمة فى حياة دى لاسو ، بين المتعة الدنيوية والقوة الشجيرة ، ولنا لنجد لمحة عن بيئته فى أنتورب فى إهدائه إحدى قصائده إلى الكاردينال بول ، وأخرى إلى الكاردينال جرانفيل وزير فيليب الثانى فى الأراضى المنخفضة . وربما كان جرانفيل هو الذى هياً للملحن الشاب العمل فى إدارة فرقة المنشدين للدوق فى ميونخ (١٥٥٦) . وأحب أورلاندو بافاريا قدير حبه إيطاليا ، واتخذ له زوجة من أحد البلدين ، كما اتخذ اسمه من البلد الآخر ، وعمل لدى أدواق بافاريا حتى الممات .

وضاعف أورلاندو السعيد ، موزار القرن السادس عشر ، الألحان الستائة والستة والعشرين التى ألفها نظيره ، ودرس سلم النغم فى كل الأشكال الموسيقية السائدة ، وأحرز فى كل منها شهرة فائقة فى كل أنحاء أوروبا . وبدأ أنه على نفس القدر من المعرفة والبراعة فى غزليات الحب النقى ، وأغاني الحب الطائش ، وقداسات الورك الصوفى . وعين فى ١٥٦٣ رئيس فرقة المنشدين فى الكنيسة ، وألف آنذاك لألبرت الخامس لحناً موسيقياً لازامير التوبة السبعة ، وأعجب الدوق بهذه الموسيقى حتى أنه كلف الفنانين بتسجيلها على الورق « البرشمان » وزخرفتها بالمنمنمات ، وتجليدها بجلد الماعز الأحمر الفاخر فى مجلدين من القطع الكبير ، محفوظين الآن ضمن أثمن مقتنيات مكتبة الدولة فى مدينة ميونيخ المحبة للفنون .

واجتمدت أوروبا كلها التجم الجديد . وعند ما زار دى لاسو باريس (١٥٧١) عرض عليه شارل التاسع ١٢٠٠ جنيه سنوياً (١٠٠ ر ٣٠ دولار ؟) سنوياً ، ليبقى عنده ، فرفض ، ولكنه أهدى شارل وكاترين دى مديتشى

مكتاباً في الأغاني الفرنسية ، يقول عنه برانتوم إنه من أعذب ما سمعت
باريس ، وقد روت إحدى الأغنيات مذاقب العاصمة الفرنسية في حبها
للعدالة والسلام — وكان هذا قبل مذبحة سانت برثلميو بعام واحد . ولما عاد
دى لاسو إلى ميونيخ أهدى إلى آل « uggers » مجموعة من القصائد
اللاتينية القصيرة والغزليات الإيطالية والأغاني الألمانية والأغاني الفرنسية ،
إن هذا الملحن لم يكن صعلوكاً رومانتيكياً ، بل كان خبيراً بأساليب الحياة
في الدنيا . وفي عام ١٥٧٤ سافر إلى رومه على نفقة الدوق ألبرت ، وأهدى
جريجورى الثالث عشر مجلداً من القداصات ، وتسلم منه « وسام المهماز
الذهبي » بل إن الله خص أعمال دى لاسو بأعظم التقدير ، ذلك أنه في يوم
عيد الجسد (١٥٨٤) هبت عاصفة هوجاء هددت بإلغاء الموكب الدينى
الذى اعتاد اجتياز شوارع ميونيخ ، وعندما عزفت فرقة المنشدين مقطوعة
أورلاندو « تأمل وانظر كيف أن الله كريم » ، انقطع المطر وأشرقت
الشمس . وفي مثل هذا اليوم ، فيما بعد ، كانت تلك المقطوعة تعزف ،
لتضمن سماحة السموات .

وفي ١٥٨٥ عندما كبرت سن دى لاسو ، وثاب إلى التوبة ، نشر
« كتابه الخامس في الغزليات » الذى طبق فيه الشكل على الموضوعات
الروحية ، وهى من أعظم ألحانه إثارة للمشاعر . وبعد ذلك بخمس سنوات ،
الثالث عقله وغاب عنه وعيه ، فلم يعد يعرف زوجته . وكاد لا يتحدث في
شيء إلا الموت ، ويوم الحساب الأخير ، وزيادة الراتب : وحظى بهذه
الزيادة ، ومات (١٥٩٤) فائزاً ظافراً مخجولاً .

٣ - الموسيقى والإصلاح الدينى

كان الإصلاح الدينى ثورة في الموسيقى ، قدر ما كان ثورة في
اللاهوت والطقوس وعلم الأخلاق والفن : لقد كانت الطقوس الكاثوليكية

أرسقراطية ، أو شعائر فخمة متأصلة في تقاليد منيعة لا تنتهك حرمتها ،
متعالية تعالياً صريحاً عن الشعب ، في اللغة والملابس والرموز والموسيقى ؛
وبهذه الروح ، عرّف رجال الدين أنفسهم بأنهم الكنيسة ، وذهبوا إلى أن
الناس قطيع يساق إلى حسن الخلق والخلاص بالخرافات والأساطير والعظمت
والمسرحيات وكل الفنون . وبهذه الروح كلن القديس سرّاً خفياً مقصوراً
فهمه على فئة قليلة ، واتصالاً خارقاً بين الكاهن والرب . وكان الكاهن
يرتل القديس ، ومعه فرقة المنشدين من الذكور ، منعزلة عن المصلين .
ولكن في الإصلاح الديني فرضت الطبقات الوسطى وجودها وحقوقها ،
وأصبح الشعب هو الكنيسة ، ورجال الدين ممثلوه ، والقديس باللغة الوطنية ،
وكان لا بد أن تكون الموسيقى واضحة مفهومة ، يمكن أن تقوم فيها جماعة
المصلين بدور فعال ، أصبح في آخر الأمر قيادياً .

وأحب لوثر الموسيقى ، وقدر فن تعدد الأصوات والطباق الموسيقى ،
وفي ١٥٣٨ كتب مخلصاً يقول :

« إذا شحذ الفن الموسيقى الطبيعية وصقلها يبدأ الإنسان يدرك
في عجب ودهشة حكمة الله العظيمة البالغة حد الكمال ، في
موسيقاه الرائعة ، حيث يقوم صوت واحد بدور بسيط ، ويغنى
حوله ثلاثة أو أربعة أو خمسة أصوات أخرى ، تثب وتنطلق هناء
وهناك ، تزين الدور البسيط ، وكأنها رقصة تربية في السماء
إن هذا الذي لا يجد في هذا معجزة تفوق الوصف من عند الله ،
ليس إلا غيباً جليلاً لا يستحق أن يعتبر إنساناً » (١٠) .

وكان لوثر في نفس الوقت تواقاً إلى موسيقى دينية يمكن أن تحرك
مشاعر الناس ، بالتحام الإيمان بالغناء عن طريق الموسيقى ؛ وفي ١٥٢٤
تعاون مع جوهان والتر ، رئيس فرقة المنشدين في الكنيسة لدى الأمير

فردريك الحكيم لإنتاج أولى التراثيل البروتستانتية التي وسعت وأدخل عليها تحسينات كثيرة في الطبقات المتعددة . وكان جزء من كلماتها مأخوذاً من الترايم الكاثوليكية ، وجزء آخر مقتبساً من أغاني رئيس فرقة المنشدين ، وجزء ثالث مكتوباً بقلم لوثر الشاعرى تقريباً ، وجزء آخر مأخوذاً من الأغاني الشعبية بعد نقلها إلى موضوعات دينية . ويقول لوثر « ليس للشيطان حق في كل الألحان الجيدة » (١١) : وألف لوثر بعض الموسيقى ، وألف والتر جزءاً آخر ، واقتبس قسم ثالث من المقطوعات الكاثوليكية المعروفة آنذاك . واستمرت الكنائس اللوثرية لمدة قرن تقريباً ، تدخل القداسات المتعددة الأصوات في نطاقها ، ولكن حلت اللغة الوطنية محل اللاتينية شيئاً فشيئاً ، وتقص دور القداس ، وزاد غلبة المصلين ، وانتقلت أغاني فرقة المنشدين من الطابق إلى شكل إيقاعى متناسق أيسر ، سعت فيه الموسيقى إلى متابعة الكلمات وتفسيرها ، ومن موسيقى فرقة المنشدين التي ألفها لوثر ومعاونوه لمصاحبة تلاوة قصص الإنجيل ، جاءت الموسيقى العظيمة في الكنيسة البروتستانتية في القرن الثامن عشر ، وبلغت الذروة في موشحات هاندل وقلدساته وموشحات جوهان سباستيان باخ وتراثيله .

ولم يكن كل مؤسسى البروتستانتية يحبون الموسيقى مثلاً أحبها لوثر ، فإن زونجلي ، ولو أنه هو نفسه موسيقار ، استبعد الموسيقى كلية من الصلوات الديتية ، وحرم كل من كل الموسيقى الكنسية ، فيما عدا غناء المصلين المتساوى النغمات . ولكنه أباح الغناء الطباقى المتعدد الأصوات في البيت ، فاستمد أتباعه الهيجونوت في فرنسا جزءاً من قوتهم وشجاعتهم من إنشاد المزامير والترايم على أنغام الموسيقى بأصوات متعددة : ولما ترجم كليمنت مارو المزامير إلى اللغة الفرنسية شعراً ، أعجب بها كل من إلى حد أنه تجاوز عن المقطوعات الطباقية التي وضعها كلود جوديل ، وقد أضفت حقيقة أن هذا الملحن البروتستانى لى حتفه في مذبحه سائت برثلميو ،

مزیداً من القمدسفة على كئاب مزامفره المقدس . وبعد مارو بعام ، لم فحف
أسقف كاثولفكى حسده للدور الذى كانت قد لعبته هذه الترجمات والاقطوعات
فى الإصلاآ الدينى الفرنسى : « وكان حفظ المزامفر عن ظهر قلب ، لدى
الهفجوزوت سممة الطائفة التى فلفمون إليها ، وفى المدن التى فكثر عففدهم
فها ، فمكن أن فسمع النغمات المنبعثة من أفواه للعمال ، وفى القرى
من أفواه الكادففن الذى ففلفحون الأرض (١٢) » . لقد ففزت الصبغة
الدمقراطية التى صبغت بها الموسيقى الدينية البلاد التى عم فها الإصلاآ
الدىنى فف ففرت هذه الصبغة الديموقراطية فقام العقفدة بفهجة الموسيقى
الذى ففرى عن النفس ؟

٤ - بالسفرنا : ١٥٢٦ - ١٥٩٤

ظلت الكنيسة الكاثولفكية الراعى الرئفسى للموسففى مثل ففرها من
الفنون ، وفقدمت الموسيقى الكاثولفكية ، شمال فبال الألب ، على الأسس
الذى وضعتها المدرسة الفلمنكية ، وثبت هذا الفقلفد إفزاك فى الفمسا ودى لاسو
فى بافارفا : ووجه لوثر فى ١٥٥٠ خطاباً من أكرم خطاباته إلى لودففج
سنفل ففففه ففه وفطرى موسفقاها التى كان فؤلفها فى ففونفخ ، وفثنى على
الأدواق الكاثولفك ففالك لأنهم « ففرون الموسيقى وفففلونها » (١٣) .

وكان فرفق المفسدفن . كنيسة سسففن هو النموذج الذى اففناه الملوك
والأمراء فى تأسيس كنائسهم طوال القرنفن الرابع عشر والفامس عشر ،
وحتى بفن البروتسفانف كان أروع شكل للآلفف الموسيقى هو القداس .
وكانف فرقة المفسدفن البابوفى هى التى تقوم بالقداس فى أروع أشكله .
وكان أعظم ما فطمع ففه أى مفن هو أن فلفحق ففذه الفرقة ، التى كانت
لذلك قاذرة على أن فضم إليها أحسن أصوات الذكور فى أوربا الغربية ؟

وكان الكاستراتي ، الذين كانوا يسمون آنذاك « الخصيان » — أول من أدخلوا إلى فرقة سستين ، حوالي ١٥٥٠ ، وسرعان ما ظهر بعد ذلك غيرهم في البلاط البافاري ، وكانوا يخصصون الأولاد بموافقتهم ، وكانوا يغرونهم بأن أصواتهم العذبة الندية ستكون أكبر نعمة وتعويض لهم عن الإنجاب والإخصاب — تلك ميزة وحشية كانت في متناول كل من يطلبها بصفة عامة .

وكانت الكنيسة — مثل أى نظام قديم معقد ، لا بد أن يخسر كثيراً بآية بدعة غير موفقة — كانت تتسم بروح المحافظة في الطقوس والشعائر ، حتى أكثر منها فيما يتعلق بالعقيدة . أما المؤلفون فكانوا على النقيض من ذلك ، يضيقون ذرعاً بالأساليب القديمة ، كما كانوا كذلك في كل العصور ، وكان التجريب في نظرهم هو حياة فنهم . وكافحت الكنيسة في كل هذه القرون ، لمنع التكلف في الفنون الجديدة ، ورقة الطبايق الفلمنكي ، من أن يضعفها وقار القديس الكبير وعظمته . وفي سنة ١٣٢٢ أصدر البابا جون الثاني والعشرين قراراً صارماً ضد البدع الموسيقية والزخرفة ، وأمر بأن تلتزم موسيقى القديس بالأغنية البسيطة الوحيدة ، أى الأغنية الجريجورية ، كأساس لها ، ولا تبيح إلا التناغم الذى يمكن أن يكون مفهوماً للمصلين ، ويعمق التقوى في نفوسهم أكثر مما يلهيهم عنها . وظل الأمر مطاعاً لمدة قرن من الزمان ، ثم جاءت المراوغة في تنفيذه من أن بعض المنشدين كانوا يلشدون الجهير (الصوت العميق الخفيض) أعلى من المكتوب بجواب واحد . وأصبح هذا الجهير الزائف هو الخدعة المفضلة في فرنسا . وظهرت التعقيدات من جديد في موسيقى القديس ، وبدأ إنشاد خمسة أو ستة أو ثمانية أجزاء بالفوج والطبايق ، جرت فيها كلمات الطقوس الدينية الواحدة عقب الأخرى في فوضى احترافية ، أو غرقت في زخارف موسيقية وضعها المغنون وفق أهوائهم . وأدى تكييف أنغام شعبية للقديس ، حتى إلى إقحام كلمات بذئية على النص المقدس . واتفق أن عرفت بعض القديسات بمصادر العلمانية مثل قديس

« وداعاً يا أحبائي » أو قداس « في ظل الشجرة » (١٤) : واستاء لارزم المتحرر نفسه من زيف « فن القداس » حتى أنه احتج على ذلك في ملاحظة دونها في طبعته التي نشرها « للعهد الجديد » :

إن الموسيقى الكنسية الحديثة ألقت بحيث لا يستطيع أحد من جماعة المصلين أن يتبين كلمة واحدة متميزة . إن المنشدين أنفسهم لا يفهمون ما ينشدون . . . لم يكن ثمة موسيقى (كنسية) أيام القديس بولص ، حيث كانت الكلمات تنطق بوضوح : إن الكلمات اليوم لا تعنى شيئاً . إن الناس يذرون أعمالهم ويقصدون إلى الكنيسة ليستمعوا إلى جملة وضجيج لم يكن لهم بهما عهد في المسارح اليونانية والرومانية . ينبغي أن تسلك النقود لشراء الأراغين وتدريب الأولاد على إطلاق الصيحات والصرخات (١٥) :

واتفقت جماعة الإصلاح في الكنيسة مع لارزم في هذه المسألة : فنع جيبيرتي أسقف فيرونا استعمال أغاني الحب أو الألحان الشعبية في أبرشيته ، كما حرم موروون أسقف مودينا كل الموسيقى « المصورة » أي المزخرفة بكل تفاصيل الإثارات والأفكار الرئيسية . وحث المصامحون الكاثوليك في مجلس ترنت على استبعاد كل الموسيقى المتعددة الأصوات من كل حفلات الكنيسة ، وعلى العودة إلى الإنشاد الجريجوري ذي الصوت الواحد ، ولكن ربما كان من الممكن أن يساعد ميل البابا بيوس الرابع إلى قداسات بالسترينا ، على إنقاذ « تعدد الأصوات » في الكنيسة الكاثوليكية .

لقد اشتق جيوفني لويجي بالسترينا اسمه من اسم مدينة صغيرة في الريف الروماني كانت قد دخلت التاريخ في العصور القديمة تحت اسم « براينستي » : ولنا لنجده في ١٥٣٧ ، وهو إذ ذاك في الحادية عشرة من عمره ، بين قلاميذ فرقة المنشدين في سانتا ماريا مجيوري في رومه ، ولم يكن قد بلغ

الحادية والعشرين حين عين رئيساً للفرقة في كاتدرائية مسقط رأسه . فلما توطد مركزه على هذا النحو ، تزوج من لوكريشيا دي جوريس ، وكانت على شيء من اليسار ، وعند ما تقلد أسقف بالسترينا منصب البابوية تحت اسم جوليوس الثالث ، اصطحب معه رئيس فرقة إلى رومه ، وعينه رئيس معبد جوليا في كنيسة القديس بطرس ، الذي كان يتدرب فيه المنشدون لكنيسة سستين . وأهدى الملحن الشاب إلى البابا الجديد أول كتاب له في « القديسات » (١٥٥٤) عرض أحدها معزوفة ثلاثية الألحان بمصاحبة ملشد واحد لأغنية بسيطة ، وأحب البابا هذه القديسات إلى حد أنه منح بالسترينا عضوية فرقة المنشدين في كنيسة سستين ، وبدأ موقف جيوفني شاذاً ، بوصفه رجلاً متزوجاً ، وسط هذه الجماعة التي كان أفرادها مترهبين عادة ، مما أثار بعض المعارضة . وكان بالسترينا على وشك أن يهدي البابا كتاباً في الغزليات ، لولا أن جوليوس عاجله الموت (١٥٥٥) .

ولم يعمر مارسلس الثاني أكثر من ثلاثة أسابيع بعد ارتقائه عرش البابوية . وأهدى الملحن إلى ذكراه (١٥٥٥) مقطوعته الشهيرة « قديسات البابا مارسلس » التي لم تنشر ، أو هكذا كانت تسمى حتى ١٥٦٧ : وطرده البابا بول الرابع ذو المبادئ البيوريتانية الجارمة الثلاثة الأعضاء المتزوجين في فرقة ملشد سستين ، ونخصص لكل منهم معاشاً ضئيلاً . وما لبث بالسترينا أن عين رئيساً لفرقة المنشدين في كنيسة سان جون لاتيران ، ولكن هذه الوظيفة ، ولو أنها سدت رمقه ، لم توفر له نفقات نشر تأليفه الموسيقية : وعاد العطف البابوي يظله بارتقاء بيوس الرابع عرش البابوية (١٥٥٩) . وتأثر بيوس أيما تأثر بمقطوعة Improperia التي أعدها بالسترينا لاحتفال « الجمعة الحزينة » ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه المقطوعة جزءاً لا يتجزأ من الطقوس في كنيسة سستين ، وظل زواج

بالسترينا يحول بينه وبين فرقة سستين ، ولكن ارتفع شأنه بتعيينه (١٥٦١)
رئيساً لفرقة سانتا ماريا مجيوري :

وبعد ذلك بعام واحد بحث مجلس ترنت الذي انعقد ثانية ، مشكلة
تنظيم الموسيقى الكنسية ، لتتسق مع روح الإصلاح الجديدة ، ورفض
الاقتراح القائل بمنع « تعدد الأصوات » منعاً باتاً ؛ وأقر حل وسط
يحث السلطات الدينية « على أن تستبعد من الكنائس كل موسيقى ؟ ؟ ؟
تقدم شيئاً من الدنس أو الفجور ، حتى يظل بيت الله مشهوداً له بأنه بيت
التعبد والصلاة(*) » ، وعين بيوس الرابع لجنة قوامها ثمانية من الكاردينالات
 لتنفيذ هذا القرار في أبرشية رومه . وتروى قصة لطيفة أن اللجنة كانت
على وشك تحريم الموسيقى المتعددة الأصوات ، حين توسل أحد الأعضاء
وهو الكاردينال شارل بوروميو ، إلى بالسترينا أن يؤلف قداساً يمكن أن
يظهر الانسجام الكامل بين تعدد الأصوات والتقى والتدين ، واستجاب
بالسترينا وألف ، وأنشدت الفرقة ثلاثة قداسات أمام اللجنة ، أحدها
« قداس البابا مرسلس » . ولم ينقذ « تعدد الأصوات » من الحكم عليه بالفناء
إلا الاتحاد الوثيق بين السمو الديني والبراعة الفنية الملهمة في الموسيقى في
هذه القداسات . على أن قداس البابا مرسلس كان قد مضى على تأليفه
آنذاك عشر سنوات . ومهما يكن من أمر فإن العلاقة الوحيدة المعروفة بين
بالسترينا وهذه اللجنة ، هي أنها زادت من راتبه(١٦) : على أننا مع ذلك قد
نؤمن بأن الموسيقى التي كان بالسترينا قد قدمها في فرق روما ، بفضل
إخلاصها للكلمات ، وتجنبها للمثيرات الدنيوية وإخضاعها الفن الموسيقي
للمقاصد الدينية ، قد لعبت دوراً كبيراً في توجيه اللجنة إلى إجازة
الموسيقى المتعددة الأصوات(١٧) : وثمة حجة أخرى تضاف تأييداً « لتعدد
الأصوات » تلك هي أن تأليف بالسترينا الدينية استغنت ، بشكل طبيعي ،

(*) أحسن بيوس العاشر (١٩٠٣) ، وبيوس الثاني عشر (١٩٥٥) أنه من الضروري
تكرار هذه التعليمات .

عن « زخارف الآلات » ، وكانت مكتوبة دائماً تقريباً بالأسلوب الكنسى ،
أى الأصوات فقط .

وفى ١٥٧١ أعيد تعيين بالسترينا رئيساً لفرقة كنيسة بوليا ، وبقي
فى هذا المركز حتى موته . وفى نفس الوقت كان إنتاجه غزيراً بلا حدود
بلغ فى جملة ٩٣ قداساً ، و ٤٢٦ ترنيمة تجاوبية ، وتقديمه للذبيحة الإلهية ،
وأغنية دينية ومزموراً وعدداً كبيراً من الغزليات . وكان بعض هذه
مبنياً على موضوعات علمانية . ولكن بالسترينا لما تقدمت به السنون ،
حول حتى هذا الشكل إلى أغراض دينية . وتضمن « كتابه الأول فى
الغزليات الروحية » (١٥٨١) بعضاً من أجمل مقطوعاته . وربما لونت
المأسى الشخصية موسيقاه أو شوهرتها ، فقد توفى ابنه أنجلو فى ١٥٧٦ ،
تاركاً فى رعايته حفيدين عزيزين ، ماتا بعد ذلك بسنوات قليلة . وتوفى
ابن آخر له حوالى ١٥٧٩ . ولكن موت زوجته فى ١٥٨٠ دفعه إلى
التفكير فى أن يهرب . على أنه تزوج ثانية فى بحر سنة واحدة .

إن وفرة إنتاج بالسترينا ونوعيته المدهاتين رفعتاه إلى مرتبة الزعامة
على الموسيقى الإيطالية ، إن لم تكن الأوربية بأسرها . إن وضعه نشيد
الإنشاد Song of Solomon فى تسع وعشرين قصيدة دينية (١٥٨٤) ،
و « مرأى أرمياء » ١٥٨٨ ، و Stabat Mater and Magificat ١٥٩٠ ،
ثبتت شهرته وقوته الصامدة . وفى ١٥٩٢ اشترك منافسوه الإيطاليون
فى إهدائه « مجموعة من مزامير المساء » : وكرموا بأنه « الأب المشترك لكل
الموسيقين » : وفى أول يناير ١٥٩٤ أهدى كريستينا دوقه تسكانيا العظيمة
« الكتاب الثانى من الغزليات الروحية » التى جمع فيها ثانية بين الإخلاص
الدينى والبراعة الموسيقية : وبعد ذلك بشهر واحد قضى نحبه وهو فى
التاسعة والستين من العمر ، ونقش على قبره تحت اسمه « أمير الموسيقى » .
وينبغى ألا نتوقع أن نقدر بالسترينا اليوم حق قدره ، إلا إذا كانت

لفوسنا نحن متشبعة بالروح الدينية . وإننا لنسمع اليوم موسيقاه في وضعها السليم بوصفها جزءاً من طقوس مهيبة ، وحتى في هذه الطقوس قد تركنا جوانبنا الفنية مشدوهين أكثر منا متأثرين . وبالمعنى الحرفي ، أى في واقع الأمر ، إن الوضع الصحيح لا يمكن أن يعود أبداً ، لأن موسيقى بالسترينا كانت موسيقى الإصلاح الكاثوليكي ، فهي النعمة الكئيبة للنكسة الصارمة ضد الابتهاج الحسي في النهضة الوثنية ، أو قل هي ميكالأنجلو باقياً على قيد الحياة بعد رافائيل ، أو بول الرابع يحل محل ليو العاشر ، أو ليولا يحل مكان بمبو ، أو كلفن يخاف لوثر . إن ترجيحنا المعاصرة ليست إلا معياراً عابراً غير معصوم من الخطأ ، وذوق الفرد — وخاصة إذا أعوزته القدرة الفنية والتصرف والإحساس بالخطيئة — إنما هو أساس واه نقيم عليه مقياساً للحكم في الموسيقى واللاهوت . ولكن نستطيع أن نتفق جميعاً على أن بالسترينا ، بالغ بفن « تعدد الأصوات » الديني درجة الكمال ، في عصره . وأنه ، مثل معظم كبار الفنانين ، وقف على قمة حد من التطور في الإحساس والتقنية ، وتسلم تقاييداً فائمه وأكاه ، لقد ارتضى النظام ، وعن طريقه زود موسيقاه بتركيب وبنية ، أو رسوخاً معمارياً في وجه أعاصير التغيير الهوجاء . ومن يدرى ، فربما جاء عصر ليس ببعيد ، أرهقته أصوات الأوركسترا العالية الطمأنة ورومانسيات الأوبرا — ليجد في موسيقى مثل موسيقى بالسترينا عمقاً في الإحساس ، وانسياباً عميقاً هادئاً في الألحان ، يصلحان بطريقة أفضل للتعبير عن النفس الإنسانية المتطهرة من غرور العقل والقوة ، رابضة مرة ثانية ، في تواضع وخشوع وخشية ، أمام الوجود الأبدى الغامر الذي يطبق عليها :

المراجع

NOTES

CHAPTER XXIX

1. Waliszewski, *Ivan the Terrible*, 95.
2. Rambaud, *Hy of Russia*, I, 286.
3. Waliszewski, *Ivan*, 68.
4. Eckhardt, *Russia*, 29.
5. Réau, *L'art russe*, I, 244.
6. Kluchevsky, *Hy of Russia*, 275.
7. Pokrovsky, *Hy of Russia*, 104.
8. Vernadseky, *Hy of Russia*, 55.
9. Rambaud, I, 253.
10. Kluchevsky, I, 75, 95.
11. Pokrovsky, 144.
12. Rambaud, I, 266; Waliszewski, *Ivan*, 267.
13. Ibid., 268, 272.
14. Pokrovsky, 157.
15. Waliszewski, 258.
16. Rambaud, I, 300.
17. Réau, I, 272.
18. Waliszewski, 374.
19. Roeder, *Catherine de' Medici*, 495.
20. Waliszewski, 381.

CHAPTER XXX

1. Browne, E. G., *Literary Hy of Persia*, III, 43.
2. Lamb, H., *Tamerlane*, 293.
3. Clavijo, *Embassy to Tamerlane*, 153.

4. *Bulletin of the American Institute for Iranian Art*, June, 1938, 248-52.
5. Arnold, M. W., *Painting in Islam*, 93.
6. Browne, III, 289.
7. Ibid., 277.
8. Hafiz, tr. Streit, 80.
9. In Gottheil, ed., *Literature of Persia*, I, 408.
10. Hafiz, tr. Streit, stanzas 10, 11, 19, 21, 49.
11. Bell, G., *Poems from the Divan of Hafiz*, xxiii.
12. Ouseley, G., *Biographical Notices of Persian Poets*, 23 f.
13. In Grousset, R., *Civilizations of the East*, I, 338-9.
14. Hafiz, tr. Streit, 65.
15. Ibid., stanza 38.
16. Bell, stanza xliii.
17. Clavijo, 181.
18. Ibid., 137.
19. Browne, III, 185, Some assign Timur's lameness to a later period; so Clavijo, 210, and Sykes, P., *History of Persia*, II, 121.
20. Timur, *Mulfuzat*, v, 26.
21. Browne, III, 186.
22. Ibid., 178; Lamb, 150.
23. Browne, III, 189.
24. Ibid., 190.
25. Clavijo, 132.
26. Ibid., 151, 278.

27. Ibid., 249.
28. Pope, A. U., *Masterpieces of Persian Art*, 149.
29. Dawlatshah in Browne, III, 501.
30. Ibn Khaldun, *Les Prolegomènes*, I, p. lxxii.
31. Lane-Poole, S., *Cairo*, 50.
32. Gibbons, H. A., *Foundation of the Ottoman Empire*, 150.
33. Freissart, J., *Chronicles*, iv, 90.
34. Lane-Poole, S., *Story of Tutkey*, 97.
35. *Cambridge Modern History*, IV, 705.
36. Vambery, A., *Story of Hungary*, 282.
37. Gibb, E. J., *Ottoman Literature*, 3.
38. Ibid., 209 f.
39. Browne, III, 455.
40. *Jami*, Mulla Nuru d. Din, tr. E. Fitzgerald, 69.
41. Pope. *Masterpieces*, 146.
42. Davise, F. H., *Persian Mystics : Jami*, 71.
43. Clavijo, 153.
44. Saladin, H., et Migeon, G., *Manuel d'ort musulmane*, I, 357.
45. Cf. Pope, A. U., *Survey of Persian Art*, IV, 428 f.
46. Ibid., III, 1324.
47. Sykes, II, 155.
48. In Dimand, M. S., *Handbook of Muhommadan Art*, 42.
49. Arnold, T., and Guillaume, A., *Legacy, of Islam*, 96.
50. Ibn Battuta, M., *Travels*, tr. H. A., Gibb, 148.
51. Ibid., 57.
52. Sarton, G., *Introd, to the History of Science*, II-2, 1100.
53. Arnold, *Legacy of Islam*, 340.
54. Ibn Khaldun, *Prolegomènes*, I, p. xxx.
55. Ibid., lxxiii.
56. Ibid., 4.
57. 71.
58. 12.
59. 67.
60. Boer, T., *History of Philosophy in l' Islam*, 203.
61. Ibid., 205.
62. De Vaux, C., *Les penseurs de l'Islam*, I, 288.
63. Ibn Khaldun, I, 175.
64. Ibid., 176 f.
65. 170 f.
66. Ibid., Introd., xxxii.
67. Ibid., 95.
68. Introd., xxxii.
69. Ibid., 324.
70. Ibid., III, 44.
71. I, 303.
72. I, 345; III, 300-5.
73. I, 333, 354.
74. III, 227, 233, 240.
75. III, 115-20, 184, 188; I, 218.
76. De Vaux, I, 282.
77. Ibn Khaldun, III, 249; I, 347.
78. III, 456.
79. III, 125.
80. Issawi, C., *An Arab Philosophy of History*, 21.
81. Toynbee, A., *A Study of History*, III, 321.
82. Sarton, III-2, 1770.

CHAPTER XXXI

1. *Cambridge Mod, Hy*, III, 112.
2. Sykes, II, 164; Browne, IV, 21.
3. Browne, IV, 62.
4. Ibid., 51.
5. Hughes, T. P., *Dictionary of Islam*, 572.
6. Doughty, Chas., *Arabia Deserta*, I, 59.
7. Sykes, II, 163.
8. Pope, A. U., *Introduction to Persian Art*, 224.
9. Browne, IV, 93.
10. Sykes, II, 168-9.
11. Dimand, M. S., *Guide to an Exhibition of Islamic Miniature Painting*, 34.
12. Pope, A. U., *Catalogue of a Loan Exhibition of Early Oriental Carpets*, 39.
13. Merriman, R. B., *Suleiman the Magnificent*, 33.
14. Ibid., 190.
15. *Camb. Mod. Hy*, I, 92.
16. Guicciardini, F., *History of the Wars in Italy*, VIII, 12; Schevill, F., *History of the Balkan Peninsula*, 217; *Camb. Mod. Hy* I, 93.
17. Merriman, 60.
18. Ibid., 61.
19. Bury, J. B., in *Camb, Mod, Hy*, I, 93.
20. Merriman, 72.
21. *Camb, Mod. Hy*, 94-5.
22. Ibid., 95.
23. Ranke, L. von, *History of the Reformation in Germany*, 579.
24. Merriman, 124.
25. Ibid., 141-2.
26. *Camb, Mod, Hy*, III, 123.
27. Gibbons, *Foundation of the Ottoman Empire*, 81; Schevill, 240.
28. Schevill, 233.
29. Merriman, 171.
30. Bury in *Camb, Mod, Hy*, I, 101.
31. Merriman, 202.
32. Ibid., 165.
33. *Camb, Mod, Hy*, I, 101.
34. Creasy E. S., *History of the Ottoman Turks*, 113; Merriman, 148.
35. Robertson, Wm., *History of the Reign of Charles V*, II 367.
36. Schevill, 238.
37. Creasy, 109.
38. Lane-Poole, S., *Saladin*, 36.
39. Hitti, P. K., *History of the Arabs*, 19.
40. Merriman, 203.
41. Gibbons, 74; Creasy, 106.
42. Bacon, Fr., *Philosophical Works*, ed Robertson, 749.
43. Creasy, 113.
44. Gibb, *Ottoman Literature*, 233.
45. *Camb, Mod, Hy*, VI, 420.
46. Creasy, 108.
47. Ibid., 109.
48. Gibb, 123-8.
49. Luther, *To the Christian Nobility*, in *Works*, II, 149.
50. Froude, J. A., *The Reign of Henry VIII*, II, 184n.
51. Lang. A., *History of Scotland*, II, 78.

52. Gibb, 218.
53. Merriman, 185-93; Robertson, *Charles V*, II, 365-73

CHAPTER XXXII

1. Percy, Thos., *Reliques of Ancient English Poetry*, II, 116; Jewish Encyc., XII, 462.
2. Marcus, J., *The Jew in the Medieval World*, 395-7.
3. Graetz, H., *History of the Jews*, IV, 272.
4. Erasmus, Letter to Capito, March, 13, 1518.
5. Graetz, IV, 296; Abbott, G. F., *Israel in Europe*, 198-9.
6. Abbott, 203.
7. Baron, Salo, *Social and Religious History of the Jews*, II, 58 f.
8. Sarton, *Introduction to the History of Science*, III-1, 57.
9. Graetz, IV, 220.
10. Ibid., 407.
11. Pasror, L., *History of the Popes*, VIII, 444.
12. Id., X, 372.
13. Roth, C., in Finkelsetein, L., ed., *The Jews*, 239.
14. Waxman, M., *History of Jewish Literature*, II, 66.
15. Roth, C., *The Jewish Contribution to Civilization*, 92.
16. Thompson, J. W., *Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages*, 30.
17. Newman, L. J., *Jewish Influence in Christian Reform Movements*, 436-50.
18. Dubnow, S. M., *History of the Jews in Russia and Poland*, I, 61.
19. Ibid., 85-7.
20. Abrahams, Israel, *Jewish Life in the Middle Ages*, 403.
21. Newman, 483.
22. Ibid., 473.
23. Graetz, IV, 549-51.
24. Finkelstein, 241.
25. Coulton, G., *Medieval Panorama*, 185.
26. Sarton, III-2, 1059.
27. Coulton, G. G., *From St. Francis to Dante*, 110.
28. Janssen, J., *History of the German People at the Middle Ages*, II, 73.
29. Roth, *Jewish Contribution* 25.
30. Graetz, IV, 286.
31. Ibid., 245.
32. Cf. e.g., Coulton, *Life in the Middle Ages*, II, 147.
33. Graetz, IV, 253.
34. Ibid., 55-7; Baron, II, 29.
35. Monmarché, M., ed., *Châteaux of the Loire*, 190.
36. Graetz, IV, 98.
37. Lea, *Inquisition in Spain*, I, 101; Abbott, 103; Graetz, 103.
38. Ibid., 101.
39. Abrahams, *Jewish Life*, 331.
40. Marcus, 44.
41. *Cambridge Medieval History*, VII, 657.
42. Baron, II, 29.
43. Lea, *Inquisition in the Middle Ages*, II, 379.
44. Graetz, 109.10.

45. Thompson, *Economic and Social History*, 214.
46. Kastein, J., *History and Destiny of the Jews*, 321.
47. Janssen, II, 78.
48. Ibid, 76.
49. Jew, Encyc, III, 554.
50. Graetz, 302-7.
51. Ibid., 513.
52. Ibid, 515.
53. Ibid., 520-1.
54. Ibid., 523,
55. Prescott, W, H., *History of the Reign of Ferdinand and Isabella*, I, 517 ; Abbott, 191.
56. Burckhardt, J., *Civilization of the Renaissance in Italy*, 488.
57. Sombart, W., *The Jews and Modern Capitalism*, 17.
58. Finkelstein, 240.
59. Roth, *Jewish Contribution*, 210.
60. Graetz, 500.
61. Ibid., 515
62. Ibid., 525-7.
63. Ibid., 567. Pastor, XIV, 271.4.
64. Abbott, 103 ; Abrahams, *Jewish Life*, 67.
65. Pastor, XIV, 274.
66. Abbott, 204; Robertson, W., *History of the Reign of Charles V*, I, 206-7.
67. Pastor, i.c.
68. Graetz, 361-2.
69. Ibid.,
70. Ibid., 356.
71. Robertson, W, *Charles V*, I, 207.
72. Burton, R, F., *The Jew, the Gypsy, and El Islam*, 65.
73. Graetz, III, 511.
74. Durant, W., *Age of Faith*, 374.
75. Finkelstein, 229.
76. Abrahams, *Jewish Life*, 160.
77. Abbott, 202.
78. Marcus, 170 f.
79. Abrahams, I., *Chapters on Jewish Literature*, 226.
80. Waxman, II, 258.
81. Jew, Encyc, XI, 404.
82. Baron, II, 132.
83. Husik, I, *History of Medieval Jewish Philosophy*, 360 ; Waxman, 256.
84. Jew, Encyc., VIII, 29.
85. Baron, 85.

CHAPTER XXXIII

1. Mattingly, G., *Catherine of Aragon*, 109.
2. Agricola, *De re metallica*, 99, 100.
3. Ibid., xiii, 46-7, 52.
4. Usher, 274.
5. Toynbee, A., *A Study of History*, IX, 365-6.
6. Erasmus, "Diversoria", in *Colloquies*, I, 288 f.
7. *Merchant of Venice* III, iv, 271.
8. Smith, *Reformation*, 473.
9. Froude, *Edward VI*, 41-2; Marx, *Capital*, 808.
10. Smith, *Reformation*, 554-5,
11. Ibid, 469.
12. Thomas Aquinas, *Summa theologiae*, II, IIae, lxvi, 7 ; cxviii, 1.
13. Lacroix, *Manners, Customs and Dress during the Middle Ages*, 479.

14. *Camb Mod Hy*, II, 436.
15. Kesten, *Copernicus*, 33.
16. Coulton, *Medieval Village*, 338.
17. Lecky, *Rationalism*, II, 113.
18. Hackett, *Francis I*, 406.
19. Smith, *Reformation*, 483.
20. Beard, *Luther*, 126.
21. Froude, *Edward VI*, 2.
22. Pollard, *Henry VIII*, 432.
23. Armstrong, *Chales V*, I, 59.
24. Starkey, Thos, *Dialogue between Reginald Pole and Thomas Lupset*, London, 1871, in Allen, *Political Thought*, 149.
25. Smith, *Erasmus*, 27.
26. Bakeless, *Tragicall Hy of Christopher Marlowe*, 50.
27. Friedländer, *Roman Life and Manners*, II, 93.
28. Janssen, XI, 239.
29. Brantôme, *Lives of Gallant Ladies*, 65, 68.
30. Maulde, 391.
31. Lacroix, *Prostitution*, II, 1151.
32. Janssen, XI, 233.
33. Lacroix, *Prostitution* II, 1151f.
34. Brantôme, 133.
35. Lacroix, II, 1189.
36. Smith, *Reformation*, 321.
37. Erasmus, *Colloquies*, I, 342.
38. Rabelais, iii, 48.
39. Ascham, *The Scholemaster*, 50.
40. In Smith, *Reformation*, 412.
41. Turner, *Hy of Courting*, 45-7; Briffault, *The Mothers*, III, 415; Smith, *Modern Culture*, I, 531.
42. Sichel, *Catherine de' Medici*, 6.
43. Cf. Lippmann, W, *The Public Philosophy*, 117.
44. Cf. O'Brien, *Economic Effects of the Reformation*, 75.
45. Schapiro, *Social Reform*, 31.
46. *Ibid*,
47. Froude, *Edward VI*, 166.
48. Maulde, 66.
49. Sichel, *Women*, 230.
50. O'Brien, 55.
51. Janssen, III, 367.
52. Froude, *Edward VI*, 69.
53. Prescott, *Mary Tudor*, 327.
54. Froude, I.c.
55. Smith, *Reformation*, 559.
56. Ashley, II, 369.
57. *Ibid.*, 342.
58. Watson, F., *Luis Vives*, 61.
59. Froude, *Henry VIII*, II, 372.
60. Lecky, *Hy of European Morals*, II, 54.
61. *Ibid.*, 55.
62. Janssen, IV, 60 f.
63. *Werke* (Erlangen), I, 14, in Maritain, *Three Reformers*, 186.
64. O'Brien, 51, transposed.
65. Janssen, VI, 275; Smith, *Lutber*, 416.
66. Janssen, VII, 301.
67. Lea, *Auricular Confession*, III, 428.
68. Calvin, Preface to the Geneva Catechism.
69. Lang, *Hy of Scotland*, II, 402.
70. Froude, *Edward VI*, 265.
71. Trail, III, 160.

72. Lacroix, *Prostitution*, II, 1213-4.
73. Maulde, 217.
74. Sch ff, *Swiss Reformation*, 722.
75. Wright, Thos, *Womankind in Western Europe*, 325.
76. Lacroix, *Prostitution*, II, 1205.
77. *Ibid.*, 1204.
78. Allen, P, S., *Age of Erasmus*, 203-4; *Smith Reformation*, 510.
79. Wright, Thos., *Domestic Manners*, 491.
80. Coulton, *Social Life*, 376; *Medieval Panorama*, 313
81. Baedeker, *Munich*, 12.
82. Huizinga, *Waning of Middle Ages*, 289.
83. *Smith Reformation*, 500.
84. Wright, *Domestic Manners*, 485-8.
85. In Nock & Wilson, *Rabelais*, 41.
86. In Bainton, *Here I Stand*, 343.
87. Rashdall, *Universities*, III, 422.
88. In Lacroix, *Manners*, 241.

CHAPTER XXXIV

1. Sichel, *Women*, 246.
2. Lang, *Music in Western Civilization*, 300.
3. Einstein, A., *The Italian Madrigal*, I, 7.
4. Grove, *Dictionary of Music and Musicians*, III, 459.
5. Whitcomb, *Literary Source Book of the German Renaissance*, 22.
6. Grove, III, 254.
7. Mc Kinney and Anderson, *Music in History*, 210.
8. Blok, II, 377.
9. Kiesewetter, *Hy of Music*, in Grove, III, 684.
10. Bainton, *Here I Stand*, 343.
11. McKinney, 303.
12. Guizot, *Hy of France*, III, 123.
13. Bainton, *Here I Stand*, 344.
14. Janelle, *Catholic Reformation*, 218.
15. Froude, *Erasmus*, 122.
16. Grove, IV, 20 f.
17. Cf. *Oxford Hy of Music*, II, 243.

فهرس الجزء الخامس من المجلد السادس

صفحة

الفصل التاسع والعشرون

توحيد روسيا

١٣٠٠ - ١٥٨٤

- ١ - الشعب ١
- ٢ - أمراء موسكو ٧
- ٣ - إيفان الرهيب : ١٥٣٣ - ١٥٨٤ ١٣

الفصل الثلاثون

عقرية الإسلام

١٢٥٨ - ١٥٢٥

- ١ - الأياخانات في فارس : ١٢٦٥ - ١٣٣٧ ٣٠
- ٢ - حافظ الشيرازى : ١٣٢٠ - ١٣٨٩ ٣٤
- ٣ - تيمور ١٣٣٦ - ١٤٠٥ ٤١
- ٤ - المماليك ١٣٤٠ - ١٥١٧ ٥١
- ٥ - العثمانيون ١٢٨٨ - ١٥١٧ ٥٤
- ٦ - الأدب الإسلامى ١٤٠٠ - ١٥٢٠ ٦١
- ٧ - الفن فى آسيا الإسلامية ٦٦
- ٨ - الفكر الإسلامى ٧٤

الفصل الحادى والثلاثون

سليمان القانونى

١٥٢٠ - ١٥٦٦

- ١ - الإسلام فى أفريقيا : ١٢٠٠ - ١٥٦٦ ٨٦
- ٢ - فارس تحت حكم الصفويين ١٥٠٢ - ١٥٧٦ ٩١
- ٣ - سليمان القانونى والغرب ١٠٠
- ٤ - الحضارة العثمانية ١٠٨
- ١ - الحكومة ١٠٨
- ٢ - الأخلاق ١١٦
- ٣ - الآداب والفنون ١٢٠
- ٥ - سليمان نفسه ١٢٤

الفصل الثانى والثلاثون

اليهود

١٣٠٠ - ١٥٦٤

- ١ - التائبون ١٣٠
- ٢ - على السفود ١٤٣
- ٣ - الشتات الثانى ١٥٥
- ٤ - فن البقاء ١٦١
- ٥ - الفكر اليهودى ١٦٨

الباب الرابع

ما وراء الستار

الفصل الثالث والثلاثون

حياة الناس

١٥١٧ - ١٥٦٤

- ١ - الاقتصاد ١٧٩
- ٢ - القانون ١٩١
- ٣ - الأخلاق ١٩٦
- ٤ - آداب السلوك ٢٠٨

الفصل الرابع والثلاثون

الموسيقى

١٣٠٠ - ١٥٦٤

- ١ - الآلات ٢١٦
- ٢ - سيطرة الموسيقى الفلمنكية ١٤٣٠ - ١٥٩٠ ٢٢١
- ٣ - الموسيقى والإصلاح الديني ٢٢٨
- ٤ - بالسترينا ١٥٢٦ - ١٥٩٤ ٢٣١

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الإصلاح الديني

مراجعة
عالم أدهم

ترجمة
محمد علي أبودرة

الجزء الخامس من المجلد السادس

٢٦



تونس



بيروت